صدام الثقافات وتفاعل الحضارات

دراسة سيكوسوسيولوجية

أ.د. مفتاح محمد عبد العزيز



صدام الثقافات وتفاعل الحضارات

دراسة سيكوسوسيولوجية

إصدارات

مجلس الثقافة العام

صدام الثقافات وتفاعل الحضارات

دراسة سيكوسوسيولوجية

أ. د. مفتاح محمد عبد العزيز

أستاذ الصحة النفسية والعلاج النفسي

الناشر

مجلس الثقافة العام

اسم الكتاب صدام الثقافات وتفاعل الحضارات (دراسة سيكوسوسيولوجية)
اسم المؤلف أ. د. مفتاح محمد عبد العزيز
سنة النشر 2008 م
رقم الإيداع 322 / 2008 م (دار الكتب الوطنية)
الترقيم الدولي 978 - 9959 - 38 - 839 - 1

تصميم الغلاف علي العباني
لوحة الغلاف نرجس الصيد
التنفيذ الفني دار قباء للطباعة – القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات – سرت
هاتف 002185468622 – بريد مصور 002185473161
فرع طرابلس – عمارة الواحات - شارع عمر المختار
هاتف 00218214449894 – بريد مصور 00218213335388
ص ب 2764 طرابلس
فرع بنغازي - الفويهات الغربية – الطريق الدائري الثاني
هاتف 00218612241577 – 00218612241578
بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي
بريد إلكتروني – LCC2_2005 @Yahoo.ca

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ
بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ
وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾

[الأنعام :165]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ
بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾

[الرعد:11]

إهـــداء

إلى مدينة القدس الشامخة رمز الصدام والتفاعل

إلى شهداء ليبيا الذين جابهوا إرهاب المستعمر بالتحدي

إلى علماء ليبيا الذين قدموا الغالي والرخيص

إلى أبي وأمي رحمهما الله وطيب ثراهما ومثواهما

إلى زوجتي وأبنائي رموز السند والعون

إلى طلابي بالجامعات الليبية رمز المستقبل

مقدمة الكتاب

الزمــن يتحرك إلى الأمام ونحن العرب عموما نبدو في بعض المواقع متحركين ببطء لا يتناسب مع حركة الزمن وتحرك الآخرين معه وفي مواقع أخرى نبدو جامدين عن الحركة، بل نتحرك إلى الخلف أحيانا. كتاب "صدام الثقافات وتفاعل الحضارات" دراسة سيكوسوسيولوجية. هو تتويج لجهد امتد ســنوات مــن القــراءات لكتب عديدة منها: " حوار الحضارات" و"حضارة الموجــة الثالثة" و"صدام الحضارات" و"صراع الحضارات" و"نهاية التاريخ" و"الحضــارة والإســلام والغــرب" و"الإسلام وأسطورة المجابهة" و"الخطر الإســلامي. أســطورة أم حقــيقة؟ و"الإسلام والغرب " ثقافة تحت الحصار. وملخصــات لكتــب أخــرى مــنها: الحمراء: أثر الحضارة العربية الثقافي والاجتماعــي على الأندلس وأسبانيا؟ " و"مجزرة البوسنة وتخاذل الغرب ــ صراع الدم والتاريخ في البلقان " و"التجربة اليابانية " و"بحثا عن عالم أفضل" و"الأصــوليات المعاصرة" و"صدمة المستقبل "وغيرها.لقد حملت هذه الكتب تفسيرات وتحليلات متنوعة لمفهوم "الثقافة" و"الحضارة" وهذا ما دفع الباحث لملاحظــة القصور الحالي في بناء منظومة الثقافة وإعادة تحديد موقعها في أي محاولــة للنهوض البشري. صحيح نحن جميعا نحس أو نشعر بأن الثقافة هي الوسط الحيوي الذي يتحرك فيه البشر، ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، لكننا نحــن العرب لم نبلور أو نطور هذا الإحساس أو الشعور في قناعة ملموسة. بــل تحولــت الــثقافة أو الحضارة إلى صراع، بين مذاهب وأيديولوجيات ، أو تحولت تلك المفاهيم إلى حوارات بين قديم وحديث.

هــذا الكــتاب يركز على تحليل مفهوم "الثقافة" و"الحضارة" ودلالاتها بالنســبة لــنا كعرب ومسلمين للتعريف بالنزاعات التي تواجهنا فيما تصطدم المدينة الجديدة بالقوى الراسخة للمدينة القديمة.

اشتمل هذا الكتاب على ستة فصول: **الفصل الأول:** اختص بالبحث عن تحديد المشكلة ومفاهيمها واقتراحاتها. والفروق بين الثقافة والحضارة وعوامل الصدام بين الإسلام والغرب في القرن العشرين. **والفصل الثاني:** اختص بالبحث عن التوازن وتفاعل الحضارات، وتصورات التوازن وصدام الثقافات، والتفاعل الحضاري بين عالمية الإسلام والنظام العالمي الجديد، **والفصل الثالث:** خصص لدراسة التفاعل المتبادل بين الثقافة والحضارة وما يحمله هذا التفاعل من حقائق مزعجة ، بالإضافة إلى ذلك تناول هذا الفصل سلطة الثقافة أو ثقافة السلطة. وماذا يقول خطاب صدام الحضارات؟ **الفصل الرابع:** خصص للبحث عن الثقافة والتجديد، ولغة الحوار وأسسها، وثورة الذات على الذات (المشكلة والتشخيص)، وتحليل الثقافة وعجز الواقع من وجهة نظر بعض المفكرين. وعوامل الصدام والتفاعل في الثقافة والحضارة.والتحديات التي تواجه الثقافة العربية، بالإضافة إلى عرض لنموذج الازدهار للذات الفاعلة وعلاقتها بالمجتمع والمتغير المعلوماتي.

الفصل الخامس: اختص بتناول المستقبل من خلال القرن العشرين ومدى الاستفادة من تلك التحولات الثقافية والعلمية في تطوير الثقافة.

وتوصل الباحث في هذا الفصل إلى إيجاد توصيف الثقافات والحضارات.

والفصل السادس: تناول التفاعل والتغيرات النفسية والفكرية الجديدة من خلال دراسة التفاعل بين الثقافات والحضارات الكونية وما يصاحبها من التغيرات في الشخصية الاجتماعية ثم الهوامش.

إنني لأرجو أن يسهم هذا الكتاب في توسيع الفهم والاستيعاب والحوار وتعميقه والاستعاضة عن هيمنة الغرب الثقافية. وعلينا لا نتشدق بحوار الحضارات أو الأديان قبل أن نحاور أنفسنا نحن العرب.

وأخيرا نقدم هذا الكتاب لعله يقدم إضافة جديدة وتجديدية للمكتبة العربية ، وعلى الله قصد السبيل.

الموضـــوع رقم الصفحة

الفصل الأول

المشكلة ومفاهيمها وافتراضاتها

الموضـــوع رقم الصفحة

الفصل الثاني

التوازن وتفاعل الحضارات

الفصل الثالث

التفاعل التبادلي بين الثقافة والحضارة.

الموضـــوع رقم الصفحة

الفصل الرابع

الثقافة والتجديد (حوار لا دمار) (قبول أو رفض)

الفصل الخامس

المستقبل من خلال القرن العشرين.

الموضـــوع رقم الصفحة

الفصل السادس

التفاعل والتغيرات النفسية والفكرية الجديدة

قائمة الأشكال

الفصل الأول

المشكلة ومفاهيمها وافتراضاتها

المدخل (المشكلة) :

لقد نشر صموئيل هنتغتون كتابه "صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي" عام (1996) حيث أكد على فكرة الصراع في العالم الجديد لن تكون إيديولوجية أو اقتصادية بل ستكون حضارية في أساسها. استنادا إلى الحضارات التي ستختلف باختلاف الدين، والتاريخ، واللغات والعادات، وأن العالم سيشهد صراعات بين الحضارات التي يعتبرها أسس المعارك في المستقبل وأن أمريكا تحدد نظرتها للأمور في الحركة مستقبلا على رؤية هذا التوصيف لأن المتناقضات الحضارية (دينيا وعرقيا..) ستحدد طبيعة التحالفات في المستقبل.

ولهذا يطرح هنتنغتون في كتابه "صدام الحضارات" تصور للمستقبل استنادا إلى الصراعات الحضارية المنتظرة.فالافتراض الأساسي في خطاب صدام الحضارات هو "أن الثقافة أو الهوية الثقافية الحضارية والتي في أوسع معانيها الهوية الحضارية، هي التي تشكل نماذج التماسك، والتفكك، والصراع في عالم ما بعد الحرب البادرة".

ولقد حاول في كتابه أن يوظف كل ما يمكن من معارف في سبيل إثبات هذه الفرضية، ففي الفصل الثاني من كتابه "صدام الحضارات" قدم مفهوما مرنا للحضارة وللثقافة، وهو يستخدمها بنفس المعنى "الثقافة حضارة، والحضارة ثقافة، فمفهوم الحضارة عنده يشمل الثقافة، أي ما تحمله كلمة الثقافة من معان

ترتبط بالدين وأنماط الحياة والعلاقات والعبادات والطقوس، وبهذا المعنى فهي تشمل خصوصيات الشعوب والأقوام والجماعات الدينية والعرقية.

وعلى هذا الأساس وضع هنتنغتون توصيف للحضارات المعاصرة وقد أشار إلى أن "الديانة خاصية أساسية في التعريف بهذه الحضارات": وهذه الحضارات هي:

"الحضارة الغربية وتضم النموذجين الأوروبي والأمريكي وبعض الدول التي استوطنها الأوروبيون مثل أستراليا ونيوزيلاندا، الحضارة الكونفوشيوسية أو الصينية، والحضارة اليابانية، والحضارة الهندوسية أو الهندوكية، الحضارة الأرثوذكسية وحضارة أمريكا اللاتينية، والحضارة الأفريقية، والحضارة الإسلامية، ويستطرد هنتنغتون بعد ذلك قائلا بأن الحضارتين الإسلامية والكونفوشيوسية هما الحضارتان اللتان لا يمكنهما أن تندمجا في الحضارة الغربية وتسعيان للتحديث بدون "غربنة" وأن الصراع بينهما وبين الحضارة الغربية حتمي"[1].

يلاحظ في تصنيف وتحليل هنتنغتون هو عدم ذكره للديانة اليهودية بالرغم من تأكيده بأن" الدين" عنصر أساسي للتمييز بين الحضارات، ولم يشر أيضا إلى الصراع المحتمل بين الإسلام واليهودية، وبين اليهودية والمسيحية. بالإضافة إلى ذلك لم يستخدم الديانة كمعيار للتصنيف إلا عندما جاء على ذكر الحضارة الإسلامية، فالحضارة الغربية نسبة إلى الغرب وهو مجال جغرافي، والكونفوشوسية نسبة إلى فيلسوف الصين كونفوشيوس الذي عاش في القرن الرابع ق.م واليابانية نسبة إلى المجتمع الياباني.والهندية نسبة إلى المجتمع الهندي. والسلافية الأرثوذكسية نسبة إلى عرق ودين، والحضارة الإفريقية نسبة إلى القارة الأفريقية، وحضارة أمريكا اللاتينية نسبة إلى قارة أمريكا اللاتينية. هذا يؤكد أيضا أن "هنتنغتون" لم يكن دقيقا في معاييره. فقد اختار معايير متعددة للتمييز بين الحضارات وهذا يعتبر إخلالا بالمنهجية العلمية التي

يجب تتبع في مثل هذه الموضوعات. فالمنهج العلمي يتطلب تحديد المفاهيم، والمعايير إجرائيا، وعليه كان على هنتنغتون أن يصنف جميع الحضارات باستخدام معيار واحد فقط. مثلا لو أردنا استخدام الدين كمعيار للتصنيف بين الحضارات ستكون الحضارات على النحو الآتي:

الحضارة المسيحية، والحضارة الإسلامية، والحضارة البوذية، والحضارة اليهودية.

لهذا كان تقسيم هنتنغتون للحضارة مثيرا للشكوك والتساؤلات ، فإذا كانت الحضارة تحدد بعناصر أساسية موضوعية مثل: الديانة، واللغة، والعبادات، والمؤسسات، وذاتيا بالتطابق والتماثل، فلماذا هذا التمييز بين هذه الحضارات؟

وبما أن مسألة صدام الحضارات شغلت أذهان الجماهير والمثقفين العديد من السنوات، ولقد كتب الكثير من التعليقات حول أطروحات صدام الحضارات برفضها، ومنها ما يؤيدها بصورة صريحة أو ضمنية ومنها ما يقترح بديلا عنها حوار الحضارات.

وبمـــا أن العــــرب والمسلمين هم أكثر المستهدفين في هذا العالم الجديد حيث إن نصف الكتاب تقريبا يتحدث عنهم، فهذا الموقف حتم علينا ومن وجهة نظـــرنا كباحثيـــن ، أن نــــرد على هذه الأطروحة كمحاولة لزيادة الوعي لدى المواطـــن العربـــي والمســـلم وذلك بتحليل مضمون مفهوم "الثقافة والحضارة ودلالاتهـــا بالنسبة لنا كعرب ومسلمين. ولذلك حاولت وضع عنوان الرد على هذه الأطروحة في كتاب:

"صدام الثقافات وتفاعل الحضارات" لماذا؟ لأنه بالمعنى الواسع يمكن القول إن مصادر العقل والعقلانية في أي حضارة إنما تلتمس في الدين والقانون والفلسفة إذ تتفاعل هذه المجالات في الحياة والبحث العلمي لتتيح أمشاجا متنوعة

من التوجه الفكري القائم على الأمثال والمجاز والأفكار والحصيلة اللغوية وتسعى هذه العناصر الثلاثة (الدين والقانون والفلسفة) في تكوين النماذج السلطوية للعقل والعقلانية في الممارسة اليومية لحل ما يثير الجدل.

فمشكلة الثقافة في المجتمعات العربية والإسلامية تتصل في الحقيقة اليوم بجوانب مختلفة، جعلتني أرى من المفيد في هذا الكتاب أن أضيف أن الأمة العربية الإسلامية لا تحمل أي صدام مع مفهوم الحضارة. ولكن قد يكون هناك صدام مع مفهوم الثقافة. لأن حالة التطور الراهنة في العالم العربي والإسلامي لمعالجة هذا المفهوم يضعنا أمام مشكلة لغوية وتاريخية. فإذا قلنا من أين جاءت كلمة" ثقافة" ومنذ متى استخدمت في اللغة العربية؟ إن أول فكرة تخطر لنا للإجابة عن سؤال كهذا هي أن نستشير قاموسا، ولكن القواميس الموجودة القديمة والحديثة لا تذكر هذه الكلمة إلا إلماما.

فلسان العرب يقول في المجلد العاشر: "يقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم، والقواميس الحديثة تقول: " ثقف ثقافة صار حاذقا خفيفا، وثقف الكلام فهمه بسرعة.

فـــإذا ما رجعنا قليلا في مجال البحث لم نجد أثرا لتلك الكلمة في لغة ابـــن خلدون ؛ الذي يعتبر علي أية حال المرجع الأول لعلم الاجتماع العربي فـــي العصـــر الوسيط، ولو زدنا في رجوعنا إلى ما قبل ذلك لم نجد الكلمة مســـتعملة في العصر الأموي والعباسي، إذ لا أثر لها في اللغة الأدبية أو في اللغة الرسمية والإدارية لذلك العصر.

لعل في هذا الموقف نوعا من التعارض، ولكنه تعارض لا يتصل بمسألة لغوية فسحب، فإن الاختلاف بين الموقفين أكثر عمقا، إذ هو الفرق بين واقع اجتماعي وبين درجة تقبله كفكرة في مجال شعورنا، أي كعنصر من عناصر الإحساس والإدراك مندمج في بنائنا العقلي.

فعلم الإنسان، وعلم النفس، وعلم الأجناس والاقتصاد السياسي تتلاقى أضواؤها جميعا وتتركز في نقطة واحدة.

هي "الواقع الاجتماعي"، فهي تتناوله بطريقة أكثر وأعظم اتساعا وعمقا. وإذا بفكرة "الثقافة" تزداد وضوحا وجلاء في هذا المجال، وتصبح مفهوما أكثر تحديدا، بحيث أصبح إحدى مشكلات علم الاجتماع وعلم النفس، ليثور في أذهان الباحثين والمفكرين سؤال: ما هي الثقافة؟ سؤال اضطرتهم إليه الأفكار الجديدة التي حملها إليهم(*).

علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الأجناس، وهو يدل على الحاجة إلى خطوة جديدة في طريق تحديد معنى "الثقافة" للانتقال من الفكرة العفوية الموروثة عن عصر النهضة الأوروبية إلى فكرة علمية جديدة. وكان من الطبيعي أن يظل تصور "الثقافة" على ما كان عليه في عصر النهضة، أي على أنها مجموع ثمرات الفكر في ميادين الفلسفة والعلم والقانون والفن... الخ.

بيد أن هذا التعريف التاريخي لا يتفق كثيرا مع طبيعة البحث والفكر في القرن التاسع عشر، باعتباره قرن التشريح والتحليل الكيماوي.

ومن هنا نشأت محاولات تهدف إلى وضع تعريف جديد للثقافة ؛ إذ لم يعد التعريف التاريخي الذي خلفه عصر النهضة كاف في إقناع المنطق الجديد. وهنا ينشأ تيار جديد، وسط تقاليد الفكر الكلاسيكي وعاداته، تلك التي كانت ترى الثقافة ميراثا من مواريث روما وأثينا، وتفسر "النهضة" على أنها هي ذاتها "عودة التاريخ القديم".

والفكر الجديد يلاحظ أن فكرة "الثقافة" تمتد لتشمل ما وراء "الإنسانيات الإغريقية اللاتينية"، وأن معنى "الثقافة" يتجاوز ما أنتجته قرائح الفكر

(*) وردت الكلمة مرتين أو ثلاثة في المقدمة بصورة أدبية كمفردة لغوية دون الوقوف عند كلمة "ثقافة" كمفهوم وتقديرها كظاهرة اجتماعية.

الكلاسيكي من أعمال أدبية ليشمل في رحابته واقعا اجتماعيا، يتجاوز هو أيضا حدود أوروبا ليحمل بصورة عامة طابع العبقرية الإنسانية، فهذا هو العصر الذي اكتشف فيه أوروبا بعامة، وألمانيا خاصة ثقافات آسيا على يد شبنهور، ونيتشه.

ونستطيع اليوم أن نرد مجموع ما قيل في تفسيرات الثقافة إلى مدرستين هما: المدرسة الغربية؛ التي ظلت فيه لتقاليد عصر النهضة وهي ترى عموما أن الثقافة ثمرة الفكر، أي ثمرة الإنسان. ثم المدرسة الماركسية، التي ترى أن الثقافة في جوهرها ثمرة المجتمع.

ونحن لا نقصد بهذا التقسيم أن تضع حدا صارما بين كلا "الاتجاهين، وإنما تهدف إلى مجرد الفصل بين صورتين لموضوع واحد، في إطارين مختلفين من أطر الفكر. فالفكر والمجتمع يمثلان اليوم الإطارين المألوفين اللذين توضع فيهما هنا وهناك المشكلات الاجتماعية في عمومها. ثم يحدث أن يشتمل كل إطار على اختلافات شخصية. ففي حقل المجتمعات العربية والإسلامية اليوم نجد أن الأمريكان هم الذين يسيطر عموما على الاتجاهات الثقافية، ويمكننا أن نلخص رأي مفكرين من بينهم هما: "وليام أوجبرن" و"رالف لنتون" حتى يتسنى لأي قارئ أو باحث أن يطلع على فكرة المدرسة الغربية على مفهوم الثقافة والتي أطلق عليها هنتنغتون مفهوم الحضارة باعتباره علم من أعلام أمريكا.

يذهب (رالف لنتون) إلى أن الثقافة "كل" تتداخل أجزاؤه تداخلا وثيقا، ولكن من الممكن أن نتعرف فيه على شكل بنائي معين، أي أن نتعرف فيه على عناصر مختلفة، هي التي تكون "الكل".

وعند تحليل هذا التعريف نجد هناك ثلاثة مستويات لمفهوم: الثقافة، الأول هو مجال العموميات باعتباره الأرض التي تمتد فيها جذور الحياة الثقافية للمجتمع، مثل الدين واللغة والتقاليد، تلك التي تعتبر المنوال الإنساني

والجوهري الذي يحدد نوع العقلية الخاصة بالنموذج الاجتماعي، وهو نموذج شائع في صور الأفراد المنتمين لذلك المجتمع يطبع حياتهم بسلوك اجتماعي معين. والمستوى الثاني الذي ذهب إليه (لنتون) هو مستوى الأفكار الخاصة الناتجة عن التخصص المهني والتي على أساسها تكون التفرقة بين مختلف الطبقات الاجتماعية. والمستوى الثالث هو التطور في ثقافة مجتمع معين في مجموعها، وهناك نمو في مواريثه التاريخية، وهي حركة ناتجة عن الأفكار الجديدة، وعن التنظيم الصناعي، والنظريات المستحدثة والمخترعات والمكتشفات في الميدان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فهذا المستوى الثالث هو الإطار الثقافي الذي يحوط المستويين السابقين، ويؤثر فيهما، بحيث ينسب إلى تأثيره ما يطرأ عليهما من تغيير أوْ تعديل، ويحدث هذا التأثير من داخل المجتمع ذاته، كأثر ناتج عن نموه وعن حياته، كما يحدث من خارجه بفعل تبادل المؤثرات بين الثقافات المختلفة، أي بفعل الامتصاص والامتداد الثقافي.

أما (وليام أوجبرن) فإنه يفرق بين مجالين في مفهوم الثقافة: الأول هو الثقافة المادية Material Culture والآخر هو الثقافة المتكيفة Adoptive Culture. فالمجال الأول يشمل في رأيه الجانب المادي من الثقافة،أي مجموع الأشياء وأدوات العمل والثمرات التي تنتجها. ويضم المجال الثاني الجانب الاجتماعي مثل. العقائد والتقاليد والعادات والأفكار واللغة والتعليم، وهذا الجانب الاجتماعي هو الذي ينعكس في سلوك الأفراد. فتغير الثقافة في رأيه ضروري، ولكن من أين يبدأ؟ يرى (أوجبرن) أنه يبدأ في مجال الأشياء والأدوات. ثم يمتد تأثيره كما يعد الجانب الاجتماعي فالقوة المغيرة عنده كامنة في الأشياء لأنها تقبل التغير بأسرع مما تتقبله الأفكار.

أما (ماوتسي تونج) فقد ذهب في كتابه "الديمقراطية الجديدة " إلى أن مشكلة الثقافة تتجلى في جوانب معينة، ولكن الذي يثير اهتمامنا لديه بخاصة هو أنه يصف لنا كيف أن هذه الفكرة تتمثل لفكرة باعتباره ماركسيا فيقول:

"إن كل ثقافة معينة هي انعكاس من حيث شكل مفهومها لمجتمع معين..." ، فهو يعني إقرار الأشكال المادية التي تعني بها الحياة في مجتمع معين وبين أفكار هذا المجتمع.

أما (كونستا نيتنونف) في كتابه "دور الأفكار التقدمية في تطوير المجتمع" لا يعرض المشكلة صراحة وإنما ضمنا عندما يعرض موقف الفلسفة الماركسية حيالها فيقول:

"إن حياة المجتمع المادية هي واقع موضوعي ومستقل عن إرادة الناس، أما حياة المجتمع العقلية أي الثقافة Culture مجموعة الأفكار الاجتماعية والنظريات والأديان ونظريات علم الجمال والمذاهب الفلسفية ؛ فهي كلا انعكاس من هذا الواقع الموضوعي.."[2].

وبهذا ترى أن الجانبين اللذين أطلق عليهما (وليان أوجبرن) "الثقافة المادية" و"الثقافة المتكيفة" يظهران خلال التعبير الماركسي.

فالواقع أننا لو تأملنا من قريب تعريف (لنتون وأوجبرن) فسنجد فيهما ، رغم اختلافهما المذهبي ، نظرة متحدة إلى واقع الأشياء، هو واقع الولايات المتحدة الأمريكية، أي واقع مجتمع له عمره ونموه، فلنا أن نعتبر تعريفهما نوعا من التصور الطبيعي، أعني أنه فكرة صادرة من مكان واحد، في وسط تاريخي واحد.

فإذا انتقلنا إلى مجال آخر وجدنا أن وجهتي النظر الماركسي اللتين ذكرناهما يمكن أيضا أن يتقاربا في تصور آخر هو في هذه الميزة روح الوسط الأيديولوجي.

فهناك في كلتا الحالتين عنصر ضمني مكمل للتعريف، سواء كان ذلك في نطاق تاريخي، وهو نطاق الحضارة الغربية أم في نطاق إيديولوجي هو نطاق الفكر الماركسي.

فتعريف الثقافة بصورة أو بأخرى مكتمل ضمنا في فكر عالم الاجتماع الأمريكي أو "فكر الكاتب الماركسي. والسؤال الذي يرد أمام كليهما في صورة "ما هي الثقافة؟ يأخذ لديه نفس الاتجاه ونفس المعنى؛ فهي تتصل لديهما بفهم واقع اجتماعي معين موجود بالفعل في نطاق تاريخي معين، أو موجود في حيز القوة في نطاق فكري معين أيضا.

أما إذا وضع هذا السؤال في العالم العربي والإسلامي فإنه يأخذ تصورا أو معنى آخر مختلفا تمام الاختلاف ؛ إذ هو يتصل بخلق واقع اجتماعي معين لم يوجد بعد.

وعليه فإن تصور هنتنغتون في كتابه صدام الحضارات فإن وضع هذه المشكلة مختلف كما قلنا تماما ولعل الآراء التي عرضناها تعطينا في هذا الصدد توجيهات قيمة ، وإن كانت في الحق لا تمنحنا حلولا حقيقية، لأن الحلول التي قد توحي بها إلينا بهذه الطريقة لن تصادف في عقولنا العنصر الذي يكملها ضمنا، والذي تجده تلقائيا في العقل الأمريكي أو العقل الماركسي.

ومن الواضح لا نستطيع أن نرى حلا يجعل من عالم الأشياء (المادية) (الحضـــارة) هـــيكل البناء الثقافي، لا يمكن تطبيقه في المجتمعات العربية والإسلامية، حيث لم تملك بعد "عالم الأشياء" أو مفهوم (الحضارة المادية). فمـــن الواضح أن المجتمعات العربية الإسلامية ليس لديها إلا "عالم الأفكار" أي (الـــثقافة) فهـــي تلتمس فيه إخصاب فكرة وبواعث ثقافته، أعنى مبادئ التجديد والخلق والإبداع والبناء.

من أجل هذه التوعية التاريخية في المشكلة التي أثارها كتاب "صدام الحضارات" لا يمكن أن نستورد الحلول "الثقافة" ولكن يمكن أن نستورد من الخارج الأنسولين، المواد الخام والقطارات، والسيارات، وقضبان الحديد... والمرئيات والحاسبات وأجهزة الاتصالات.. الخ هذا العالم من الأشياء الحضارية لن –ولم– يكون معها صدام. هذه النظرة المتبصرة التي لم تنل فهما

كاملا من المتبارين الرئيسيين في لعبة السلطة الدولية تسهم في تفسير الكثير مما تفعله أوروبا وأمريكا واليابان... وهي تتسابق نحو الاصطدام إلا فيما بينها.

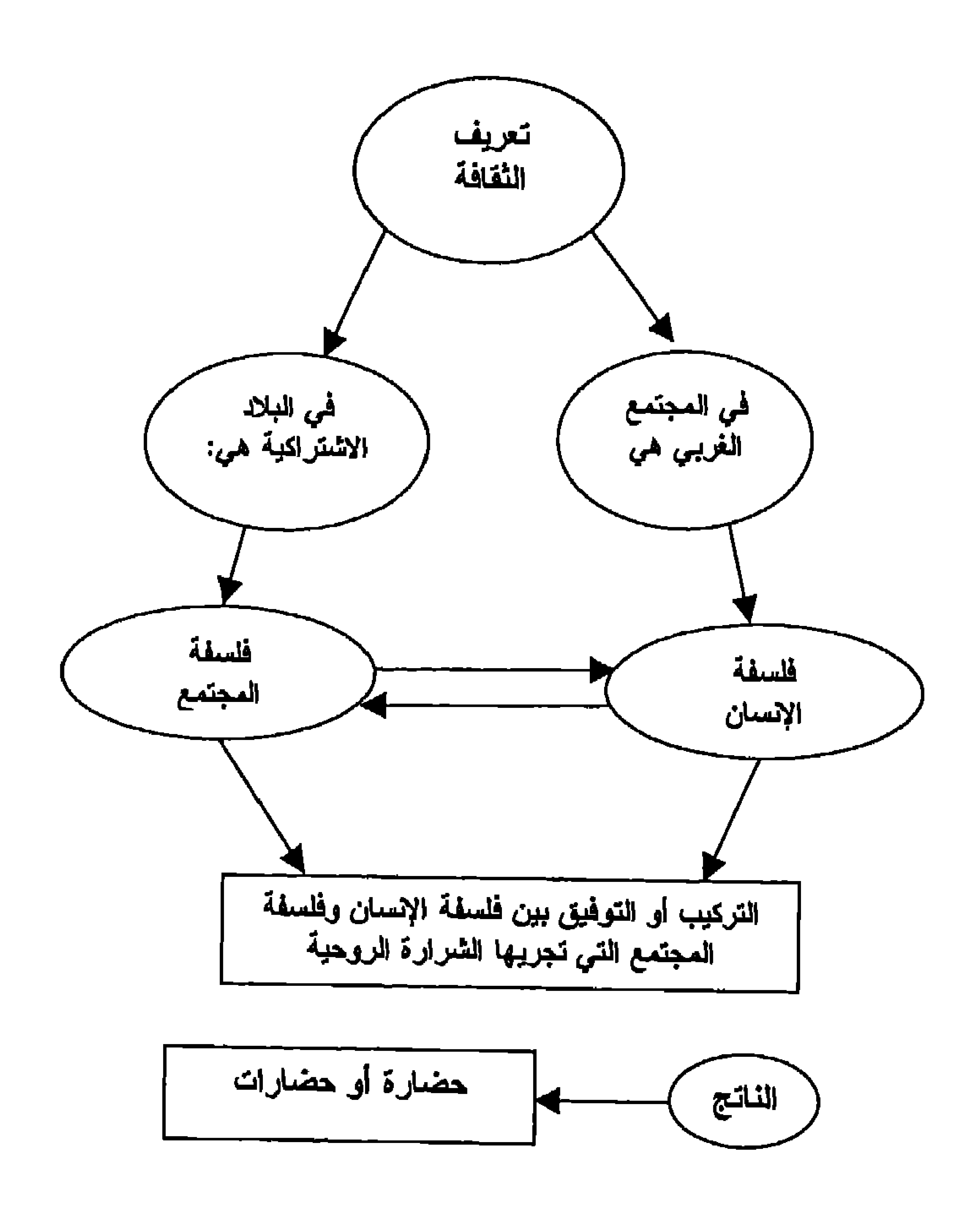
-تعريف الثقافة:

باعتبار أن موضوع هذا الكتاب "صدام الثقافات وتفاعل الحضارات" ، وأن مفهوم الثقافة يختلف عن مفهوم الحضارة. ولقد عرضت في مدخل هذا الكـتاب بعـض التعريفات لمفهوم "الثقافة" ، وكانت تلك تعريفات بحاث من المجـتمع الغربـي وخاصة المجتمع الأمريكي الذي انطلق منه كتاب "صدام الحضارات" ، والذي لم يعرف مصطلح "الثقافة" تعريفا دقيقا.

لكي يتسنى لأي باحث أو قارئ أن يطلع على المدرسة الغربية في تحديد مفهوم "الثقافة" الذي أطلق عليها كتاب "صدام الحضارات" مفهوم الحضارة.

ولهذه الاعتبارات سوف تتبنى تصنيفات لمفهوم الثقافة بحيث تخدم هذه التصنيفات مفهوم "الحضارات وتفاعلها" وليس صدامها كما اعتقد "هنتنتغتون" توظيف مفهوم الثقافة لخدمة مفهوم الحضارة التكنولوجية والمعلوماتية والحاسوب والتقانة والصناعات المختلفة.

يؤكـد العلمـاء بأنه يوجد ما لا يقل عن مائة وخمسين تعريفا لمفهوم الـثقافة وفي مجملها تؤكد هذه التعريفات أن "الثقافة" تجمع بين كونها منتجا وإنـتاجا أو اسـما وفعلا باستخدام المقابل اللغوي... وسنعرض بعض هذه التعريفات وسنقوم بوضع التصنيف الذي وضعه الباحث " نبيل علي" لمفهوم الـثقافة في الإطار العام بما يخدم مفهوم "الحضارة" و"التفاعل" يوضح الشكل (1) تعـريف الـثقافة وسنقوم بتحديد مفهوم "الثقافة" تعريفا وتصنيفا. كما يوضح الشكل (2) تصنيفات الثقافة.



شكل (1) يوضح تعريف الثقافة وانسجام مقومات الإنسان والمجتمع في كيان واحد تحدث عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية.

فتحديد مفهوم "الثقافة " هو الجانب الأساسي من الحياة الإنسانية، فالثقافة اللامادية التي تتضمن الجانب الروحي المعنوي القائم على العقيدة وعلى التراث الثقافي واللغوي والأدبي والفني وما ينجم عن كل ذلك من ثوابت ورواسب ونوازع ودوافع وروادع نفسانية واجتماعية وأخلاقية وسلوكية في القيم والعادات والتقاليد وأنماط الحياة لدى الفرد ولدى الأمة

بمجموعها، والتي يؤمن بها الأفراد من أديان سماوية أو معتقدات يستسلم لها الأفـراد في شؤون الحياة وهو ما يبني ما يسمى "بالهوية" أو "الشخصية" أو "المطابقـة" لتلك الأمة فيميزها عن غيرها من الأمم، وينتج عن ذلك التمايز والتـنوع والاخـتلاف بيـن الثقافات المتباينة في العصر الواحد وفي تراث الـثقافات السابقة، وهو تنوع أو اختلاف أو تباين قد ينشأ عنه "الصدام" بين أهـل ثقافتيـن أو ثقافات متعددة، فيحدث تبادل التأثر الظاهر والخافي "الأنا الخارجي والأنا الداخلي" بالاقتباس والتقليد والتدخل والنماذج فتغني كل ثقافة مـن الأخرى إذا اقتبست ما تحتاج إليه لا ما يفرض قهرا عليها وإذا أخذت الـثقافة اللامادية مـا ترديه لا ما يراد لها إجبارا واضطهادا، وامتصته أو تمثلـته وهضـمته وطوعـته وأصبح جزءا من كيانها ووجودها أو ذاتيتها. فالـثقافة هـي ذلـك العملـيات التاريخية التي تنقل كرد فعل لكل من المنبه الداخلي والخارجي"(3).

ليتم صبغها بالثقافة العلمية المتقدمة ويؤكد القول (لنتون) في الشخصية أن هذه النظرية تعطي أثرا كبيرا في تفسير العلاقة بين الثقافة والشخصية وتقوم على الافتراضات الآتية:

- أن الخبرة المبكرة للفرد تؤثر تأثيرا مستمرا في شخصيته وفي تنظيمه المتصل بالقيم.
- أن الخبرات المتشابهة تنتج تنظيمات متشابهة في شخصية الأفراد الذين يتعرضون إلى هذه الخبرات.
- أن وسائل العناية بالأطفال وتربيتهم تتجدد ثقافيا وتميل إلى أن تكون متشابهة بالرغم بأنها ليست واحدة من الأسرة في المجتمع، حيث إن وسائل العناية بالأطفال وتربيتهم من مجتمع لآخر تختلف اختلافا منهجيا(4).

فإن لتعدد أوجه الثقافة أدى إلى تعدد أوجه الصدام كمثل الصدام

الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والعقائدي حيث يقول حسن الفقي إن الثقافة " في مجتمع من المجتمعات هي نتاج جهود طويلة وسلسلة معقدة من التطورات والتفاعلات"[5].

أما تايلور فيقول: بأنها "ذلك الكل المركب الذي يحتوي على المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات التي حصل عليها الإنسان كعضو في المجتمع"[6].

أما كيسنج فيقول: "إن الثقافة تتركز على تقاليد الناس أما المجتمع فيركز على السكان الذين يمارسون هذه التقاليد، أما الثقافة فتعني السلوك المتعلم ذلك لأن السلوك لا ينقل بالطريقة الوراثية أو الغريزة، وإنما بطريقة اجتماعية وهي تعني أيضا السلوك المشترك لأنها بواسطة كل الناس في المجتمع"[7].

من خلال هذا التحليل يمكن القول أن أي مجتمع بشري أو أمة عندما تصل إلى مرحلة التشبع في جانب معين من جوانب "الثقافة" أو "الحضارة" يشمل جميع الجوانب فينمو من هذا التشبع تغيير في المعتقدات والقيم والعادات والمفاهيم والتقاليد تتساوى مع مرحلة التحضر والتجديد، وبعدها ينتهج المجتمع أو الأمة طرق جديدة لاتخاذ أساليب جديدة من التعديل والابتكار على الصناعات والمخترعات، حتى يتقارب مفهوم التقدم الحضاري ويصبح استعمال الآلة والفكر ضمن قدرة كل فرد، وبعدها يمر المجتمع أو الأمة في حالة من التشبع يستطيع الفرد من خلال القدرة على استيعاب وتحليل كامل مراحل التغير." فإن تقسيم الوظائف والعمل الذي يحدوه الإنتاج في تبادل السلع والحياة المشتركة يكون ويشكل بنيان المجتمع، بينما التقاليد والعقائد التي تمسك كيان المجتمع وتسير به نحو الاستمرار، وهي رموز عن حضارتها"[8].

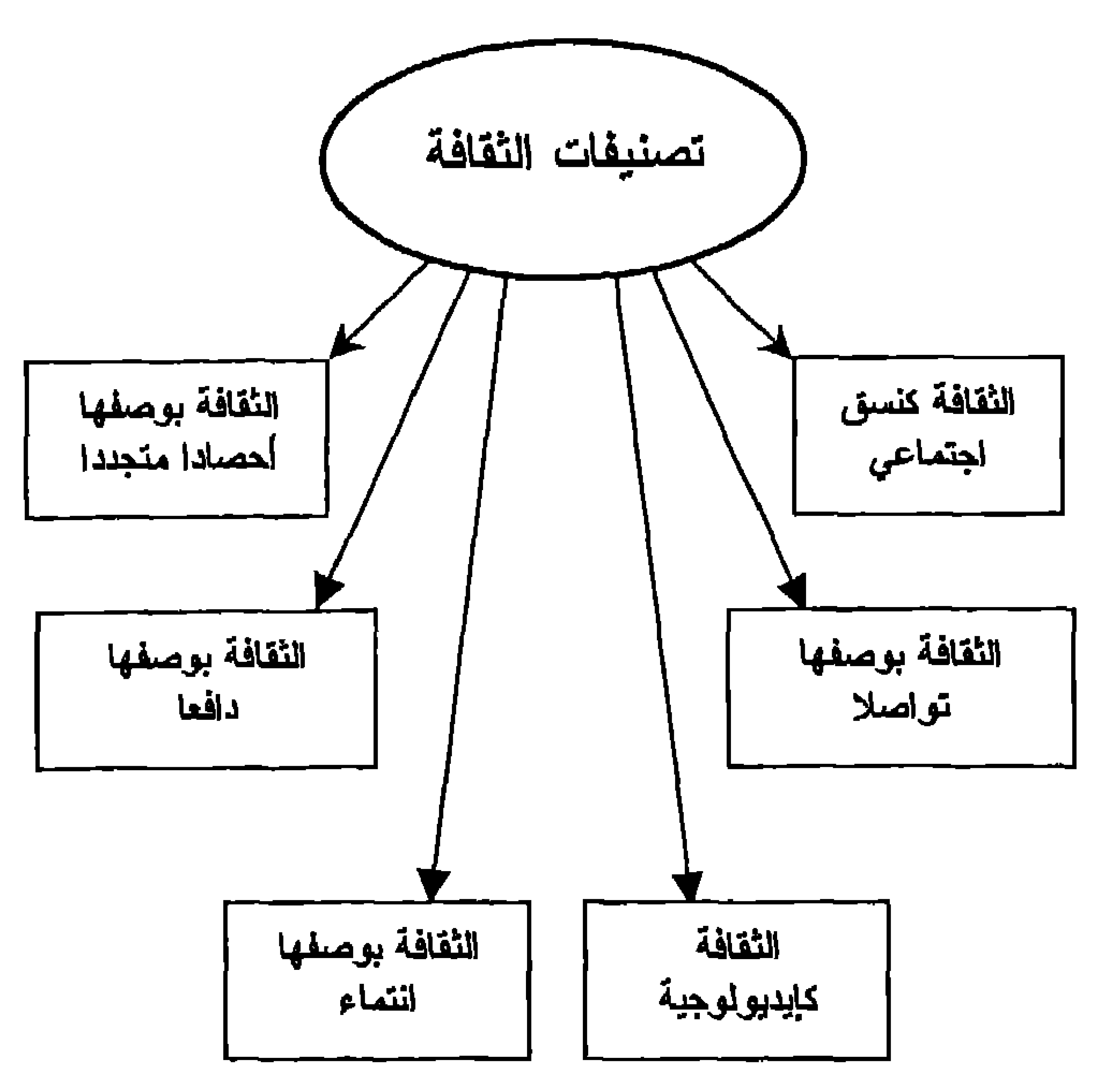
من هنا يصبح المجتمع أو الأمة متعايشا منسجما مع مفاهيمه وأفكاره مستوعبا كل عمليات التقدم الحضاري، وقادر على انتهاج أساليب التغيير في مسلكية الأفراد مسترشدا بالقوانين العلمية القادرة على التفاعل لخلق

التوازن الطبيعي بين وحدات الثقافة والحضارة حتى لا يحدث خلل أو هوة تؤدي إلى اكتمال جانب معين وضعف الجانب الآخر، حيث إن النفوس الفردية في تكتلها وتداخلها واندماجها تنتج أو تظهر كائنا نفسيا، ولكن بشكل نفسية جديدة إذا أردنا."وهكذا تستطيع بل يجب أن نتحدث عن وعي جماعي مستقل عن الوعي الفردي"(9).

فلو رجعنا إلى تحليل الواقع القديم للمجتمعات أو الأمم الإنسانية فإننا نجد تأصل مفهوم أسلوب الفردانية في اتخاذ القرار، والقوة هي الباعث إلى انتهاج السيطرة والهيمنة فكان من عوامل تكوين الجماعة الإنسانية نحو التفكير والمعرفة مع تقدم الزمن والزيادة المضطردة من المخاطر الطبيعية على الأفراد. فالطبيعة هي التي أوحت للمجتمعات الإنسانية خلق المفاهيم وابتكار الثقافة والحضارة المتمشية مع العادات والتقاليد. فالاندماج النفسي والاجتماعي لـــه أهمية بين الأفراد، يؤدي إلى خلق تجمع واحد يسير ضمن عقيدة ومفاهيم ومثل واحدة متفق عليها تختلف عن عادات ومعتقدات التجمعات الأخرى، فكل مجتمع إنساني لـــه المكان الطبيعي والحدود السياسية المعروفة التي يدافع أو يذود عنها (*).

ومن خلال تتبلور ثقافته وحضارته. أن الطمع الغريزي الذي يجعل الدول القوية في عصرنا الحالي تمعن التفكير في السيطرة والهيمنة على المساحات الكبيرة من الأراضي وإخضاع التجمعات الإنسانية الضعيفة الأخرى تحت سيطرتها وفرض أسلوب القهر والإرهاب، فإن ظاهرة حب الذات أدت إلى جر المجتمعات في حروب متطاحنة ومتوالية، كما أدت إلى زيادة الويلات الإنسانية، كما يحدث في العراق وأفغانستان والبوسنة وفلسطين.

(*) تفكير المجتمع وإعادة بناء النظام العالمي الجديد وتحول السلطة بين العنف والثروة والمعرفة والتفكير في حضارة الموجة الثالثة ثم الحضارات الكوكبية الأخرى. انظر الفصل الخامس.



شكل (2) يوضح تصنيفات الثقافة من حيث التعريف

الثقافة كنسق اجتماعي: قوامه القيم والمعتقدات والمعارف والفنون والعادات والممارسات الاجتماعية والأنماط المعيشية. وصلة هذه المقومات بالمعلومات لا تحتاج إلى دليل، فكل منها في جوهره هو نوع من أنساق الرموز.

الثقافة بوصفها تواصلا: من خلال نقل أنماط العلاقات والمعاني والخبرات بين الأجيال. وهذا التعريف- بلا شك أقرب تعريفات الثقافة إلى تكنولوجيا المعلومات، حيث اللقاء المباشر بين اتصالات المعلومات ونظمها والتواصل الثقافي وأنساق الرموز الذي يتم من خلالها انتقال المعاني والخبرات من جيل إلى جيل.

الثقافة كأيديولوجية: تعرف الثقافة في إطاره بصفتها المنظار الذي يرى الفرد من خلاله ذاته ومجتمعه، بصفتها أيضا- معيار الحكم على الأمور أيضا. وتتضح صلة هذا التعريف بالمعلومات حين ندرك كيف أصبحت تكنولوجيا المعلومات هي الأخرى منظار ترى العالم من خلاله ؛

عبر شاشات المرئيات وشاشات الحاسوب ولوحات التحكم ونماذج المحاكاة وما شابه ذلك علاوة على كون تكنولوجيا المعلومات أداة فعالة للحكم على الأمور بفضل وسائلها الكمية وإحصائيات قياس الرأي وخلافه.

الـثقافة بصـفتها دافعـا: على الابتكار والإبداع والنضال ضد القهر والتصـدي لصـنوف الظلـم. وهـنا يبرز دور تكنولوجيا المعلومات كأداة للمبدعيـن مـن جانب ودور الإنترنت كسلاح في يد المناضلين والمناهضين للظلـم من جانب آخر ، حيث يمكن من خلالها أن تسمع أصوات المهمشين والضـعفاء. وكدليل على أهمية المعلومات في العمل النضالي، نشير هنا إلى أن الحـركات النضـالية، والتـي لـم تعد تطالب فقط بعدالة توزيع الدخول والـثروات وفـرص العمـل، بل أصبحت تؤكد أيضا على الحقوق الرمزية للجماعـات التي تتحدث باسمها، مطالبة بإعلام أكثر ثقافية ولغة أكثر تعبيرا عن الواقع. وتربية أكثر صلة بهذا الواقع.

الثقافة بوصفها انتماء: تعبر عن التراث والهوية والحمية القومية وطابع الحياة اليومية للجماعة الثقافية وتكنولوجيا المعلومات هي الوسيلة الفعالة للمحافظة على هذا التراث، ورصد حصاد تلك الحياة اليومية علاوة على ما تقدمه من خدمات في مجال اللغة، ركيزة الهوية ورمز الحمية القومية.

الثقافة بوصفها حصادا متجددا: يتم استهلاكه وإعادة إنتاجه والتفاعل معه وإدماجه في مسار الحياة اليومية. وسأستل من قلب هذا التعريف مفهوم "إعادة الإنتاج" ويقصد به ثقافيا- إعادة النشر والتسجيل نسخ البرامج وتجديد استخدام التراث وما شابه ؛ وذلك لكي أشير إلى كيف أصبح هذا المفهوم – بلا منازع- المحور الرئيسي الذي يدور حوله المنتج والمستهلك والمبدع والمتلقي والناشر والمؤلف.

تتنوع وتتعدد التعريفات، وتتلاقى ثم تتباين، ويظل مصطلح الثقافة ذلك الشائع الغامض، الواقع خارج حدود الوعي الفردي والجمعي، الغائر في

العادات وأنماط السلوك التي تؤخذ عادة كقضايا مسلم بها. ويدخل المتغير المعلوماتي ليضيف إلى الثقافة تعقيدا لتجهل هي بدورها من التنمية إشكالية شائكة للغاية. لقد نجم عن إغفال الجوانب الثقافية في عملية التنمية عديد من المشكلات في المجتمعات المتقدمة، مثل، البطالة، والاغتراب واتساع الفوارق بين الطبقات.

أما في المجتمعات النامية، فلا أقل من أن يوصف ما حدث، ويحدث بالكوارث التنموية، خلاصة القول ؛ لقد أيقن الجميع أن لا بديل لأولوية الثقافة، التي أصبحت منظومتها تشمل التنمية بأسرها كعنصر ضمن عناصرها الأخرى(10).

إن الطرح الأساسي لهذا الكتاب هو أن "الثقافة " هي الهوية الثقافية وهي التي تشكل نماذج التماسك والتعاون والتفكك والصدام في هذا العصر. وليس مفهوم الحضارة بمعناه الواسع كما حدده هنتنغتون.

فالثقافة تشكل عاملا أساسيا وحاسما وموحدا في آن واحد. مثلا هناك شعوب تفصلها الأيديولوجيات ولكن توحدها الثقافة تلتقي معا معا على طريق واحد كما حصل مع الدولتين الألمانيتين، والكوريتين، وربما أيضا المجموعات الصينية على وشك أن تلتقي ـــ وقد تكون الثقافة أساس التفكك والتوتر والصدام والصراع والانفصال كما حدث في الاتحاد السوفيتي ويوغسلافيا ويوسنيا، وإما أن تكون الثقافة عاملا حاسما في التوتر والعنف والإرهاب كما هو الحال في أوكرانيا، ونيجيريا، والسودان، والهند وسيرلانكا والعراق وقد تكون الثقافة عاملا حاسما من الروابط والتقارب والتعاون اقتصاديا وسياسيا وإن المنظمات الدولية القائمة على دول خاصيتها التماثل الثقافي مثل الاتحاد الأفريقي، الاتحاد الأوروبي.

والخلاصة: التماثلات والاختلافات الثقافية تشكل المصالح والتناقضات والتجمعات الدولية. وأن الثقافة هي أساس هذا البناء وليس مفهوم الحضارة

في أنماطه المادية. ولأن الثقافة هي الموضوع المشترك فعليا في التعريف بأي حضارة[11].

ويمكننا أن نضع تعريفا للثقافة من منظورنا العربي، فقد أورد عبد السلام المسدني وصفا جامعا مانعا للثقافة العربية معرفا إياها بأنها:

مناط الشخصية العربية، ومستودع قيمها ووعاء حكمتها، وحقيقة هويتها الحضارية. فهو يقول: إنها ثقافة إنسانية أصيلة، شاملة لمظاهر المادة والروح ذات عراقة تاريخية، تتميز بقيم فكرية عالية وقيم الحق والعدل والمساواة واحترام المعرفة، ثقافة تتمثل الثقافات الأخرى دون إذابة أو ذوبان تنفرد بجهاز لغوي ليس لـه مثيل في السعة والمرونة[12].

نلاحظ عدم تحديد مفهوم " الحضارة" عند هنتنغتون أوقعه في مجموعة من الإخلالات المنهجية العلمية بالإضافة إلى مشكلات أخرى نحددها فيما يلي:

1. لم يصنف الحضارات باستخدام معيار واحد ، بل استخدام معايير عديدة منها المجال الجغرافي، والدين، والدولة.

2. سكوته عن الديانة اليهودية موضوع يثير الشكوك والدهشة ومعظم علماء الحضارات لا يذكرون الحضارة اليهودية إلا عابرا ، وبالنظر إلى عدد معتنقي اليهودية ، فهو بوضوح ليست حضارة. ويصفها توينبي بأنها حضارة أسرة تطورت من الحضارة السورية القديمة.

3. إن استعمال "الشرق" و"الغرب" للتعريف بمناطق جغرافية يؤدي إلى التشويش وهو متمركز عرقيا. "الشمال" و"الجنوب" مقبولة عالميا في الإشارة إلى نقطتي القطبين. أما الشرق" و"الغرب" فليس لهما مثل هذه الإشارة السؤال هو شرق وغرب، لماذا؟ إن كان الأمر يعتمد على الأرضية التي تقف عليها إن " الغرب" و"الشرق" استعملنا أصلا للإشارة إلى الأجزاء الشرقية والغربية من أوراسيا. ومن وجهة نظر

أمريكـــية، مـــع ذلـــك فإن الشرق الأقصى هو في حقيقة الأمر الغرب الأقصـــى، فـــي معظم تاريخ الصين، الغرب كان يعني الهند بينما في اليابان فإن " الغرب" يعني عادة "الصين".

4. هنتنغـــتون يقـــول إن الثقافة الأسيوية الشرقية غير ديمقراطية أو أنها لا تحـــتوي على قيم ديمقراطية ، والتحيز واضح في نظرته تجاه تقييم الثقافات الإنسانية تقييما شخصيا غير موضوعي.

5. يقول هنتنغتون إن الثقافة الإسلامية هي الأخرى غير ديمقراطية، وقد تجـــاهل هنتنغـــتون أن المجتمعات الإسلامية الأولى، في عهد الرسول الكـــريم والخلفـــاء الراشدين كانت أكثر ديمقراطية من النظم الليبرالية المعاصرة.

6. داخـــل المسيحية يفرق هنتنغتون بين الثقافة المسيحية الغربية ويعتبرها ديمقراطـــية ، بيـــنما يـــرى هنتنغـــتون أن الـــثقافة الأرثوذكسية غير ديمقراطـــية. كيف يمكن تفسير ذلك داخل الحضارة الواحدة– حضارة المسيحية منذ الإمبراطورية الرومانية؟

7. لقد واجه هنتنغتون مشكلة كبيرة في تحليله طبقا لطرح صدام الحضارات ، يجب ألا يقبل أسبانيا بأن تكون مجرد دولة عضو في حضارة أوروبية حيث أنها تستطيع أو تنتمي إلى الحضارة الليبرالية، إن هذه النقطة تنفي الأساس الذي يقيم عليه هنتنغتون افتراضاته حول صدام الحضارات.

8. تقســـيم هنتنغتون للحضارات الغربية إلى شعب ثلاثة يضعه في مشكلة أخـــرى فـــي تحلـــيله ومنهجيته، فهو متحيز في التعاطي مع الانقسام الحضـــاري داخـــل العـــرب ومتساهل في توقيع تلك الاختلافات حتى لا تسبب صدامات حضارية داخل أوروبا وخارجها.

9. من المثير بل من المدهش حقا أن ينظر هنتنغتون إلى الحرب العالمية

الثانــية علـــى أنها حرب أوروبية ، وضرب بكل تضحيات ونضال وجهاد شعوب العالم الثالث عرض الحائط وهي التي شاركت فيها من أجـل الحصـــول علـــى اســتقلالها ومحاربة الاتجاهات الدكتاتورية والفاشية والأمبريالية الصاعدة والدفاع عن مبادئ الشعوب وحقها في تقرير مصيرها.

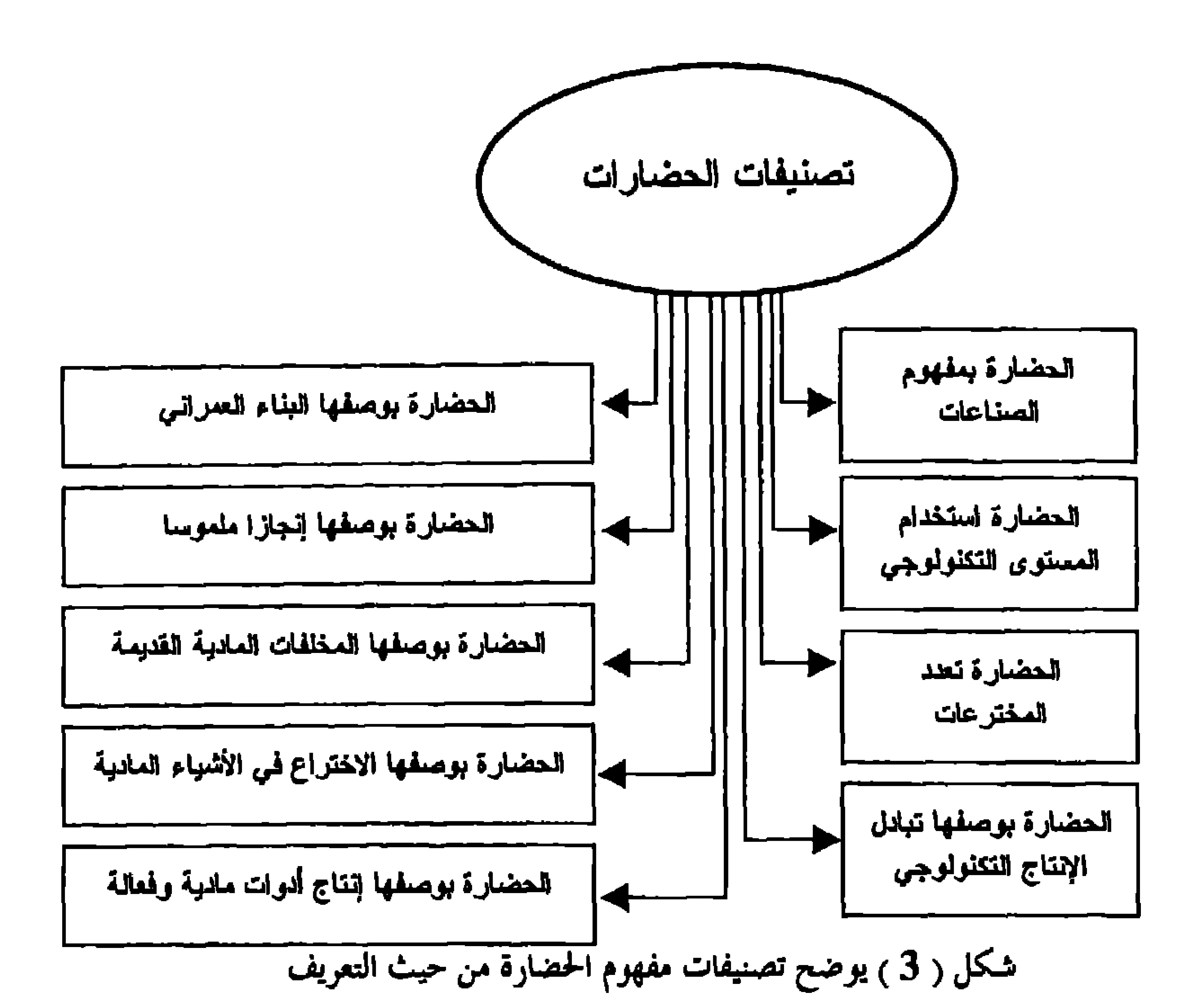
10. هــناك مفارقة التي قال بها هنتنغتون والتي يقارن فيها حالة المكسيك بتركــيا المســلمة تضـــع هنتنغتون في مطب يجعله متهما بالعنصرية الحضارية. مادام هنتنغتون يعترف بأن هناك حضارة أوروبية وأخرى أمريكــية لاتينـــية (أســـبانية) وإسلامية وغيرها، هناك صدام بغض النظر عن الحضارات المختلفة المقارنة هنا ضعيفة جدا وغير منطقية وتدمر مناقشة هنتنغتون تدميرا خطيرا.

11. الخـــط العجيـــب الـــذي يعود إلى القرن الرابع الميلادي والذي يتبناه هنتنغتون ليقسم به أوروبا في القرن الحادي والعشرين في الوقت الذي يدرك فيه خصائص عالمنا المعاصر، وما آلت إليه أحوال المجتمعات بعد انهيار الحواجز التقليدية بين الحضارات.

12. طـــبقا لطرح صدام الحضارات، فإن هنتنغتون يعترف ويقر بمجال كل حضـــارة، والأرثودكســـية التي تتزعمها أو قد تتزعمها روسيا بمجالها محـــدد، وبالتالي حلف الأطلنطي لن يستطيع أن يسعى إلى الوظيفة الذي يذكرها هنتنغتون (سيطرة روسيا على أوروبا الوسطى) بل واضح أن حلف الأطلنطي سيكون لغرض الهيمنة على ربط أوروبا بدل روسيا.

تعريف الحضارة:

يضع الباحث تصنيفا لمفهوم الحضارة ومن خلاله سيتم وضع أو تبني تعريفا لهذا المفهوم.



شكل (3) يوضح تصنيفات مفهوم الحضارة من حيث التعريف

- الحضـــارة بمفهومها المادي المحسوس بمعنى كل ما أنتجته الصور الفكـــرية وجســدته ضـــمن وقائع محسوسة أو مصنوعة كافتراض الصـــناعات مثلا فإنها محسوسة وملموسة للعيان ، وتشمل على كل المخلفات البشرية من منتوجات مدنية وعسكرية.

- الحضارة بوصفها استخدام المستوى التكنولوجي فيه رأس المال الجاري ومساحة الأرض الصالحة للزراعة ومصادر الطاقة التي تعتمد عليها وصحيح تجارته واتصاله دوليا.

- الحضارة بوصفها تعدد الاختراع في الأشياء المادية، عبارة عن عمليات تأليف وتركيب معقد.

- الحضارة بوصفها البناء العمراني من طرق ووسائل نقل ومباني ضخمة ومتقدمة.

- الحضارة بوصفها إنجازا ملموسا من أدوات وتجهيزات ومعدات وأدوية ومبيدات ومقاييس وأجهزة اتصال.
- الحضارة بوصفها المخلفات المادية القديمة من الوثائقية – الآثار– والمساجد والمعابد والكنائس وأدوات الحرب والقتال والحرث والصيد.
- الحضارة بوصفها المخترعات وزيادة التعقيدات التقنية في مجال الشؤون الإدارية والصناعية المتطورة في حدود تطور الأيديولوجية المبتكرة والمستحدثة.
- الحضارة بوصفها إنتاج أدوات مادية قادرة وفعالة على استمرارية المجتمع أو الأمة لتخطي الهوات التي تبعده عن المفهوم العام للتنمية الاجتماعية.
- الحضارة بوصفها تبادل الإنتاج التكنولوجي المنظور بين المجتمعات المعاصرة.

تتنوع التعريفات لمفهوم "الحضارة" وتتلاقى وتتباين ويظل مفهوم الحضارة ذلك المنتشر والشائع والغامض في الواقع الخارجي والوعي الفردي والجمعي. فقمنا بوضع مفهوم الحضارة في شكل تصنيفات ربما من خلالها تستطيع الوصول إلى تعريف متميز يزيل التداخل أو الغموض حوله. ففي عنوان هذا الكتاب مصطلحات يختلف الباحثون في مفهومها هما: "الثقافة"، و"الحضارة" هناك من يعتقد أنهما شيء واحد بلفظين مترادفين أو هما شيئان متقاربان متداخلان، بينهما بعض الاختلاف ولكنهما يشمل أحدهما الآخر في مجاله الأوسع. أو هما شيئان منفصلان متغايران لكل واحد منهما مجاله ومفهومه وخصائصه. فقد بينت مفهوم الثقافة في مدخل هذا الكتاب ثم وضعت لــه تحديدا عربيا دقيقا. تحت موضوع: تعريف الثقافة، ومثل ما قلت أن هناك عشرات التعريفات لهذين. المصطلحين، التي يتقارب بعضها إلى حد التداخل، ويتباعد بعضها إلى حد التحالف. فالحضارات في حالة

تواصل وتفاعل وتبادل وليس في حالة صدام كما يعتقد "هنتنغتون". فديناميـة التفاعل بين الحضارات توجد مع التطورات التي تحدثها الآلة والطبيعة، وهي مطلب أساسي لأي مجتمع أو أمة ليستطيع في ضوءه انتهاج أسلوب التغير في أي مسلكية يراها مناسبة ضمن الخضوع لدروس مفاهيم التعبئة النفسية، ليسهل تقييم جميع أطراف الثقافة على ضوء اللمسات الأخيرة من الصفاء في المبتكرات المادية واللامادية، فإن التقدم الحضاري لا يخضع للمثل العاطفية البحتة، بل يتعايش في صدام دائم مع القوى الطبيعية والفكرية الموجودة والسمو بها إلى أرقى درجات الابتكار والمعرفة. ومن هنا فالموقف يتطلب صهر الطاقات المادية (الحضارة) وتسليمها إلى المشرفين على دوائر التخطيط المركزي مثل "العلماء والأدباء والأخصائيين الاجتماعيين" وأيضا "النفسيين" حتى أن يجيدوا في وضع مبتكرات جديد لها دلائل واضحة في مجال التقدم والمثول أمام عصر التجديد "الابتكار" فالثقافة تعتبر ذلك المركب الذي يشمل جميع الأشياء التي تؤمن بها. كل شيء نفعله، بل تشمل كل شيء نملكه بصفتنا في مجتمع"[13].

ونعرض هنا لتعريف مفهوم "الحضارة" بصفتها المادية التي تميز على مفهوم الثقافة:

لقد قسم وليم أوجبرن الثقافة إلى قسمين من ناحية المحتوى القسم المادي والقسم اللامادي أو الثقافة المادية أو اللامادية، والثقافة المادية هي النتاج المادي للإنسان أي الأدوات والأسلحة الذي يستخدمها والممتلكات الشخصية أما الثقافة اللامادية فتشمل العادات والتقاليد والمعرفة اللازمة للإنتاج والإدارة واستخدام الأدوات والأسلحة ودور العبادة والأخلاقيات والقوانين والعناصر فوق العضوية"[14].

ويقسم سوروكن الثقافة إلى ثلاثة أنواع: الثقافة الفكرية أي كل المنتجات الأدبية والفنية والقانون والخطط التي ترسم مفاهيم المجتمع لاتخاذ

صورة مستحدثة للمفاهيم الحضارية. والثقافة المادية والحسية ويعني هنا كل ما أنتجته الصور الفكرية وجسدته ضمن وقائع محسوسة أو مصنوعة كافتراض الصناعات المحسوسة والملموسة للعيان. من مدنية وعسكرية.

أما الثقافة الروحية: أو المثالية فيهي تضم المعتقدات الروحية مثل العقيدة التي يؤمن بها الأفراد من ديانات سماوية أو معتقدات يستسلم لها الأفراد في شؤون الحياة فإنها تعطي المجتمع القدرة على تعديل مسلكياتهم وجعلها دائما غاية في المثل والإيمان بالقوة الغيبية التي تتجسد في جسم حيوان أو مادة معينة"(15).

وتعــرف مفهــوم " الحضـــارة " الــذي نتبناه في هذا الكتاب هو هذا الــتعريف المــادي مــن الحــياة المتمثل في: الحضارة مجموعة المبتكرات والمخــترعات والانجــازات والإنــتاجات والاســتخدامات والمســتجدات والمصنوعات والتكنولوجيات، والتبادلات المادية التي نجمت عن تقدم البحث العلمــي الــنظري وتطبيقاته العلمية التكنولوجية: مثل: السيارات، الطائرات المراكــب الفضــائية، والقطــر والمرئيات الأرضية والفضائية والكهربائية والإلكــترونات المخــتلفة، والأدويــة والمبــيدات ووســائل الاتصال ونظم المعلومــات، وأثــاث المــنزل، ومــتاعه، وآلات الرياضة، وآلات الراحة والرفاهــية، والاســتمتاع والزيــنة، والتجهيزات الطبية والعلمية والمعدات العسكرية من السفن والقوارب وآلات القتال والصيد.

وسوى ذلك مما نستفيد منه ونستعمله ونتفاعل معه في حياتنا ولا نكاد ندرك أنه تقدم علمي مدهش وأن كل مفردة من تلك المفردات إنما هي إنجاز حضاري باهر متميز.

هــذا هــو المفهوم الحضاري الذي تتفاعل فيه الحضارات من خلال الاقتباس أو التقليد. أو الاستفادة أو التجديد في المخترعات المادية يؤدي إلى ديناميكــية الحركة لنهج الأسلوب العلمي المتقن الذي يستطيع تغيير الظواهر

القديمة أو التعديل فيها لترفع من القدرات الفكرية والثقافية للأفراد وليصبحوا على مستوى رفيع من الرفاهية الاجتماعية ويستطيع المجتمع أو الأمة تخطي جميع الأساليب الخاطئة وليملك في يده زمام القدرة والمبادرات للوصول بالمجتمع أو الأمة إلى عنصر المصاهرة والمعايشة المدنية على توقعات علمية متكاملة الأطراف، قادرة على إتمام مناهج المعرفة في عمليات التجديد والابتكار، فإذا أردنا أن نشير لعمليات التغيير الاجتماعي فإننا نعني التغيرات التي تحدث في التنظيم الاجتماعي أي "في بناء المجتمع ووظائف هذا البناء المتعددة والمختلفة، لهذا يكون التغيير الاجتماعي جزءا من موضوع أوسع من مفاهيم التغير، والتغير الأخير يشمل التغيرات التي تحدث في كل فرع من فروع الثقافة، بما في ذلك الفن والعلم والتكنولوجيا والفلسفة...الخ وهذا بالإضافة إلى التغيرات التي تحدث في صور وقواعد التنظيم الاجتماعي"[(16)].

ولهذا فالتغير الاجتماعي يتخطى غالبا الفردانية في التكتيك وينهج بوضع الثقافة موضع التبصر والتمحيص والتشريح لتعديل أو يترك ما هو لا ينفع لعمليات الصراع والسياق في ركب الحضارة المعاصرة. فعمليات التغيير تكون شاملة وجامعة ومانعة من السقوط في الهفوات النفسية المريضة. فالباحث العلمي والاجتماعي والنفسي يجد مقولاته القادرة على الاستمرار في مناهج الابتكار والتغيير الواقعي ضمن اللمسة التفحصية الأولى وفي الحقائق المتجسدة والمبنية على الشرائع القانونية المتجددة والمنظورة حضاريا فعندما يتغير المفهوم العام يتغير المفهوم التقويمي ضمن مفاهيم الثقافة المادية فإن الثقافة اللامادية يشملها أيضا مفهوم جديد مطابقا لأسلوب التغير في جوانب الثقافة المادية، ولهذا يكون دائما التغير شامل وجامع لكل صفاته، ومن هنا تحصل على بناء جديد في وحدات الثقافة وفروعها مطابقا لمفاهيم وقدرات المجتمع المتكامل في تكوينه المستوفي لجميع طاقاته وإمكانياته ومسخرا في وضع أجزائها، في المكان المناسب، ومشيرا لعمليات الإنتاج والابتكار متخطيا جميع المراحل النفسية والاجتماعية. فقد أعطى ابن خلدون مفهوما

اجتماعيا للتاريخ ضمن المفاهيم الاجتماعية المتطورة لا فهمنا الحالة الاجتماعية للإنسان، أعني الحضارة فيهدف التاريخ إعلامنا الظواهر التي ترتبط بهذه الحضارة وإلى معرفة الحياة البدائية وتهذيب الأخلاق وروح الأسرة والقبيلة وتباعد وجهات النظر في أن سمو شعوب على شعوب أخرى يؤدي إلى نشأة إمبراطوريات وأسر حاكمة وفوارق الطبقات والمصالح التي يكرس لها الناس أعمالهم ومجهوداتهم مثل المهن المريحة فالصناعات التي تعين على الكسب والعلم والفنون، وأخيرا التغيرات التي تحدثها الطبيعة في الأشياء في سلوك المجتمع "فإن ابن خلدون يعني أن النماذج بالايضاحات معبرة عن سمو الحالة متخذة في شق طريقها لاستكمال فروع الثقافة من خلال التحليل والتعقيب والترجيع إلى أن تصبح الأمور مساوية لمحك الواقع (ملائمة) وله الصلة الكاملة بالمخلفات الثقافية المحدودة فالانتشار الثقافي هو أحد العمليات التي أكدت حتمية الظاهرة في التاريخ الإنساني ولولا هذه العملية لما عرفت الحضارة المعروفة اليوم في أنماطها المختلفة حيث إن الاستعارة الثقافية وجهت الإنسان للأمام في كل ما حققته من ماديات وأطر في أنماط السلوك ولهذا لا مفر " لمجتمع ما أن يعرف باستقطابه من مجتمع أخر معين، حيث إن المجتمعات على اختلاف أنماطها ومستوياتها قد أفادت واستفادت في تاريخ القديم والحديث"[17]، وهذا ما توضح الأشكال (4)، (5)، (6)، (7)، (8)، (9).

وقد حاولت الأمم الأخرى الاستفادة والاقتباس من منهل هذه الحضارة فجمع بعضها لأنها اقتبس جوهرها وعرف سرها فأصبح منتجا لها، ولكنه ظل يدور في فلكها، واخفق آخرون لأنهم اكتفوا باستيراد مظاهرها ومنتوجاتها ومساحيقها بنصيب المستهلكين المقلدين.

عندما قررت اليابان على الأخذ بأسباب النهضة لم تجد أمامها إلا هذه الحضارة فأوفدت إليها من أبنائها اليابانين من يبحثون في أعماقها عن مكوناتها.

وحيـــث عادوا وصلوا حبال بلادهم بحبالها. وحيث أراد محمد علي أن ينهض بمصر وجه وجهة تظهر هذه الحضارة فأوفد إليها البعوث واستقدم منها المعلمين، وأنشأ على غرار ما فيها المدارس والمعاهد. ولكن الأمر لم ينته إلى مـــا انتهــت إليه اليابان، ولكل من الحالتين من الأسباب ما لا يزال يحتاج إلى دراسة واستبطان (سنوضح هذا في تجربة اليابان في هذا الكتاب).

وكذلك فعل قياصرة روسيا حين أرادوا يدخلوا بلادهم العصر الحديث ذهــبوا إلـــى هــذه الحضـــارة ليقتبسوا منها بعض أنوارها، وليس الاتحاد الســوفيتي.وأوروبـــا الغربية والولايات المتحدة كحضارات بينهم صراع أو صدام بالرغم لهم مذهبين اقتصاديين مختلفين، كما يقول هنتنغتون ولكن ذهب قياصـــرة روســيا فـــتفاعلوا معها فتقدمت بلادهم، وبذلك لا يكون لمصطلح "صدام الحضارات" أي معنى ولكن قد يكون لمصطلح "صدام الثقافات وتفاعل الحضارات" معنى.

فمثل الثقافة الإسلامية التي ينصب الحديث عليها وتكثر الكتابات عنها في هذا الصراع أو الصدام الذي أشار إليه صامويل هنتنغتون فإن الصدام قائم محتدم بين الثقافات وليس بين الحضارات.

فالحضـــارات سلسلة متصلة أخذت مما قبلها وبنت فوقها وزادت عليه ثم جاءت الحلقات الأخرى من الحضارات فأخذت من الحلقات السابقة أحدث مـــا أنتجته وأضافت عليها الحضارات السابقة، فالحضارات تتدخل وتتفاعل إلـــى أن تـــنقطع الحلقـــات الأولـــى بحكـــم مـــا يصيبها من جمود وضعف فالحضـــارات نـــتاج تراكمـــي ســـاهمت فيه الحضارات السابقة. وقد قامت الحضـــارات الحديثة على أساس وطيد من الحضارتين الإغريقية والإسلامية مـــن المـــنهج الفكـــر الحر عند سقراط وأفلاطون وأرسطو وعند ابن رشد والفارابي وابن خلدون والرازي.

وبعد توضحينا لمفهومي "الثقافة" و"الحضارة" قد يكون الاختلاف بينهما

سببا في الصدام بين شعوب الثقافات المختلفة، حيث تسيطر القوة الكبرى، شعوب الثقافة الأقوى أو المتفوقة فيرون أن ثقافتهم هي الأجدر أو الأقدر بأن تسود غيرها، فيحاولون فرضها بطرق ووسائل متعددة على شعوب ثقافة أو ثقافات أخرى بعضها ذات تراث إنساني عميق وعريض- فرضا ينتهي بتحطيم وتدمير كثير من مقومات وعناصر تلك الثقافة أو الثقافات وبذلك تختفي أو تمتحي بالتدريج هوية شعبها أو شعوبها، وتسلب شخصيتهم حين تضعف أو تزعزع قيمهم وعقيدتهم وتضعف لغتهم وينسى تراثهم فيضيع من نفوس الأجيال. فالصدام إنما هو بين شعوب الثقافات التي تتعدد بتعدد الأمم وقيمها وعقائدها وتختلف باختلافها وليس بين الحضارات بمفهومها المادي في عصرنا الحالي.

فمفهوم الحضارة الذي حددناه توصيفا وتعريفا في هذا الكتاب، سواء كانت هذه الحضارة المادية في أمريكا، أو أوروبا، أو اليابان أو الصين أو روسيا تعزز بالضرورة ثقافتها الخاصة بها. وقد استهوت هذه الحضارة شعوبها أو مجتمعاتها، فرأوا فيها أنها سيدة الأرض أو الكون ورأوا أن بلادهم مركز العالم وما سواها كأطراف وحواش وهوامش.

ونظروا إلى متغيرات حضارتهم المادية وأسبابها وعواملها فوجدوها متمثلة في الأخذ بالعقل والبحث العلمي والعلم. فبالغوا في تقديس البحث العلمي والعلم حتى تطرفوا وآلهوه، وذهبوا في الاعتماد على العقل مذهبا أو اتجاها جعلوه وحده فقط مصدر المعرفة ومقياسها؛ وتتطرفوا فيها حتى عبدها بعض علمائهم ومفكريهم وفلاسفتهم، أو كادوا حتى أعلن فيلسوفهم الألماني المشهور موت الإله وعدوا الإنسان صانع نفسه وتاريخه. وهكذا أصبح من خصائص هذه الثقافة الحضارية أنها ثقافة فردانية مادية. إنه من الطبيعي أن ينشأ الصدام أو الخلاف بين هذه الثقافة والثقافات الأخرى التي تنطوي على بعض الخصائص أو سمات هذه الثقافة ولكن بمقدار بما تتفوق وتمتاز منها

بخصـــائص أخـــرى تكـــبح بعض ما فيها من الغلو والتطرف وتجعلها ثقافة مـــتوافقة ذات وسطا متوازن. وكان من الطبيعي أيضا أن يحدث الصدام بين شعوب تلك الثقافة وشعوب وأمم الثقافات الأخرى أنواع من الصراع تحاول فـــيه تلـــك الـــثقافة الحضارية بشتى الطرق والوسائل والأساليب أن تسيطر وتصـــبح وحدهـــا هـــي "الثقافة" وتحاول تلك الثقافات الأخرى أن تقاوم هذه الســـيطرة أو الهيمنة وأن تحصن ذاتها دون اختراقها وهكذا ينشأ الصدام بين الثقافات، وليس الحضارات كما يعتقد "هنتنغتون".

وكمـــا تنجب أو تنتج الحضارة ثقافتها فإن الثقافة أيضا تنتج أو تنجب حضـــارتها، وربما كان هذا الإنتاج أو التوالد ثم التلازم هو الذي جعل بعض الباحثين يعدون أو يتصورون مفهومي الحضارة والثقافة أمرا واحدا، ويرون أن المفهومين من الألفاظ المترادفة.

فليس صحيحا أن أخذ الحضارة الحديثة يوجب أخذ ثقافتها معها، على الوجه الذي حددناه من قبل. فهل ركوب المركبة الفضائية أو الطائرة أو استخدام الحاسوب أو الإنترنت، يستدعي بالضرورة التخلي أو الانسلاخ عن عقيدة الإنسان أو عن لغته وتراثه أو عن نظرته إلى العالم الكوني والحياة وما بعدها؟ قد يتطلب التخلص من بعض السطحيات التي يظن أنها من ثقافة الأمة وهي في مظاهرها أعراف وعادات ومظاهر شخصية واجتماعية كانت ملازمة لوسائل حضارة سابقة، وهي تتطور بطبيعتها مع تطور الزمن. وتنوع واختلاف البيئة، وتصبح بائدة مندثرة أو استاتيكية مع مرور الزمن، وتظهر أو تبرز بدلا منها أعراف وعادات ومظاهر شخصية واجتماعية جديدة تلائم وتتناسب أو تتوافق مع التطور النفسي والاجتماعي والفكري والمادي. ولا يكون في ذلك تخل عن جوهر ثقافة الأمة أو المجتمع.

ماهية الثقافة وصدام الثقافة:

يرى أن لكل مجتمع عادات خاصة، فنحن في ليبيا أو في مصر أو في تونس أو سوريا أو في السودان... نقيم أفراحنا على "نمط" خاص يختلف عن ذلك النمط الذي يوجد في الصين مثلا ، والطقوس التى تتبع فى أي مجتمع عربى أو إسلامى غير تلك الطقوس التى تتبع فى الريف الفرنسي أو الأمريكي. ومثل هذا يقال في نظم تشييع الجنازات، ونظم المأكل والمشرب، فإذا كنا مثلا فى مصر أو ليبيا نشرب الماء أو العصائر العادية، وفى فرنسا وسويسرا يشربون النبيذ في الغالب وفي ألمانيا البيرة، وفي فنلندة يشربون اللبن، إذ لكل جماعة ذوقها الخاص بها في مأكلها ومشربها ونظام بناء المساكن عند الجماعة السودانية يختلف عن نظمها عند الأمريكيين مثلا ، ونظام المواصلات السائدة في بعض المجتمعات الأفريقية يعتمد بشكل أساسي على الجمال، يختلف عن نظام المواصلات السائد في مجتمع أوروبي، بالاختصار يمكن القول إن نظام المعيشة في جماعة يختلف عن نظام معيشة جماعة أخرى.

وإذا بحثنا عن المعتقدات التي تعتنقها الجماعة لوجدناها هي الأخرى تختلف من جماعة إلى أخرى، فالمعتقدات التي تسود في مجتمع هندي أو صيني غير تلك التي يعتنقها المجتمع المصري أو الليبي أو المغربي، وفكرة الله وصلته بالمخلوقات وما يترتب عنها من مذاهب دينية تتباين أشد التباين في الجماعات المختلفة؛ فمثلا يعتقد أهل قبيلة Navaho من قبائل الأريزونا الأمريكية أن وسط العالم في جبال ناڤاهو، وهي منطقة بركانية، وأن الآلهة تسكن هذه البراكين، وهم يعتقدون أن العالم مشبع بقوى خفية يمكن للإنسان أن يغير فيها بعض الشيء، ولكنه على العموم خاضع لها، وينظرون إلى القرابة على أنها قوى تؤدي إلى تثبيت نظام الكون، إلا أن القوى الأخرى إذا سببت له الشقاء فإن الأفراد سيعلمون على تخفيفه، فالمجتمعات المختلفة تتباين إذن معتقداتها وأنماط تفكيرها وهنا قد يكون التصادم بين هذه الثقافات.

وهـــذه الـــنظم التي يعيش وفقها الناس، أو التي يفكرون بمقتضاها هي التـــي تسمى الأنماط الثقافية Cultrue Patterns فالثقافة هي الأسلوب المعيشي والفكـــري الـــذي تســـير علـــى نمطـــه أي مجتمع من المجتمعات ويرتب (Clark Wissler) عـــالم الدراسات البشرية الأمريكي، العناصر التي تتألف منها الثقافة على النحو الآتي:

1. اللغـــة ، وتشـــمل طريقة التخاطب والإشارات والرموز التي تستخدم في ذلـــك والكتابة وطريقة رسم الحروف، وما يتعلق بنقل الأفكار والأعمال من شخص لآخر.
2. العناصر المادية ، وتشمل على:
   - العادات والأذواق الخاصة بالمأكل والمشرب.
   - نماذج المواصلات أو النقل- الأدوات والأواني المستخدمة في المأكل والمشرب.
   - أنماط الملابس- الأسلحة المستخدمة لحماية المجتمع في السلم والحرب.
   - المهن والحرف.
3. الفن والنحت والنقش والرسم والموسيقى السائدة في المجتمع.
4. الأساطير الدينية Myhts والأساطير الشعبية Legends والمعارف العلمية أي ما وصل إليه المجتمع من مستوى علمي.
5. الطقـــوس الدينـــية ، وتشمل بوجه خاص أشكال التدين وعلاج المرضى وطقوس دفن الموتى والنماذج السحرية.
6. الأسرة والنظم الاجتماعية السائدة ، وتشمل:
   - أشكال الزواج.

- طرق تعيين ذوي القربى.
- الميراث.
- اتجاه الحياة الاجتماعية.
- الألعاب والتسلية.

ويعرف العالمان (Gillin) الثقافة بأنها "تشتمل على جميع أنواع السلوك المكتسبة أي غير (الوراثية) التي يتبعها الأفراد بشكل عام في مجتمع من المجتمعات". ويعرفها (Goldenweiser) بأنها تشتمل على "مواقف المجتمع ومعتقداته وأفكاره وأحكامه على الأشياء والقيم التي يتمسك بها ونظمه السياسية والقضائية والدينية وقوانينه العنصرية وقواعد المعاملات الذوقية etiquette وكتبه الدينية والآلات والأدوات التي يستخدمها في معيشته والعلوم والفلسفات التي وصل إليها[18].

الفرق بين الثقافة Culture والحضارة Civilization:

لقد اختلف علماء الاجتماع في التفرقة بين هذين المفهومين وبدأت هذه التفرقة في الألمانية حيث استخدم بعض العلماء الألمان كلمة Kultur (ثقافة) للدلالة على مظاهر الحياة المادية والتطور العلمي والاكتشافات العلمية التي يصل إليها المجتمع ولاسيما مظاهر الحركة الصناعية وما يتمخض عنها من طرق المواصلات ونظم المأكل والمشرب والمسكن والملبس. ونجد هذه التفرقة واضحة عند (فون كسرلنج H. Von Keysserling)، (وتوماس مان Mann).

ثم (فرناند تنسيز F.Tonnies)، (فبركانت Vierkant) ثم خصوصا عند (الفرد A.Weher) الذي يرجع إليه الفضل في إنشاء فرع من فروع علم الاجتماع– يدرس الثقافة، أطلق عليه علم اجتماع الثقافة Soclology of culture. والذي يذهب إلى أن "عملية الحضارة تقوم على استمرار التفكير والتقدم العقلي.

فالحضارة تمثل الجهود الإنساني في سبيل السيطرة على عالم الطبيعة بوسائل عقلية في ميدان. العلوم والحياة العلمية والتخطيط". ولقد اقترح (لزلي هوايت I.A.White) إنشاء فرع من فروع الاجتماع على غرار ما صنع فيبر، أطلق عليه اسم Culturology. أما الثقافة فهي على عكس الحضارة إذ تقوم على تقدم الحياة الروحية أو تطور الحياة العائلية والروحية والفلسفية. ولقد انتقلت هذه التفرقة من المجتمع الألماني إلى المجتمعات الأنجلوسكسونية ولكن بشكل مخفف ومن الذين قالوا بهذه التفرقة على النحو الذي عرضناه (ماكيفر R. M. Madver) (وآدم H. W. Odum) غير أن هذا الأخير بالرغم من تفرقته بين مفهومي الحضارة والثقافة يذهب إلى أن مفهوم الثقافة يشمل جميع مظاهر السلوك الاجتماعي المكتسب، على حين أن مفهوم الحضارة يشمل الناحية الروحية من هذه الحياة، فالثقافة أوسع نطاقا من الحضارة التي هي جزء منها، فكل حضارة ثقافة ، ولكن ليست كل ثقافة حضارة، وليس كما يعتقد هنتنغتون الذي وظف مفهوما مرنا للحضارة وللثقافة فهو يرى أن الثقافة حضارة، والحضارة ثقافة. فمفهوم الحضارة عنده يشمل الثقافة.

ولكن الغالبية العظمى من العلماء وخاصة علماء الاجتماع يقصدون بالثقافة جميع مظاهر الحياة الاجتماعية، وذلك مثل (ألود Elwood) الذي يعرف مفهوم الثقافة بأنه يشتمل على " كل النظم والأفكار التي تصل إليها الجماعة أو المجتمع".

ويعرفها (فولسم J. Folsom) بأنها "مجموعة المبتكرات التي تصطنعها الجماعة لنفسها؛ مثل مجموعة الأدوات المستخدمة والعادات، التي يستخدمها الإنسان والتي يتناقلها جيلا بعد جيل" ويأخذ كل من (سوروكن Serolkin) الأمريكي (روكيفيلية Cuvillier) الفرنسي وغيرهما على التفرقة بين الثقافة والحضارة أنها تفرقة مشوشة لأن الفروق بين ما هو

روحي فلسفي مذهبي، وما هو علمي تطبيقي غير واضحة، فكل فلسفة تستلزم قطعا أشياء مادية تتجسد فيها كل علم تطبيقي عملي ينتجه حتما أفكار فلسفية روحية، فالتفرقة ليست دقيقة، ولكن بالرغم من هذا الرأي يبدو جليا أن هناك شبه إجماع الآن بين علماء الاجتماع على إطلاق مفهوم الثقافة كما فعل (أودم) على جميع مظاهر السلوك السائدة في المجتمع والأفكار التي يعتنقها، مع تخصيص مفهوم الحضارة للجانب المادي منها(19).

ونحن نقول وفقا لهذا الاتفاق لا صدام بين أشياء مادية "حضارية" ولكن سيكون هناك صدام بين أنماط ومظهر وأفكار وقيم ومعتقدات وقوانين ونظم اجتماعية. بل ستكون هناك صراعات. حيث يرى هنتنغتون أن هناك اتفاق عام مع (برودل) الذي يذهب إلى أنه "من المضلل أن نأمل على الطريقة الألمانية في فصل الثقافة من أساسها الحضارة".

لكن الاتفاق أو شبه الإجماع في التفرقة بين مفهوم الثقافة والحضارة جاء من الغالبية العظمى من علماء الاجتماع وليس من عالم واحدة. فالصدام لا يتوقف مطلقا على ظروف مادية. كما يرى بعض الناس في مجتمعاتنا بل أنه يقوم على شروط أخلاقية، فهو يتم أولا في الأفكار (الثقافة) قبل أن يتم في نطاق الأشياء المادية (الحضارة).

وعليه فإن الطرح الأساسي لهذا الكتاب هو أن "الثقافة" أو الهوية الثقافية هي التي تشكل نواة التماسك والتوحد والصراع فيها يشكل الضعف والتفكك، فالثقافة هي التي شكلت عاملا حاسما وموحدا في آن واحد في عالم ما بعد الحرب الباردة. كما حدث مع الألمانيتين، والكوريتين والجماعات الصينية والتي على وشك الاتحاد نظرا للظروف التاريخية أو الأيديولوجية. وإما أن المجتمعات تنفصل عن بعضها البعض كما حدث في روسيا، ويوغسلافيا ويوسنيا، أو أن المجتمعات تضل تحت سيطرة التوتر والعنف كما هو الحال في أوكرانيا، ونيجيريا، والسودان، والهند وغيرها من المجتمعات.

من خلال هذا التحليل يمكن أن نضع بعض الافتراضات المستترة خلف مفهوم "الثقافة" بما تعنيه من القيم والعلاقات الاجتماعية والعادات والدين والتركيبة الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والمعرفة العلمية والتكنولوجية.

عوامل التغير الثقافي: (العمليات والمشكلات)

هو تغيير في ثقافة المجتمع يؤدي به إلى وجوب تغيير المعايير التي يعتنقها المجتمع نظرا لأنها لم تعد تلائم الثقافة الجديدة، وهذا التغيير الثقافي ظاهرة اجتماعية –نفسية– طبيعية مستمرة لا تتوقف ولا يمكن القضاء عليها. فالمجتمع في تغير دائم مهما كانت حالته من العزلة أو البدائية حتى قيل أن الجدير بالدراسة الاجتماعية هو التفاعل الاجتماعي أو العملية الاجتماعية التي تتجلى في العلاقات والتبادل والنشاط الاجتماعي عموما، ذلك أن ديناميكية المجتمع تتطلب النظر إليه في حركته المستمرة باعتبار ظواهره متلاحقة تتضمن كل منها مضمونا ثابتا كالظاهرة الاجتماعية تتغير في الشكل والمضمون تغيرا مطردا. وهذا التغير لا ينبغي النظر إليه من موقف ثابت بل لابد من مسايرته وملاحظة أوجه التغير المتواصل فيها. ويمكن تحديد عوامل التغير الثقافي فيما يلي:

1. الفكر الإنساني لأن الإنسان لا يكف عن التفكير حتى في النوم ويدفعه التفكير إلى العمل، ولذلك يميل الإنسان إلى أن يغير من أموره حسبما يهديه تفكيره إلى ما يجب عمله.

2. الاتصال بين ثقافتين يؤدي إلى التلاقح بينهما سواء كان هذا الاتصال عرضيا أم مقصودا – وهذا التلاقح يؤدي إلى إيجاد ثقافتين متجددتين.

3. تغـير العوامل البيئية يؤدي إلى تغير الثقافة ، فتحول الأرض الزراعية إلـى صـحراء يغـير ثقافة المجتمع، وإزالة الغابة وتحويلها إلى أرض

زراعية يغير ثقافة المجتمع، وكذلك تحويل الصحراء إلى أرض زراعية.

4. الاكتشـــافات تــؤدي إلـــى تغيــير طبيعة المجتمع ، وبالتالي إلى تغيير ثقافــته ، فاكتشاف البترول أو المواد الخام في مكان ما يؤدي إلى تغيير المجتمع تغييرا تاما في جميع مظاهره مثل المجتمع الكويتي والليبي.

5. استكشاف المناطق المجهولة المنعزلة يؤدي إلى تغيير ثقافتها مثلما حدث في استكشاف استراليا وأمريكا والجزر النائية في المحيطات، إذا اتصلت بالعالم واستقبلت الحياة الجديدة.

6. أدى الاهــتداء إلى النار والمعادن والبحار والكهرباء والذرة والطاقة كل فـــي عصـــره إلى تغييرات كبيرة في ثقافة المجتمعات ؛ نتيجة لما ترتب على هذا الاهتداء من تغيير في الصناعة وأدوات الإنتاج ووسائل الحرب وعلاقات الشعوب بعضها ببعض.

7. المخترعات التي يبتكرها الإنسان تؤدي إلى تغيير ثقافة المجتمع فقد كان اخـــتراع المحراث والعجلة التي ركبت للعربات فسهلت النقل والآلة ذات الاحتراق الداخلي من أهم عوامل التغير في تاريخ المجتمع الإنساني ، إذ يســـرت انـــتقال المجتمعات وتغيير البيئة وحررت الإنسان من الارتباط بمجتمع واحد.

8. زيـــادة الســـكان، أو نقصهم أو تغيير نسبة الجنسين أو الأعمار المختلفة يـــؤدي إلـــى تغيير الثقافة والمعايير الاجتماعية فقد تغيرت الأخلاق في أوروبا وخاصة في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية بسبب نقص الرجال عن النساء.

9. الهجرة أو تغيير نوع السكان يؤدي إلى نقل ثقافة جديدة ، كما حدث من المستثمرين والمهاجرين والمستوطنين.

عمليات التغير الاجتماعي- الثقافي:

وتـــتم عمليات التغير الاجتماعي عن طريق التغير الثقافي على شكلين أو أكثر:

فـــأولا:- قـــد يكون التغير طبيعيا يسير وفق تطور المجتمع مثل تغير الأســـرة إلـــى عشيرة إلى قبيلة إلى قرية ثم إلى مدينة فإلى دولة وأخيرا إلى إمـــبراطورية. ففـــي كل نقلة من هذه النقلات تتغير ثقافة المجتمع ومعاييره ويقوم صراع بين القديم والجديد يكون فيه كبار السن طبقة المحافظين ويكون الشـــباب طبقة المجددين. وينتهي الصدام إلى انتصار الثقافة الجديدة رغم ما تلاقيه من عقبات ومعوقات واضطهادات أحيانا كثيرة.

ويتم الانتصار عن طريق اصطناع الشباب للثقافة الجديدة وتمسكهم بها وانتشارها بالتقليد، وتوالي موت أنصار الثقافة القديمة.

وكذلك يحدث نفس الأمر عند تغيير ثقافة المجتمع بأحد العوامل السابقة التي ذكرناها. ولكن التغير يكون في هذه الحالة ملحوظا بدرجة أوضح ولهذا يصطدم بمقاومة أشد.

ثانـــيا:- قـــد يكـــون التغير سريعا مفاجئا في الظاهرة" كما في حالة الـــثورات إذ تفاجـــئ الـــثورة المجتمع بقيامها فتلاقي مقاومة شديدة. ولكنها تنتصـــر علـــى كل معارضة إذا كانت محققة للتطور الاجتماعي الذي تخلف لأســـباب ضـــد إرادة المجـــتمع، ذلك أن الثورة تأتي مسلحة بالقوة والحسم، فســـتطيع أن تنجز في فترة وجيزة ما كانت الثقافة الاجتماعية تتطلع إليه منذ أمـــد طويـــل، ومنعتها عن بلوغه السلطة الرجعية أو ثقافة الطبقة الحاكمة. وتنجح الثورة إذا تغلبت ثقافتها عن تلك الثقافة الجامدة وتحدث تغييرات كبيرة وسريعة في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية وأوضاع الأفراد فيها ومعاييرها الثقافية، ويساعد الثورة على النجاح أن ثقافتها لا تنشأ فجأة وإنما تتولد وتنمو

بالتدريج في أحضان الثقافة القديمة ، فإذا نضجت تماما وجاء وقت مخاضها ولدت على حين غفلة كأنما لم توجد إلا في ذلك الوقت.

ثالــثا:- التغيير المؤقت الذي ينشأ نتيجة ظروف معينة مثل الكوارث والأزمــات وموجــات الــرخاء والبدع الطارئة، فتسود أنواع من العلاقات والآراء والموضات المؤقتة وتزول بزوال ظروفها.

رابعــاً:- التغيــير الــذي تحدثه الحروب وما تسفر عنه من محالفات وانتصارات وهزائم وعلاقات وآراء واختراعات.فإن الحروب تحدث تغييرا في ثقافة الناس نتيجة ما يتعرضون لـــه من أخطار. وما يسهمون به في دفع هــذه الأخطار فيتقبل الناس هذا التغيير على أنه من لوازم الحرب. ثم يستقر هــذا التغير بعد انتهائها ويصبح ثقافة اجتماعية مثل التغير الذي لحق موقف المجــتمع من المرأة نتيجة جهودها في الحرب العالمية الأولى والثانية، ومن هــنا نلمــس سر التقارب في الزي والمظهر والسلوك بين المرأة في الدول الصــناعية. كمــا أن اختراع القنبلة الذرية والصواريخ الموجهة قد أدى إلى تغيــير كبــير فــي ثقافة المجتمعات فامتنعت الحروب العالمية وزادت حدة الحــروب المحلية وزاد الفرق بين الدول الكبيرة والدول الصغيرة، مما يؤذن بــنوع مــن الاســتعمار الجديــد الذي لا تسنده الجيوش وإنما يسنده التقدم التكنولوجــي. وقــد أدى هذا بالدول الصغيرة إلى ثقافة اجتماعية جديدة تقوم علــى توجيه الاقتصاد لمصلحة المجتمع كله، وزيادة الاهتمام بالتقدم العلمي والمســاواة بين المرأة والرجل لإمكان الاعتماد على كثرة العدد في مواجهة الحرب التكنولوجية والتكتل بين الدول الصغيرة في منظمات إقليمية وإلى نبذ أساليب الديمقراطية ذات المناقشات الطويلة، وتعدد الأحزاب.

وإلى الميل إلى اتخاذ أساليب الإنتاج الحديثة ورفض كل معوقات التقدم التكنولوجي.

مشكلات التغيير الاجتماعي– الثقافي:

وعـندما يحـدث التغيـير الثقافـي يحدث الصدام الثقافي في مواقف متعارضـة داخـل المجتمع وخارجه تسبب بعض الحرج وتتطلب شيئا من التفكير لمسايرة التغير حتى لا يغدو سببا في صدام اجتماعي أو ثقافي حادا. ومن السهل معالجة المشكلات الاجتماعية إذا لم نتمسك بالمعايير القديمة ولم تعتبرها قواعد مقدمة لا يجوز المساس بها. فإن المعايير إذا جمدت. صارت عقبة في سبيل الترقي. وأدت إلى التخلف ومن هذه المشكلات ما يلي:

1. قد يشمل التغيير الثقافي بعض ظواهر المجتمع دون البعض الآخر. أو قد يكـون التغيـير فـي بعضها سريعا أو ملحوظا بسهولة، بينما يكون في بعضها الآخر بطيئا أو غير ملحوظ. ويؤدي هذا إلى مشكلة التنسيق بين درجات التغيير حتى لا يكون التخلف الثقافي في إحدى النواحي مانعا من الأخـذ بالتغيير في النواحي الأخرى. وحتى لا يؤدي التخلف الثقافي إلى تعطـل جانـب مـن المجـتمع فـي المساهمة الفعالة في تكوين الثقافة الاجتماعية الشاملة.

2. حدوث الصدام بين أصحاب الثقافة الجديدة وأصحاب الثقافة القديمة يكون نتيجـته ضـحايا من الجانبين وتفكك في الأسرة وانهيار نظم وقيام نظم أخـرى وكثـيرا ما لا يستطيع بعض الأفراد في المجتمع مسايرة الثقافة الجديدة فلا يعرفون طريقهم وبذلك يخسرون كثيرا أو يخسرهم المجتمع ، وقـد يتعطل كثير من العمال وأصحاب الإنتاج لانصراف الثقافة الجديدة عن إنتاجهم.

3. لا تقضي الثقافة الجديدة على الثقافة القديمة قضاء تاما إذ تبقى من الثقافة القديمـة بعض عناصرها القوية التي تواصل حياتها وبذلك تكون عاملا من عوامل الصدام أو النزاع أو الصراع الدائم في المجتمع.

4. نظـرا لشـمول التغير الثقافي لأنه يقوم على أيديلوجية كاملة، فإن هذا الشـمول، يسـبب مشـاكل فـي كل ميادين الحياة الاجتماعية من مادية وروحـية وتقتضـي هذه جهودا دائمة من رجال الفكر والفن في تزويد أفـراد المجـتمع علـى مختلف مستوياتهم بعناصر الثقافة الجديدة ودعم إيمـانهم بها حتى لا يكونوا فريسة للمشككين في صلاحية هذه الثقافة أو الداعين إلى الفوضى في ظروف الانتقال أو التحول حيث تسقط المعايير القديمة قبل أن تتضح المعايير الحديثة أو الجديدة.
5. تؤدي الثقافة الجديدة إلى تغيير في أساليب التفكير والتعلم والإنتاج ولذلك يحتاج الأمر إلى تجديد هذه الأساليب واصطناع طرق ووسائل جديدة قد تكلف المجتمع كثيرا من التضحيات المادية والنفسية.
6. قـد يؤدي التغير الثقافي إلى الاستعانة بعناصر جديدة لم تكتسب بعد الخبرة العلمية والفنية وأن كانت على درجة كبيرة من الإيمان والعلم بمعايير الثقافة الجديـدة، ولذلـك يحدث صدام بين الخبرة القديمة بثقافتها السابقة والثقافة الجديدة بخبرتها الضئيلة، وكثيرا ما يؤدي هذا إلى خسائر وتضيحات.

عوامل الصدام بين الإسلام والغرب في القرن العشرين:

لقد حدد هنتنغتون بعض العوامل المختلطة والمشابهة والتي زادت حدة الصدام بين الثقافة والحضارة الإسلامية، وحضارة الغرب منها:

1. الـنمو السكاني للمسلمين خلق بطالة لعدد كبير، وهؤلاء الساخطون من الشـبان الذيـن جـندوا للأهـداف الإسـلامية ومارسوا ضغوطا على المجتمعات المجاورة وهاجروا إلى الغرب.
2. الإحـياء الإسـلامي أعطـى المسلمين إعادة الثقة في أهمية حضاراتهم وقيمهم مقارنة بتلك التي في الغرب.
3. جهود الغرب في جعل قيمهم ومؤسساتهم عالمية والمحافظة على تفوقهم

العسكري والتدخل في صراعات العالم الإسلامي خلقت ازدراء شديدا بين المسلمين.

4. انهيار الشيوعية حولت العدو المشترك للغرب وللإسلام، وترك كل واحد يرى الآخر مصدر تهديد له.

5. الاتصال بين المسلمين والغربيين ولد في كل واحد منهما شعورا جديدا بهويتهم ، وكيف أن هذه الهوية مختلفة عن الآخرين التفاعل والتمازج فأقم الاختلافات حول حقوق أعضاء الحضارة الواحدة في بلاد يسيطر عليها أعضاء من حضارة أخرى في كل من المجتمعين المسلم والمسيحي انحدر التسامح مع الآخر بشكل حاد في الثمانينات والتسعينات[20].

وفي أعقاب الحرب الباردة زادت شدة وحدة العداوة التاريخية، وقد اعترف بها كل من المجتمعين الإسلامي والغربي في عام (1991) حيث أكد (بارى يوزان) عدة أسباب لانبثاق الحرب الباردة الاجتماعية "بين الإسلام والغرب والتي فيها أوروبا في الجبهة الأمامية" هذا التطور يمس العديد من الجزئيات منها لـه علاقة بالقيم العلمانية ضد القيم الدينية، وجزء منه لـه علاقة بالصدام التاريخي بين المسيحية والإسلام، وجزء لـه علاقة بالغيرة من القوة الغربية، وجزء لـه علاقة بالازدراء للهيمنة الغربية فيما بعد الاستعمار والتكوين السياسي للشرق الأوسط، وجزء منه لـه علاقة بمرارة الإذلال المؤذي عند مقارنة بين الإنجازات الإسلامية والحضارات الغربية في القرنين الأخيرين. بالإضافة إلى ذلك أشار إلى أن "الحرب الباردة الاجتماعية مع الإسلام ستقوي الهوية الأوروبية في كل الاتجاهات في الأوقات العصبية في عملية الاتحاد الأوروبي "ولهذا" ربما توجد جماعة أساسية في الغرب أعدت ليس فقط لتأييد الحرب الباردة الاجتماعية مع الإسلام ولكن لتبني السياسات التي تؤيدها[21].

ولقد حلل (برنارد لويس) عام (1990) "جذور غضب المسلم"، وقد

وصـــل إلـــى "بأنـــه من الواضح الآن نواجه شكلا وحركة تتجاوز القضايا والسياسات والحكومات التي تكرسها. هذا ليس إلا صداما بين الحضارات(*).

والـــذي ربما ليس عقلانيا ولكنه بكل تأكيد "فعل تاريخي لمنافس تدعيم مـــنذ المـــيراث الـــيهودي المسيحي" أنه من الأهمية من جانبنا ألا يجب أن نحرض على مثل هذه المساواة التاريخية"[22].

ولقـــد طـــرح (محمـــد سيد أحمد) عام (1994) أنه "توجد علاقات صـــحيحة" بتزايد الصدام بين الأخلاقيات اليهودية- المسيحية الغربية وحركة الصحوة الإسلامية، والتي تمتد الآن من الأطلنطي في الغرب إلى الصين في الشـــرق". وكانت النتيجة الطبيعية للصحوة الإسلامية وردة فعل ضد غربنة المجـــتمعات الإسلامية[23]. "التأكيد على الإسلام تعني إدانة التأثير الأوروبي والأمريكي على أخلاقيات وسياسة المجتمع المحلي"[24].

المســـلمون يـــرون الـــثقافة الغربـــية ثقافة مادية، فاسدة ولا أخلاقية ويـــنظرون إلـــيها بأنهـــا مغوية، ولذلك يؤكدون مقاومة تأثيرها على طريقة حياتهم، المسلمون يهاجمون بشكل متنزايد الغرب ليس لارتباط الغرب بالدين غير الصحيح والذي هو "دين الكتاب" ولكن لعدم ارتباط الغرب بأي دين على الإطـــلاق ومن وجهة نظر المسلمين العلمانية الغربية واللادينية غير أخلاقية هـــي أشـــر مـــن المســـيحية الغربـــية التي أنتجتها في الحرب الباردة تحت معارضـــية "بالشـــيوعية الكافـــرة" بعـــد الحرب الباردة في صدام الثقافات؛ المسلمون يرون. معارضيهم بأنهم "الغرب الكافر"[25].

هـــذه الصـــورة حول الغرب لا يحملها الأئمة الأصوليون فقط، ولكن نجدهـــا أيضا عند بعض الكتاب المسلمين الذين قد يعتبرون حلفاء للغرب في

(*) صـــدام الـــثقافات ليس صدام الحضارات، فالميراث اليهودي المسيحى ليس مراثا ماديا ولكنه ثقافـــيا مـــن وجهـــة نظر كل منهم (اليهودية، المسيحية، والإسلام) في الغاية من التاريخ. (المؤلف) وهذا ما تؤيده ملاحظات بعض المفكرين الإسلاميين وغيرهم.

التســعينات. فقــد كتبت (فاطمة ونيسي) في كتابها "الديمقراطية والإسلام" Islam and democracy، "صــورة الغــرب بأنه "مادي" و"إمبريالي" وقد كان الســبب فــي معانــاة شعوب أخرى من خلال "مصدر كل المشاكل" والقوة الغربــية مخــيفة، الغــرب "وحده فقط يقرر ما إذا كانت الأقمار الصناعية ستســتخدم لتعليم العرب أو لإلقاء القنابل عليهم"[26]، ولقد أوضح الشيخ رائد الفنوشــي "أن مجتمعاتــنا مؤسســة على القيم أكثر من تلك في الغرب"[27] صــحفي مصري يقول "نحن لدينا أرضية مختلفة وتاريخ مختلف وبناء على ذلــك لــنا الحــق في مستقبل مختلف" كل من المطبوعات الإسلامية الفكرية والشعبية تصف تكرار المؤامرة الغربية المزعومة المصممة لإخضاع وإذلال وتهديم المؤسسات الإسلامية والثقافية[28].

نحن نرى بغض النظر عن وجهات النظر السياسية والدينية، المسلمون يؤكــدون ويــثقون بأنــه توجد اختلافات أساسية بين ثقافتهم والثقافة الغربية الخلاف الأساسي هو خلاف ثقافي وليس حضاريا "ماديا".

الخــلاف في القيم، وهدف هذه القيم، فنحن ليس لدينا صدام أو صراع مــع الأنسولين وتكنولوجيات تشخيص الأمراض أو زيادة التحصيل الدراسي أو الأكاديمي أو الوصول إلى القمر أو النجوم.

يقــول: (هنتنغتون) "المشكلة في الغرب ليست الأصولية الإسلاموية، المشكلة الإسلام حضارة مختلفة وشعوبها مقتنعة بتفوقها الثقافي وواعية بدونية موقفهــا المشــكلة بالنسبة للإسلام ليس المخابرات الأمريكية أو وزارة الدفاع، المشــكلة الغــرب، حضارة مختلفة شعوبها مقتنعة بعالمية ثقافتها واعتقاد هذه الشــعوب بتفوقها، القوة تجبرهم بالالتزام لتوسيع تلك الثقافة خلال العالم. هذه هي المكونات الأساسية والتي تشغل الصراع بين الإسلام والغرب"[29].

ومــن هنا نرى أن الثقافة هي التي تشكل وتشغل الصدام بين الإسلام والغــرب؛ لأن الثقافة بما تتضمنه من قيم وسلوكيات ومبادئ هي القوة التي

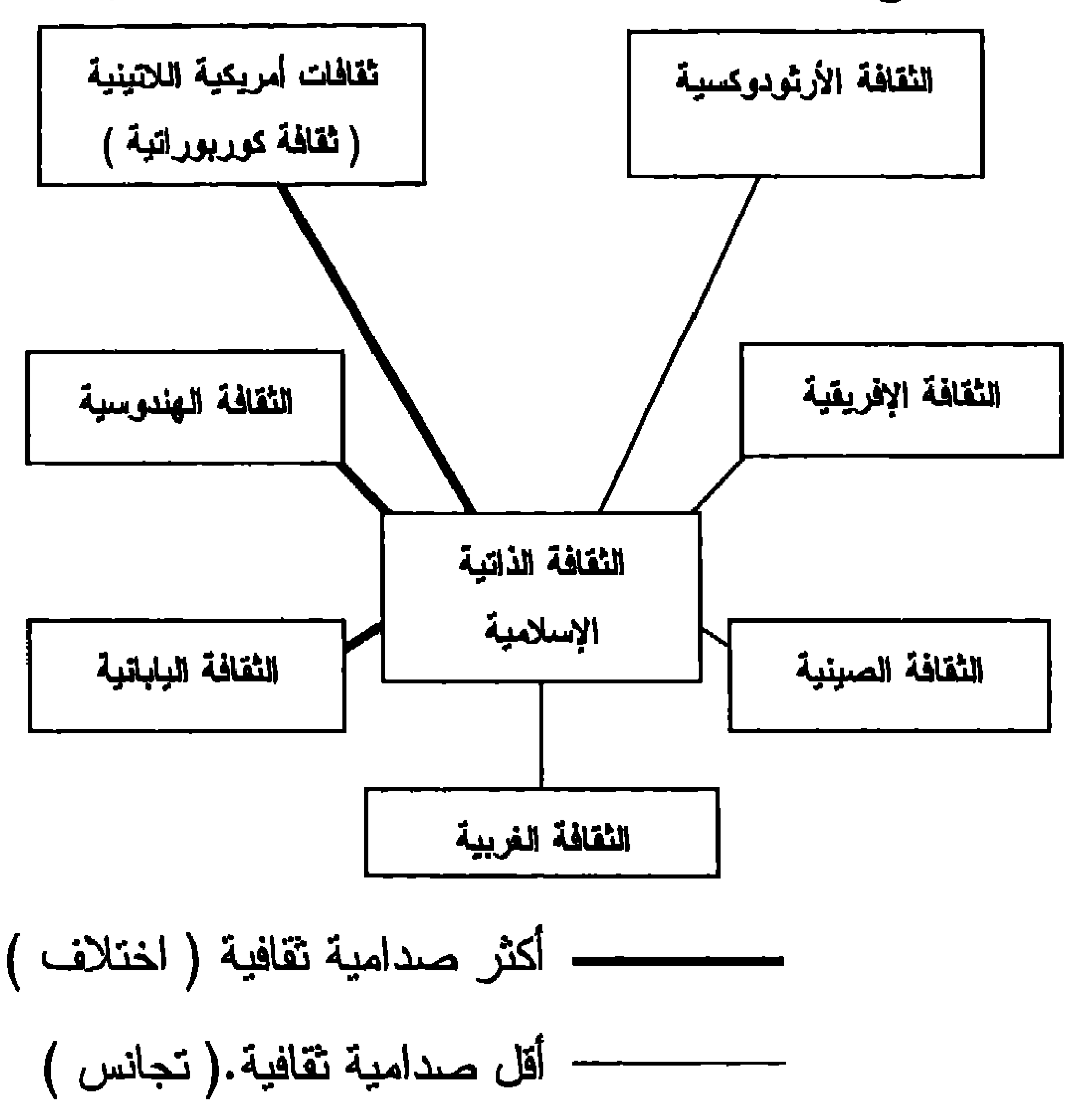
تجبر المجتمعات على الالتزام في المواجهة والمقاومة.

بل إن الثقافة هي الموجه الأساسي للسلوك البشري، فالثقافة الإسلامية لهـــا خصوصية في المجال. ولو نظرنا إلى المجتمع الياباني فهو مجتمع غير غربــــي واقتصاده أيضا منفردا، فالمجتمع والثقافة اليابانية مختلفة عن الثقافة الغربية وخاصة أمريكا وآسيا مصدرة الاختلافات الثقافية. ففي نهاية الحرب الـــباردة زاد الـــتفاعل بين آسيا وأمريكا والانهيار النسبي في القوة الأمريكية دفـــع على السطح صدام الثقافات بين الولايات المتحدة واليابان والمجتمعات الأســـيوية الأخـــرى؛ الـــدول الأسيوية هي التي ساعدت اليابان على مقاومة الضغوط الأمريكية.

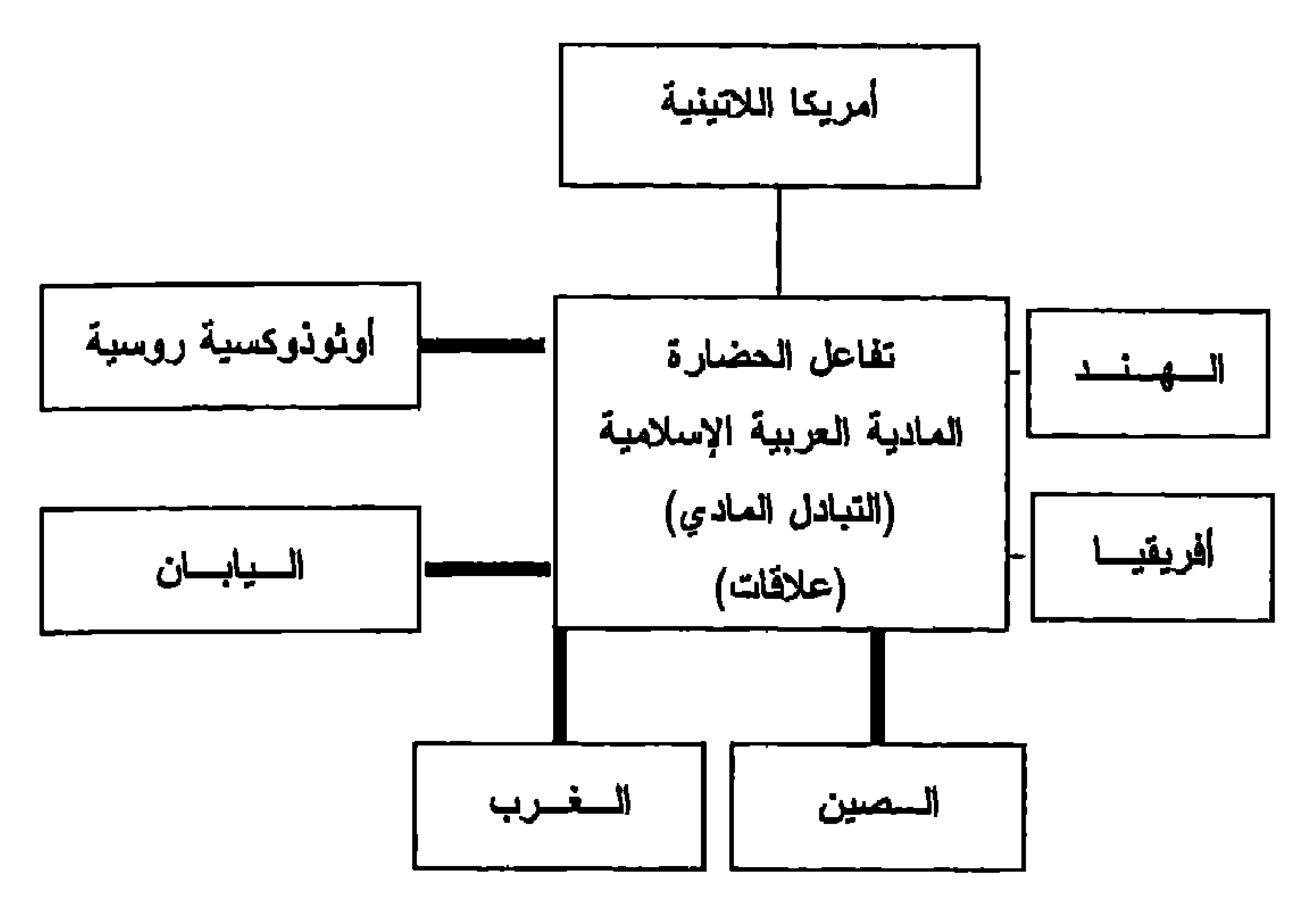
وإذا نظـــرنا إلـــى الصـــين نجـــد أن الصـــدام جزء منه متجذرا في الاخـــتلافات الثقافـــية للمجتمعيـــن (الصين وأمريكا) ولكن الصدام بينهما يتضـــمن قضايا القوة. فالموروث الصيني الكوفنوشيوسي والذي يركز على الســـلطة والـــنظام والتراتبـــية وتفـــوق الجماعـــة على الفرد يخلق معوقات للدمقـــرطة. فالصين لا تقبل قيادة الولايات المتحدة أو الهيمنة الأمريكية في آسيا. فالسبب الأساسي للصدام بين أمريكا والصين هو اختلافهما حول كيف يجـــب أن يكون توازن القوى في شرق آسيا. يقول (جرهام فلور) " تحالف كنفوشيوســـي- إســـلامي يمكن أن يتحقق ليس لأن محمد وكنفوشيوسي ضد الغرب ولكن هذه الثقافات تقدم الآلية للتعبير عن المعاناة التي يلومون الغرب علـــى أســـبابها جزئـــيا- الغرب وهيمنته الاقتصادية والعسكرية والسياسية والثقافـــية تـــتزايد حيـــث تشعر الدول بأنها لم تعد تقبلها أكثر من ذلك"(30). والدعوة الأقوى عاطفية والأكثر صدامية جاءت من معمر القذافي في مارس (1994) حيـــث أعلن "النظام الدولي الجديد يعني سيطرة اليهود والنصارى علـــى المسلمين. وإذا استطاعوا بعد ذلك السيطرة على الكونفشيوسيين أيضا الديانـــات الأخرى الهند، الصين، واليابان... وهكذا يقول النصارى واليهود

الآن كما صممنا على سحق الشيوعية يجب أن نصمم الآن على سحق الإسلام والآن نرجو أن تبدأ المواجهة بين الصين التي هي على رأس المعسكر الكونفشيوسي وبين أمريكا التي هي على رأس المعسكر النصراني الصليبي. ونحن ليس لدينا المبرر للتفكير إلا للانحياز ضد الصليبية الانحياز مع الكونفوشيوسية والتحالف معها والقتال معها في جبهة عالمية واحدة حتى تقضي على الخصم المشترك.. إذن نحن سنؤيد الصين كمسلمين في صراعها مع عدونا المشترك... ونتمنى لها النصر[31].

ولإيضاح الصورة نقدم بعض النماذج التي تمثل قوة الصدام الثقافي أو قلته ، وكذلك نماذج تفاعل الحضارات المادية بين المجتمعات الإنسانية.



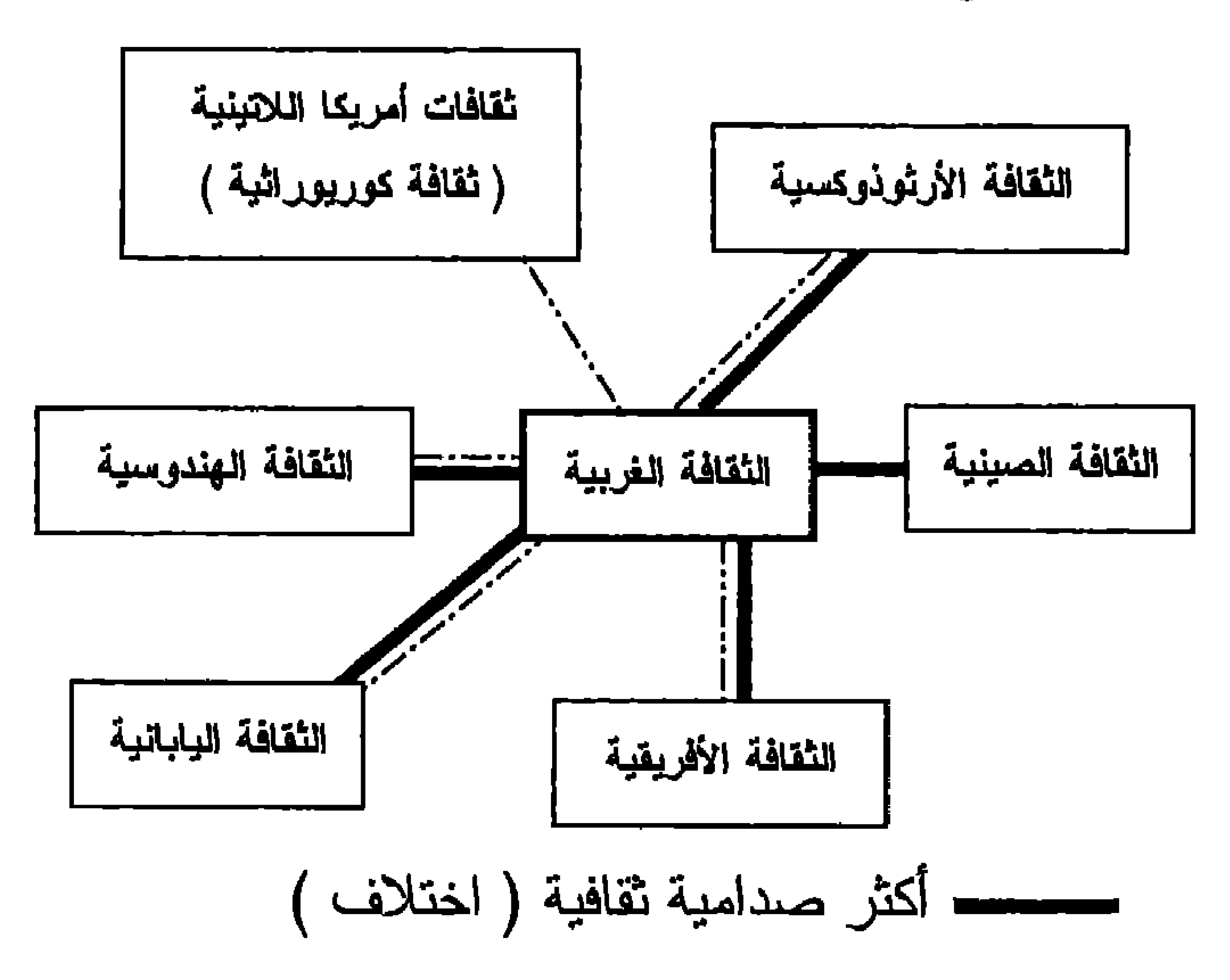
شكل (4) يوضح درجة الصدام بين الثقافة الذاتية الإسلامية وثقافات العالم



أكثر تفاعل مادي (تقبل مادي)

أقل تفاعل مادي.(رفض مادي)

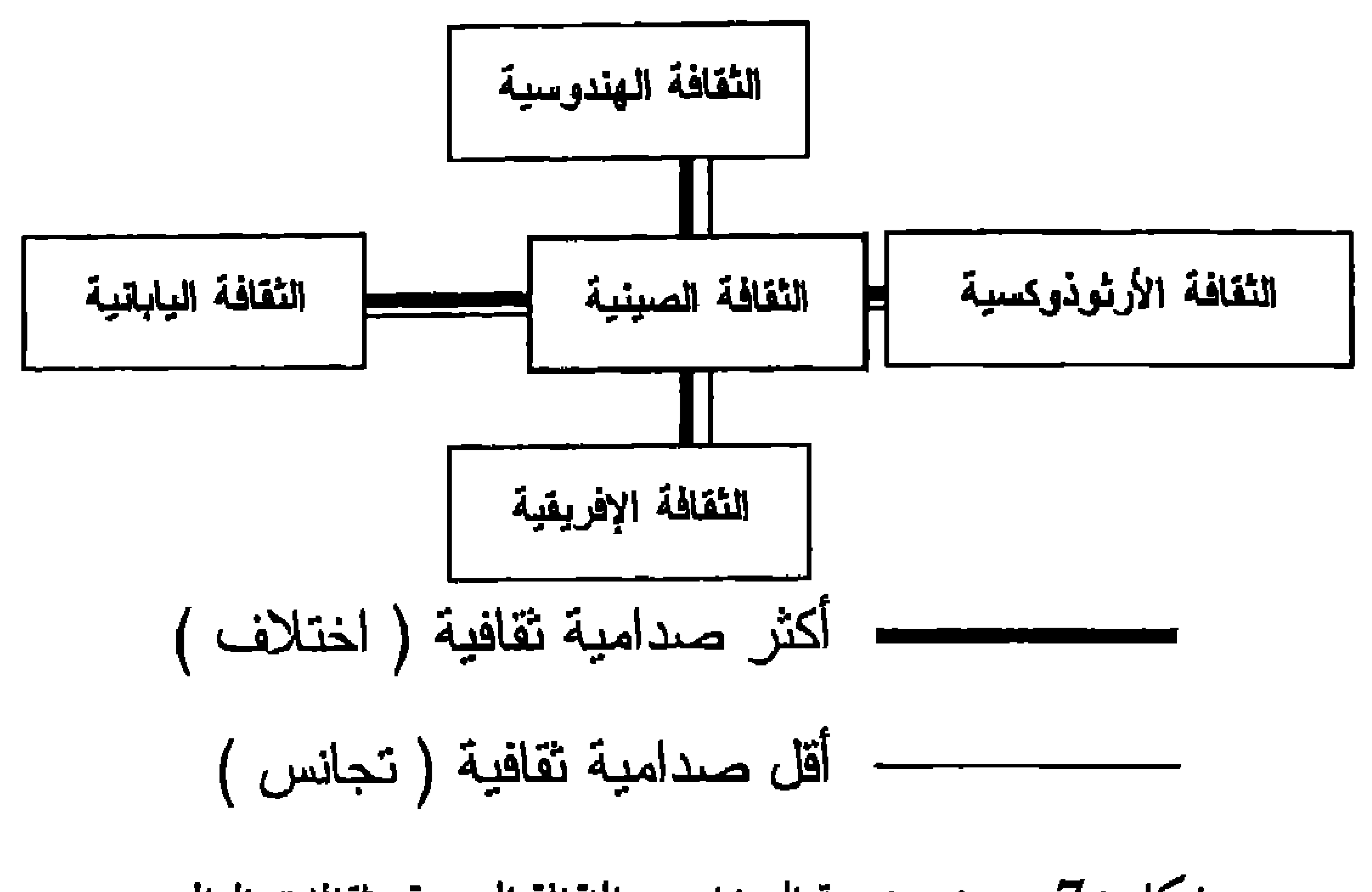
شكل (5) يوضح درجة التفاعل بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارات



أكثر صدامية ثقافية (اختلاف)

أقل صدامية ثقافية (تجانس)

شكل (6) يوضح درجة الصدام بين الثقافة الغربية وثقافات العالم



شكل (7) يوضح درجة الصدام بين الثقافة الصينية وثقافات العالم

فروض صدام الثقافات لا صدام الحضارات:

الفرض الأول: هل تتصف العقلية المستقبلية في أنها (عقلية)؟ أي محققة للشروط المطلوبة من أية عقلية سليمة في أي زمان أو مكان، والمفروضة على وجه الخصوص في الزمان العسير المقبل وفي المكان الذي أخذ يمتد على البسيطة بكاملها. أي الإيمان بالعقل اليقظ المتطور الفاعل، رائدا وضابطا وحاكما، والعمل بوحي هذا الإيمان. فالعقل هو وليد المادة الدماغية، وهو الذي يستنبط الأفكار والثقافة تبعا للحاجة الضرورة، وهو يتطور كلما تغير الحاجة، والعقل في الإنسان هو الذي جعل منه الكائن الأعلى بين الأحياء، ويرجع العلماء تاريخ الإنسان الذي نعرفه اليوم مشكلا وإدراكا إلى ثلاثين ألف سنة أو ما حولها.

هذا الفرض يؤكد العقلانية أول متطلب الثقافة؛ والثقافة في رأينا تمر بثلاث مراحل:

1. المرحلة الهمجية Savagery ، وتمتاز بوجود الشعور، ولا نكر فيها.

2. المرحلة البربرية Barbarism ، وفيها خلقت المعرفة المتخيلة أمثال هوميروس ودانتي، وصنعت عصر الأبطال.

3. المرحلة الحضارية وفيها تبدع المعرفة الفكرية العلم والقانون والدولة.

حيث معالم الثقافة تتحدد بالأمور الآتية:

1. أن تكون مستحدثة.

2. أن تنتقل من جيل إلى جيل.

3. أن تكون لها صفة الاستمرار.

بيد أن الديمقراطية الجماعية لاقت مقاومة ضاربة. فالقوى السابقة من ملاك الأرض الإقطاعيين، ومعها رجال الكنيسة وأنصارها الفكريين والحضاريين قاومت وحاربت التوجه الصناعي الصاعد والديمقراطية التي كان كثيرا ما يجعلها معه, في الواقع لم يكن الصدام الأساسي في كل مجتمعات المصانع ذات المداخن صداما بين اليسار واليمين كما يتخيل الكثيرون، بل كان " بين المعجبين بنظام الموجة الأولى الزراعي وتقليديتها من جهة والتصنيعية أو التحديثية من جهة أخرى. مثل هذه الصراعات على السلطة كثيرا ما تدور تحت مسميات أخرى كالقومية أو الدين أو الحقوق المدنية، كما أنها تحدث في الحياة الأسرية وفي العلاقات بين الجنسين وفي المدارس والمهن والفنون والسياسية. واليوم يطغى على هذا الصراع التاريخي، الذي لم يزل محتدما، صراع آخر جديد صراع الموجة الثالثة... الذي يدور هذه المرة بين مدنية (ثقافة) ما بعد المدنية الحديثة من جهة والعصرية والتقليدية كلتيهما من جهة أخرى".(32)

إن المجتمعات الصناعية كلها تواجه صدمات متجمعة في نظمها الأساسية كافة: النظم الحضرية، النظم الصحية، نظم الضمان الاجتماعي، نظم النقل، النظم البيئية –بينما مؤيدو المجتمعات الإنسانية ماضون في

التصـــدي والصـــدام لـــتلك الأزمات- يقول (موريس ديز) في المجتمعات الصناعية الجماعية كانت العنصرية تأخذ على نحو نمطي شكل قيام الأغلبية باضطهاد الأقلية، ولايزال هذا الشكل من الباثولوجيا الاجتماعية يمثل تهديدا للديمقراطـــية، فغوغاء الشوارع من البيض والأحلاف والمعجبين بالنازية في طـــريقهم إلـــى أن يصبحوا إرهابيين محليين"[33] ولماذا؟ هذه الصدمات مثل الصـــدام بين المهاجرين الكوبيين والهايتيين في ميامي وفي أماكن أخرى في أمـــريكا بيـــن الأمريكييـــن مـــن أصل أفريقي والأمريكيين المتحدثين باللغة الإســـبانية. وفـــي لوس أنجلوس يتقاتل الأمريكيون من أصل مكسيكي على الأعمال التي يشغلها الأمريكيون من أصل كوبي. وفي منطقة (جريت نل) الفنـــية فـــي لونـــج آيلاند، على مقربة من نيويورك، تتصاعد التوترات بين اليهود المولودين في أمريكا والمهاجرين من اليهود الإيرانيين الذين يرفضون التخلـــي عـــن طـــريق حياتهم السابقة. ويقوم جماعات الأمريكيين من أصل أفريقـــي ببـــيع أسطوانات معادية للسامية. وفي الأحياء الداخلية للمدن تحدث صـــدامات بيـــن أصـــحاب المـــتاجر الكوريين والأمريكيين والأفارقة. إنها صدمات ثقافية وفكرية تتصاعد لمقاومة أو رفض بوتقة الإنصهار الأمريكية في كل مكان. إذ تطالب الجماعات العنصرية والعرقية والدينية بحقها في أن تكـــون وتظل مختلفة متميزة وهي فخورة بذلك. لقد كان إنصهار الجماعات المتبايـــنة وامتزاجها يجسدان الغاية المثلى للمجتمع الصناعي نظرا لحاجتها إلى قوى عامة متجانسة.

أمـــا الغاية المثلى الجديدة للحضارة الكونية الثالثة هي التنوع، وهو ما يتناظر مع التغاير الذي يتسم به النظام الحضاري الجديد. وسوف يزداد القيام بهـــذا صـــعوبة بإطراد لأن الغاية المثالية للتجانس في اليابان مثلا أو بوتقة الإنصـــهار فـــي الولايـــات المتحدة يحل محلها الآن طبق السلطة وهو طبق تحـــتفظ به العناصر المتنوعة بهويتها. " ويتجسد مثال حي لهذا التنوع الجديد

فـــي مدينة لوس انجلوس بحيها الكوري وبضواحيها الفيتنامية والعدد الكبير من سكان المنحدرين من أصل مكسيكي وبمطبوعات ذات وجهة عرقية يبلغ عددها نحو خمسة وسبعين مطبوعة، ناهيك عن يهودها وسكانها الأمريكيين المنحدريـــن من أصل أفريقي واليابانيين والصينيين ، هذا إلى جانب جاليتها الإيرانـــية الكبيرة، بيد أن طبق السلطة يعني أن الحكومات ستكون في حاجة إلى أدوات قانونية واجتماعية جديدة (تفتقر إليها الآن) إذا كان لها أن تقوم بـــدور الحكم في نزعات تتعقد بإطراد وتنذر بالعنف ويتزيد احتمال التطرف والعـــنف المضـــادين للديمقراطية"[34] حتى في الوقت الذي تتصادم فيه على السلطة أمم وأديان وقوى دولية.

يلاحظ أن خطاب الهوية الثقافية في المجتمعات المعاصرة وخاصة العالم الثالث؛ يحل تدريجيا محل خطاب التحرر القومي الذي شاع أثناء مرحلة نزع الاستعمار، فمن خلال النماذج التي تم عرضها في هذا الغرض يمكن القول أنه شكل جديد للثقافة القومية يعبر عن نفسه بتعابيير التناقض الأيديولوجي أكثر مما يعبر عن نفسه بتعابير التناقض السياسي، فالمجتمعات التي كانت تحت نير الاستعمار تعاني في الواقع، عواقب عصرنة تهدد القيم الخاصة(الخصوصية الثقافية) التي تبنى عليها سابقا الإجماع ضد المستعمر.

وحيث كان الإنسان في الماضي يتحدث أو يتكلم عن حقوق تقرير المصير وإقامة دولة قومية مستقلة وذات سيادة، فإنه اليوم يتكلم عن الصراعات والحوارات والمناقشات والمؤتمرات والحقوق المتعلقة بالهوية الثقافية. يبدو أن هذا التحول أو الانتقال من مفهوم الثقافة إلى مفهوم الهوية يدخل عناصر جديدة تتدخل على مستوى تعريف الثقافة كما على مستوى العلاقة بين الثقافة وكل عن السلطة والسياسة والاقتصاد. تبدو الثقافة على المستوى التعريف وكأنها تعني مجموعة من ملامح مميزة تشمل الملامح المادية والفكرية والروحية تميز مجتمعا أو جماعة أو أمة. وتسمح لأي

متحد. بأن يتعرف ذاته، ويتعرف إليه غيره. وما يحدد الثقافة هنا هو: خصوصية القيم الاجتماعية والأخلاقية أو الاقتصادية وليس مدى تطورها أو فعاليتها. ومن هنا ظهرت رؤية مساواتية هي على نقيض المذاهب والنظريات القديمة حول الثقافات الحديثة المتفوقة والثقافات المتخلفة، فثمة من يسعى في عصرنا هذا باسم نظام عالمي وأخلاقي عالمية إنسانية إلى إعطاء ذات القيمة إلى كل ثقافة، معتبرا بدون شك أن الأمم متساوية مثلما هم البشر، بالإضافة إلى ذلك أن هذا الخطاب يلاقي في منظمات الأمم المتحدة أكبر الترحيب.

كما تلاحظ ثمة عنصر جديد أدخل أيضا في علاقة الثقافة بالسياسة ذلك أن خصوصية الأمة (الخصوصية الثقافية) وهي عنصر أساسي من عناصر هويتها، لا تتحدد إلا بمواجهة أمة أخرى، أما في داخل المجتمع فليس لهذه الخصوصية أي معنى. فنماذج الصدام التي تم عرضها سابقا والتي تجعل هذا التصور من الثقافات نظاما مغلقا مؤلفا من مجموعة قيم ملازمة للأفراد والشعوب؛ التي تحملها في نفوسها، وهي قيم تكون بمثابة جوهر لهذه الشعوب، أن هذه القيم تنزع عن الثقافة كل تاريخية، بل كل تطور سواء لجهة تطور القيم أو لجهة تبدل معانيها.

وتأخذ الثقافة المقتلعة من تاريخها ومن تاريخ تطورها ومن تناقضاتها الداخلية والمفصولة عن سياقها الاجتماعي الذي يجعل منها عنصرا من عناصر السلطة، شكل أسطورة وتتجزأ إلى مجموعة من الثقافات الاثنية والمحلية والأقلية أو الدينية، ومن هنا ينشأ التركيز على ثقافة الأقليات، بل الثقافات الشعبية التي يجب تطويرها والحفاظ عليها. وهكذا تكون هذه الثقافات في حالة الصدام ثابتة وممتنعة أو رافضة على كل تغيير لوجودها خارج التاريخ والسياسة. فهي لا تتلاقى بل تتجاور على أساس التجاهل المتبادل. ولهذا نرى اليوم لغة من الحوار والتسامح والاعتراف والقبول المتبادلين بعد

مرحلة صدام وصراع وصلت إلى حد نفى الثقافات التقليدية أو غير الأوروبية " لقد تحول الموقف من الثقافة، في أقل من نصف قرن، تحولا جذريا، من طرف إلى نقيضه. كان هذا الموقف المتخذ حتى ذلك الحين، بواسطة الخطاب الكوني للتاريخ المطرد، تطوريا وشموليا وكليانيا"[35].

ونحن نحلل فرض العلقلانية في صدام الثقافات لا صدام الحضارات ومن خلال منظورنا لفكرة الاستعمار الذي كان يعتقد بأنه استعمار المجتمعات غير الأوروبية يعني السير في مجرى التاريخ، وأن هدفه تحضير الشعوب المتخلفة، وتغيير ذهنيتها الخرافية ومعرفتها المشوشة وغير العقلانية وقيمها اللا إنسانية ونظام حكمها الاستبدادي وجهازها الإنتاجي البدائي وغير الفعال، وكان الذين اعتقدوا هذا الاعتقاد يتباهون ببنائهم المدارس وشقهم الطرق وتأسيسهم الدولة والبيروقراطية واستصلاح الأراضي، وباختصار إنقاذهم الشعوب أو الأمم التي لم تتكون بعد من مصير بائس. فقد ظهرت صورة التغير بانسحاب الجيوش من المجتمعات المستعمرة سابقا، فهل كان ذلك دليلا عن نهاية الأيديولوجية الاستعمارية وعلى تطور العقليات من اللاعقلانية باتجاه احترام الآخرين، وعلى المصداقية في التعامل مع الشعوب أو الأمم الأخرى تعامل الند للند وعلى التعاطف المتنامي نحو الثقافات التقليدية أو غير الصناعية، وعلى رفض الهيمنة والسيطرة وضعف الشعور بالتفوق الذي قاد المجتمعات إلى أعمال الإرهاب والعنف والمقاومة والرفض وصور شتى خلال القرن الماضي وحتى الآن؟.

يقول: (غليون)[36] "لا شك أن لكل ذلك دوره في التغيير، بيد أن هناك أمرا آخر أيضا. فالمشاعر الإنسانية الفردية تتحدد، علاوة على ذلك، بتيار عميق يطول الأخلاق والسياسة في نفس الوقت. وتجدر الإشارة، فضلا عن ذلك، إلى أن مصدر خطاب الهوية ليس الغرب في كليته، وهو ليس نتاج أوروبي، بل هو أين المؤسسات الدولية والعالم الثالث. ولقد أستأثر به هذا

الأخير أكثر من غيره، وجعل منه أيديولوجية الأولى، داخل حدوده وخارجها على حد سواء.

فماذا يعني إذا هذا الخطاب الذي يطمح لأن يكون شاملا وإنسانيا ومساواتيا، والذي يجعل من التعددية أساس العالمية ومن الأصالة مصدرا لوحدة كل الثقافات؟.

وهنا تحجب الهوية -الخصوصية- سياقين: سياق الثقافة بوصفها حقلا ينمو فيه التجديد والإبداع عن كل فردية، أي الثقافة بوصفها عنصرا من عناصر المجتمع المدني المنقسم أو المتغير على حد سواء، وسياق الثقافة بوصفها فعلا اجتماعيا يخلق لحمه ويوجد، على الرغم من الفزاعات الأيديولوجية والسياسية والاقتصادية، تحديدا للغائيات الإنسانية ولأهداف الجماعة، وهي غائيات وأهداف بفضلها تصبح الجماعة كيانا اجتماعيا منظما. فالخصوصية لا تستوعب كل مسألة التكون التاريخي الاجتماعي لثقافة معينة. ولا تعارض الخصوصية، أبدا تعميم ثقافة واحدة صناعية أو عصرية على مجمل التشكيلات الاجتماعية. بل أنها بالأحرى مفهوم ملازم للعالمية، ذلك أن كل أمة لا تسعى، إلا في داخل نظام مرجعي واحد، إلى الإشارة إلى خصوصيتها، مع احتفاظها بجوهر القيم المعترف بوجودها في ثقافة كونية. وينبئ التاريخ من جهة أخرى، أن الأمم المستعمرة سابقا بدل أن تفقد خصوصيتها من جراء تمثلها للثقافة الغربية المسيطرة، فإنها، بالأحرى، تحتفظ داخل عملية تدمير الهوية الثقافية السابقة ونشوء هوية جديدة بسمات مميزة ترجع إلى خصوصية سياق التكون الرأسمالي في الأطراف. ولهذا السبب تتماثل في هذه الحالة الخصوصية مع الفولكلور، في حين تعيد الثقافة العالمة ثقافة النخبة والدولة، آليا، إنتاج قيم الثقافة المسيطرة.

ومـن هـنا نـرى أن الثقافة تعمل كما لو أنها حصن أو خندق للنظام الاجتماعي.

وهي تشكل في هذا النظام منطقة النشاط العقلي الأكثر إطلاقا وعفوية حيث يتم الابتكارات والحوارات والمناقشات، وحيث يسمح بمزيد من النزاعات الاجتماعية، أنها في نفس الوقت، آخر خط دفاعي للنظام الاجتماعي والمصدر الأساسي للتغيرات والتجديدات.

الفرض الثاني: هل هناك اختلاف وتنوع وتباين في الهوية الثقافية الإنسانية بدلا من التجانس؟

إن وحدة تنوع المجتمعات الإنسانية حقيقة تاريخية وتتأكد هذه الحقيقة مع تعمق أسباب التعاون والتناقض في شتى ميادين الحياة الإنسانية، وتعد مظاهر التأثير المتبادل إيجابا وسلبا بين شتى المجتمعات مهما يكن مستواها من التفوق والقدرة، وتعاظم عوامل التفاعل بين مختلف المجتمعات أيا ما كان تباين انتماءها الثقافية والحضارية.

وفي إدارة التناقضات المتجددة في العملية الجارية والمتسارعة لإعادة الأمن القومي على جميع مستوياته المحلية والإقليمية والعالمية، وفي جميع أرجاء المعمورة، تبرز معضلات إدارة التناقضات الجديدة القديمة التي تتولد عن معطيات تعددية وتنوع الحضارات والثقافات الإنسانية. مثلا في مجتمعنا العربي خاصة وفي لحظة التحول العالمي الحالي. تتعاظم ضرورة إدراك أن التقدم الإنساني يشترط الدفاع عن حقوق جميع الشعوب في تقرير مصيرها والدفاع عن هويتها الإنسانية الثقافية، ولكن في سياق تسامح أو انفتاح على حضارة وثقافة إنسانية تجسد الوحدة وتسلم بالتنوع.

ففي ظل إدارة التفاعل بين ثقافات وحضارات متنوعة قد تضاعف مكاسب "التعايش" أو "الأمان" إذا ما جرى إعلاء وجه السماحة وروح الحوار ونزعة التعلم. وربما قد يزداد التفاقم والتفكك والتصدام في حال إبراز وجه التعصب، والقهر، والتعالي والتكبر والغرور والتشريد والقتل والحرق والمدافن الجماعية.

ومن منظور التكوين الأثنى، أي تمايز السكان على أساس عناصر الثقافة (اللغة أو العرق أو الدين أو المذهب أو الأصل القومي) فإن الوطن العربي يعد واحدا من أكثر الأقاليم العالم تجانسا. إذ يتقاسم حوالي 80% من سكانه نفس الخصائص الأثنية، وتزيد هذه النسبة إذا أخذنا في الاعتبار تلك الجماعات التي تختلف في أحد المتغيرات لكنها تعتبره هامشيا في تعريف هويتها الإنسانية. وبرغم هذا، فإنه من المفارقات المؤلمة أن الوطن العربي، قد دفع ثمنا باهظا؛ إنسانيا وماديا، في صراعات الأثنية الداخلية يفوق إجمالي خسائره في جميع الحروب العربية –الإسرائيلية، وذلك طوال العقود التالية لحصول مجتمعاتنا على الاستقلال السياسي.

فلا جدال في أن ظاهرة الصراعات الأثنية الداخلية ليست ملازمة أو لصيقة بالعرب أو المسلمين دون غيرهم من الجماعات الإنسانية، وقد نشير تاريخيا إلى دور الحضارة العربية الإسلامية الناصع في هذا الميدان. وعندما ننظر إلى العالم الغربي، نشير إلى إحداث العنف الأثنى- لا نقول في البوسنة "الأوروبية" والشيشان "الروسية" بل في "لوس أنجلوس" أي في الولايات المتحدة الأمريكية التي وصلت أعلى مستويات التقدم على الصعيد العالمي – لكننا نسجل بوجه خاص "صدام الثقافات" ما يصم الحضارة الغربية بالعار- جراء ما يرتكب من فظائع " التطهير عرقيا وثقافيا[37] التي يمارسها الصرب في اليوسنه الأوروبية بكل ما تتضمنه من دمار هائل وتقتيل بشع ودموية وحشية، تتناقض ودعوة الغرب إلى إعلاء واحترام حقوق الإنسان. وماذا عن المذبحة الجماعية[38] في عام (115) م التي نفذها اليهود التي راح ضحيتها نصف مليون مسيحي وفي عام (214/134) قتل اليهود مئات الألوف من المسيحيين في روما.

وفـــي يوغســـلافيا سابقا، الكروات رأوا أنفسهم الحارس لحدود الغرب ضـــد الأرثودكس والإسلام، الصرب حددوا أعداءهم ليس كبوستيين كروات

ومسلمين ولكن "الفاتيكان" والأصولية الإسلامية والأتراك "هؤلاء الذين هددوا المسـيحية لقرون[39]، البوسنيون المسلمون بالمقابل، حددوا أنفسهم كضحايا الإبـادة الجماعـية، تجـاهلهم الغرب بسبب دينهم الإسلامي ولهذا يستحقون التأيـيد مـن المسلمين في العالم كل الأطراف ومعظم المراقبين من الخارج يـنظرون إلـى الحَروب اليوغسلافية كحروب دينية "حروب أثينية دينية" لقد حـدد غلينـي "الصراع المتزايد احتوى خصوصيات الصراع الديني، والتي حـددت بـثلاث ديانات كبرى الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية الشرقية. وبآثار لإمبراطوريات اصطدمت حدودها في البوسنة"[40].

وأحـيانا تـدرك الحـرب المحلية لتصبح إعادة تحديد كحرب دينية، وصـدام ثقافـات مشـحون بعواقب لطوائف عديدة من البشرية، في أوائل التسـعينات الديانـاة الأرثوذكسـية والكنيسة الأرثوذكسية، أصبحتا عنصرا أساسيا في الهوية القومية الروسية الأمر الذي استبعد الاتجاهات الأخرى فيما بيـنها الإسـلام[41]. الروس وجدوا من مصلحتهم تحديد الحرب بين العشائر والأقالـيم فـي طاجكستان في ششيئا كحزام لصدام واسع يرجع تاريخه إلى قـرون طويلـة بين الأرثوذكس والإسلام، والآن التزم معارضوها المحليون بالأصـولية الإسـلامية والجهـاد والاخـوة والقرابة لإسلام آباد وطهران والـرياض وأنقـرة، فقد قال (يلتسين مشيرا إلى المقاتلين الشيشان: شياطين الماضي ظهروا في الحاضر "الكروات" أصبحوا بوستاشي "والمسلمون تركا والصرب تشيتنيكسن" القتل الجماعي والاغتصاب والتعذيب الوحشي للمدنيين كـل هـذا مبرر طالما الحقد الطائفي يغذي الحقد الطائفي، الرموز الأساسية لـثقافة المعارضـة أصبحت أهدافا، الصرب يهدمون المساجد والمعابد بينما الكـروات يفجـرون الكـنائس والمعـابد الأرثوذكسية، السنهاليون يحرقون المكتـبات العامـة ويحطمـون الوثائق التاريخية التي تتعلق بثقافة التأميل، والصـرب يحملون البنادق ويهدمون متحف سريبفوا القومي الصرب طردوا

من مدينة زفورنتيك سكانها المسلمين البالغ عددهم (40.000) مسلم: وأعادوا بـــناء مكان برج عثمان بعد أن فجروه كنيسة أرثوذكسية حطمها الأتراك عام (1463)[42]في الحرب بين الثقافات تخسر الثقافة.

ويرى (يهزكل درور) بإن " النزعات الاعترافية والحروب المقدسة وجماعات الجهاد والإصلاح الملتزمة والمقاتلين الساعين للشهادة كل ذلك ليس من بقايا الماضي بل إنها نذر المستقبل"[43].

وماذا عن صدام الهيبيز بالدين المسيحي حيث اتسم آثار كفر الهيبيز بالمسيحية التقليدية حمق الأصوليين المسيحيين وأزعجهم ما أصاب العالم المألوف من تفكك فبدأوا يشنون على العلمانية هجوما مضادا قويا سرعان ما اتخذ شكل عمل سياسي شديد الفعالية. وهنا أيضا اتسم الأمر برفض عنيف للحاضر المؤلم الحافل بالفوضى وبحث عن ثوابت الماضي الاستبدادية المؤكدة.

لقد اجتمع الهيبيز؛ ومن يناؤنهم، مع الوثنى والمسيحي في الهجوم على المجتمع العلماني"[44] كانت هنالك ظواهر مماثلة في أمكان أخرى ــ ففي إسرائيل تعرض اليهود العلمانيون إلى الضرب وسيارتهم إلى الرجم من قبل اليهود الأصوليين الذين كانت أفكارهم ونماذجهم الاجتماعية قد شكلتها قرون العيش في تجمعات اليهود الصغيرة المتسمة بطابع ما قبل العصر الصناعي، في أوروبا الشرقية وكذلك في مجتمعاتهم الشرق أوسطية. وفي الهند اشتعلت نيران الأصولية الإسلامية في ولاية كشمير والأصولية الهندوسية في سائر شبه الجزيرة الهندية.

وبإيجاز فإن ما يحدث الآن هو اصطدام مع أفكار عصر التنوير التي ساهمت في تمهيد الطريق للعصر الصناعي.

وثمة تحد أكبر يواجه اليابان الآن، ويتمثل في كيفية التغلب على التفكك القادم لجماعية مجتمع جعلته الدعاية الدؤوب يؤمن بأن التجانس أمر

محمود دائما، منذ عشر سنوات أشار (كازوكو تسورومي) أستاذ علم الأجناس في جامعة (صوفيا) إلى أن هنالك قدرا من التنوع في اليابان أكبر مما يقر به زعماؤها إلا أن ذلك كان تنوعا في إطار مجتمع الموجة الثانية الذي كان يتطلب التجانس. وستواجه بل (ستصدم) اليابان فيما هي تلج عصر الموجة الثالثة ضغوطا محتملة قوية نحو التباين والتنوع. إن عداءها للتنوع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي يرتبط مباشرة بأكبر نقاط ضعفها المتأصلة على الإطلاق[45].

وسيشتد الصدام داخل العالم الرأسمالي فيما تصطدم الطموحات اليابانية مع طموحات المتبارين الرئيسين الآخرين (أمريكا وأوروبا) الأمر الذي سيعيد إلى الأذهان تلك الأسطر التي كتبت في 23 أغسطس من عام (1915) والتي تقول: " إن الولايات المتحدة الأوروبية أمر ممكن لكن لأي غاية؟ ليس ثمة غرض من ذلك سوى خنق الاشتراكية في أوروبا والتكاتف لأجل حماية الغنائم من اليابان والولايات المتحدة"[46].

فالملايين حول العالم. سواء كان في ذلك خير أم شر يتعطشون للأخذ بكل ما هو غربي لكن أيضا (أمريكي بصفة خاصة) من الأنماط الحياتية والمواقف والأزياء والأفكار والتجديدات، ويرى البعض أن الجاذبية العالمية للثقافة الأمريكية الرائجة تنبع من أصولها المتعددة الأعراق- التي تغذيها يهودية وودي الآن، وسواد بيل كوسبى وإيطالية شخصيات مثل كولومبو أو مخرجين سينمائيين مثل مارتن سكورسيسي ويابانية "بات" موريتا في فيلم "صبي الكاراتية "وكوبيه" (ديسي أرناز) ونزقية كلينت أيستوود. إن هذا التأثير المتعاظم لهذه الصور الانطباعية الثقافية- الفكرية علاوة على التدفق السريع والثري للعلوم والتقنية إلا مجرد القوة الاقتصادية والعسكرية هو ما يجعل أمريكا تشكل خطرا شديدا على المتصلين الذين يتحكمون ويسيطرون اليوم في الصين أو على إيران إن الأفلام والبرامج المرئية الأمريكية وليست

اليابانية ولا الأوروبية هي التي تحظى بالإقبال الأكبر على المشاهدة في جميع أرجاء العالم العظمى الأخرى ليست في السياق- فهذا كله قد يشكل صداما ثقافيا أو تفاعلا حضاريا.

وإذا نظرنا إلى سياسات اليابان وعدنا إلى الأذهان إلى وثيقة كانت متداولة في العواصم الغربية عام (1918) "وأصبحت الآن طي النسيان. كانت هذه الوثيقة تدعو إلى خلق دولة كاثوليكية كبرى تتألف من بافاريا والمجر والنمسا وبوهيميا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا أما اقتراح البابا الحالي بإقامة أوروبا مسيحية وليست كاثوليكية خالصة افتراضا فيشمل كل أوروبا من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال بسكان يناهز (700) مليون نسمة"[47] مثل هذه الاستثارات الدينية ما هي إلا جزاء من الصدام أو الهجوم المتنامي على الافتراضات العلمانية التي شكلت أساس الديمقراطية في العصر الصناعي وحافظت على مسافة محمودة بين الكنيسة والدولة. "إذا كانت أوروبا مسيحية، تمييزا لها عن كونها علمانية، فأين يكون موضع غير المؤمنين فيها أو الهندوس أو اليهود أو الأحد عشر مليونا من المهاجرين المسلمين الذين جرى تشجيعهم على المجيء إلى أوروبا في الماضي القريب. للعمل كشغيلة رخيصة؟ (يحلم بعض المسلمين الأصوليين فعلا بتحويل أوروبا إلى قارة إسلامية) يقول مدير معهد الحضارة الإسلامية في باريس: " في سنوات قليلة ستكون باريس عاصمة الإسلام، تماما كما كانت بغداد والقاهرة في عصور أخرى"[48] فالصدام أو الاصطدام الناشئ في العقود المقبلة لا يمكن فهمه بدون الأخذ في الحسبان النفوذ المتزايد للإسلام والكاثوليكية وغيرها من الأديان والثقافات أو للصراعات والحروب الدولية المقدسة ، بالإضافة إلى ذلك سيزداد التحول نحو التنوع في النظام العالمي الناشئ زيادة حادة في الهوية الإنسانية والثقافية. إذا انقسمت الدول الكبرى، وهو ما يبدو الآن ممكنا.فالاتحاد السوفيتي يتصدع بسرعة فيما يحاول

مسؤولية أن يلموا الأقاليم في إطار أقل تماسكا بكثير.

لكن بعض الأجزاء ستنفصل على نحو مؤكد تقريبا. وتتخذ لنفسها أشكالا جديدة ثقافية وغربية في العقود القادمة. وبعض الأقاليم ستنجذب حتما إلى الدوامة الاقتصادية الأوروبية ذات الهيمنة الألمانية. وأقاليم أخرى ستنجذب إلى نفوذ اليابان الناشئ في آسيا.

أما الجمهوريات المختلفة التي تعتمد على الزراعة واستخراج المواد الخام، فقد ترتبط في شكل مرن من أشكال الاتحاد الفدرالي. بيد أن هذه الاعتبارات الاقتصادية المنطقية يمكن أن تزيحها موجة متعاظمة من الصراع الديني والعرقي بحيث تندمج جمهوريات أوكرانيا وروسيا وروسيا البيضاء في كتلة ضخمة تقوم على التراث السلافي والمذهب الأرثوذكسي المتجدد. وقد يجمع الإسلام بعض جمهوريات آسيا الوسطى إلى بعض(49).

وعلى صعيد التنوع والتباين في الهوية أيضا، يمكن أن تتصدع الصين أيضا فتنفصل أقاليمها الجنوبية والشرقية الأكثر تصنيعا عن أقاليم الصين الزراعية الشاسعة، وتؤلف أشكالا جديدة من الكيانات مع هونج كونج وتايوان وسنغافورة وربما مع كوريا المتحدة. وقد تكون النتيجة ظهور مجتمع كنفوشيوسي اقتصادي جديد عملاق يوازن صعود اليابان في نفس الوقت الذي يعزز فيه أهمية الدين كعامل من عوامل النظام العالمي.

نستخلص من هذا كله إلى الأمر الواضح البين هو أنه عندما ينتشر النظام العالمي الجديد، سيقلب كل أفكارنا الثقافية عن التنمية وسيستدعي إيجاد عالمي مختلف اختلافا دراميا- قطاع متباين ومتنوع محفوف بالاحتمالات والاصطدامات الثقافية المبشرة والمخيفة معا.

فمن ضمن الأسباب التي تفجر الصراعات الداخلية "التصادم" الأثنية وغير الأثنية في المجتمعات العربية "وغيرها من المجتمعات بما في ذلك

المتقدمة اقتصاديا. هو تضارب إدارة التفاعل بين الهويات الثقافية. ونشير أيضا إلى مشكلة الدستور العراقي المزعم كتابتة هي: الدين، والهوية، وتوزيع الثروة.

الفرض الثالث: هل هناك علاقة بين الثقافة والعنف؟

المثقفون على مر العصور هدفا للعنف في بلادهم، وكانت كلمة "ثقافة" تعني أن يضع (جوبلز) وزير دعاية هتلريدة على مسدسة، وكانت المكارثية في أمريكا قد وضعت أكثر من أربعة ملايين شخص على لوائحها السوداء ممنوعين من العمل داخل الولايات المتحدة، مرورا بتلك الفترات المظلمة من الإرهاب النازي وحتى الإرهاب الصهيوني وانتهاء بالأصوليين والصدام الدموي بين الجماعات نفسها، وكذلك بينها وبين الأنظمة.

ففي نظامنا العربي القديم مات شاعرنا طرفة بن العبد مقتولا بسبب جرأته في النقد وحدة لسانه... ودفع بديع الزمان الهمذاني ثمن تمرده وسخريته من أهل عصره فدفنوه حيا... وعندما فتحوا قبره بعد أيام من دفنه وجدوه جالسا وقد أسند رأسه بيديه.. فقد كان الرأس مثقلا بالكثير من الأفكار الخلاقة التي قبرت معه.

أما في العصر الحديث مع انبعاث النهضة العربية، وقبل سيطرة الدول على الإعلام والمؤسسات الثقافية والاعتراف والترويض للأدباء والمفكرين، ومهما قيل من أن عبد الله النديم عاش مطاردا، وعبد الرحمن الكواكبي مات مسموما، وعبد الحميد الديب كان غارقا في البؤس. واستطاع طه حسين أن ينتمي إلى حزب شعبي يمتلك حق الاختلاف معه. وماذا عن علماء العراق الذين تم سجنهم وربما قتل بعضهم أثناء غزو أمريكا للعراق.

ألـــيس مـــا يحدث في عالمنا اليوم تدجين للأدباء والمفكرين والعلماء، وتفــريغ لأجــيال جديدة من المثقفين في حضانات أجهزة الإعلام، وإدارات المؤسســات الثقافــية. تصـــادم مع الثقافة وليس الحضارة. المثقفون لماذا؟

المـــثقفون فـــي أي كيان اجتماعي هم بمثابة الدماغ في الجسد، فلا عجب أن الساعين إلى تقويض بنية اجتماعية معينة أو إضعافها صانعي السيطرة عليها لا عجـــب أنهم يوجهون ضرباتهم إلى صانعي الثقافة في ذلك الكيان. فالثقافة روح الأمـــة أي أمة وعنوان هويتها. ومن هنا كان من الطبيعي لأي حركة أيديولوجـــية عنـــيفة تســـتهدف ليس فقط الاستيلاء على السلطة السياسية في المجـــتمع وإنما أيضا تغيير هويته الثقافية تغييرا شاملا قسريا وتبديل المسار الحضـــاري من وجهة إلى الوجهة المعاكسة. فالعنف الذي يشن على منتجي الـــثقافة فـــي أمـــريكا، وبريطانـــيا، والوطـــن العربي وروسيا وغيرها من المجـــتمعات، يعتـــبر حالة تصادم لمحو الهوية الثقافية وهذا أمر قد تقوم به بعض الدول أو الأنظمة الحاكمة أو الجماعات الإرهابية المنشقة على الأنظمة القائمـــة، إلا أن المبدأ واحد في جميع الحالات، فهو تصادم الثقافات داخل أو خارج الحدود الثقافية. فتعزيز الديمقراطية وحقوق الإنسان كانت قضية مهمة في السياسات الخارجية للدول الأوروبية وأمريكا، ففي (1995) كانت جهود أوروبا وأمريكا لتحقيق هذه الأهداف لم تحقق نجاحا واسعا " بل الحضارات غـــير الغربـــية قاومـــت هـــذه الضـــغوط الغربية. هذه الحضارات تتضمن الهندوســـية، الأرثوذكســـية والأفريقـــية وبعض بلدان أمريكا اللاتينية. ولكن المقاومـــة الواســـعة للديمقراطـــية على الطريقة الغربية جاءت من الحضارة الإســـلامية والأســـيوية. هذه المقاومة جذورها موجودة في حركات التنظيم الثقافي الواسعة والمتضمنة في الأصل الإسلامي والأصل الأسيوي[50].

الفرض الرابع: هل تعليم الأنماط الدينية يؤدي إلى اختلاف وبالتالي إلى صدام الثقافات والأديان؟

الأنماط الدينية هي التي تتعلق بالحياة الروحية للمجتمع، وتشتمل على معتقدات قلبية داخلية يؤمن بها الأفراد وطقوس يقومون بها Rituais، وهذه الطقوس وتلك المعتقدات تتعلق في الغالب بعالم ما بعد الطبيعة وتقوم كذلك

على قسمة الموجودات إلى روحية ومادية. ويلاحظ في هذا الصدد أن:

1. كل شعوب العالم في جميع العصور لها عقائد، تتعلق بما يبدو لها من أشياء فوق مستوى الأشياء الطبيعية، وهذه العقائد تختلف تمام الاختلاف من مجتمع لآخر، وفي نفس المجتمع تختلف من فترة لأخرى.
2. هذه المعتقدات تقترن بحالات انفعالية عاطفية كالخوف والإجلال والحماس.
3. هذه المعتقدات وما يصاحبها من حالات نفسية تستخدم في توجيه سلوك الأفراد وتحدد علاقاتهم بعضهم ببعض من ناحية، وعلاقاتهم بالأشياء والموجودات الأخرى، ولا سيما موجودات عالم ما بعد الطبيعة من ناحية أخرى، وبذلك تلعب دورا كبيرا فيما يسمى المراقبة الاجتماعية Social Control أو الضبط الاجتماعي.
4. هـــذه المعـــتقدات تستلزم أعمالا أو طقوسا يقوم بها الأفراد وفق شكليات مرســـومة محـــددة كالصلاة أو الذكر أو التعميد ، وهذه الطقوس تستلزم أشياء مادية ومؤسسات مثل المساجد وما بها من منابر، والكنائس وما بها من مذابح، والبخور... الخ.
5. تقترن هذه المعتقدات وما يتعلق بها من طقوس وأفكار إنما تتعلق تعلقا وثيقا بالحياة الاجتماعية للمجتمع وما يحيط بها من ظروف طبيعية فزيائية وثقافية واجتماعية[51].

وإذا قمنا بتحليل الأفكار الدينية كعنصر من عناصر الثقافة،لوجدنا أن لكل مجتمع معتقداته الخاصة بعالم ما فوق الطبيعة كالخالق وعلاقته بالمخلوقات وبدء العالم وانتهائه، فنجد مثلا في كثير من المجتمعات البدائية أن الأفراد يعتقدون أن العالم مشحون بالقوى الروحية التي تتصرف فيه بالخير والشر وهذه القوى يطلقون عليها مثلا ألمانا Mana عند قبائل Maori في نيوزيلنده، وفي ماليزيا واسم أورندا عند قبائل الأيروكوا في أمريكا.

وهؤلاء يعبدون ويقدسون هذه القوى غير المشخصة، أي أنها لا توجد في شيء بالذات بل هي شائعة منتشرة لا يستطيع الإنسان أن يقترب منها إلا وفق طقوس خاصة. وهناك نوع أخر وهو القوى المشخصية، ,هي تتكون من أرواح وعفاريت.. الخ تتصرف في العالم، فمثلا قبائل الكاريبيين في غينيا البريطانية تعتقد أن كل الأشجار تحتوي على أرواح وأنه إذا سقطت شجرة ما على شخص وقتلته فذلك لأنه أساء إلى الروح القاطنة في الشجرة.

ومن الديانات القائلة بالثنائية مثل الديانة الزرادشتية التي تذهب إلى أنه هناك إلها للخير وآخر للشر وهما في عراك مستمر ولكن إله الخير سينتصر في نهاية الأمر، وثمة نوع يقوم على فكرة أن ثمة عددا من الآلهة بقدر ما هناك من شعوب، ولكن ليس ثمة إلا إله واحد لكل شعب أو مجتمع، وهذه الفكرة سادت عند كثير من المجتمعات البدائية وعند العبرانيين وعند العرب في بعض عصورهم الجاهلية ويسمى هذا النوع باسم Henothism أي مذهب توحيد آلهة المجتمع[52].

وأخـيرا هـناك الأديـان التـي تقول بإله واحد مطلق، منها اليهودية والمسيحية والإسلام، ولكنها في تصويرها لوحدانية الإله تختلف مع ذلك فيما بينهما. فإذا كان الإسلام يصور الإله على أنه واحد " أحد لم يلد ولم يولد ولم يكـن لـه كفوا أحد" ، يختلف عن الأفراد وعن كل ما ترى اختلافا لا سبيل إلى تصور مداه فإن قول الديانة المسيحية بالثالوث المقدس Trinity وتصوير العهـد القديم لصفات الإله تصويرات تقترب من صفات البشر قد جعل وحدة الإلـه في الديانتين محلا لكثير من التأويلات، وعندما ينتشر الدين فإنه ككل "نظـام اجتماعـي" يـتفاعل مع الوسط الاجتماعي الذي ينتشر فيه وتنشأ فيه تفسـيرات ومذاهب جديدة قد تختلف عن تفسيرات ومبادئ أخرى تسود في مـناطق أخرى. والروح الديني يختلف هو الآخر من مجتمع لآخر وفي نفس المجتمع من عصر الآخر. ونقصد بالروح الديني سيطرة الأفكار الدينية على

سلوك الأفراد، ويتعلق بهذه الأفكار الدينية ما يسود بعض المجتمعات من أفكار السحر واستخدام الوسائل السحرية والدينية في حياتهم العملية والتطبيقية مثل التطبيب والزراعة والصيد.

قديما وحديثا لماذا يرى أن الإسلام كعامل مجابهة وتهديد للقرب، هذه الصورة التي يعتقدها كل من العالم الغربي والعالم الإسلامي: فالشعوب الإسلامية لا تمثل خطرا حقا على العالم الغربي، إذ إنها لا تملك القوة النووية الهدامة. ومن ناحية ثانية فلم يحتج الغرب أبدا إلى عدو بطريقة منتظمة، وثالثا هل يعتقد الغرب بأن الإسلام والديمقراطية لا يلتقيان، فمثل هذا الإدعاء هو من قبيل الأسطورة. إذ إن التعامل مع الديمقراطية في العالم الإسلامي لم يكن تعاملا متجانسا. بل إن العوامل الاجتماعية والسياسية للمجتمعات الإسلامية تأثيرها القوي على طبيعة التعامل مع الديمقراطية. ولماذا يتهمون المجتمعات العربية والإسلامية بمزجها بين السياسة والدين؟ هذه أليس خاصية تتفرد بها العقيدة الإسلامية، فالمجتمع الأمريكي له باعة من التطرف المسيحي، كما أن للهند نصيبها من التطرف الهندوسي الذي له أثاره على الأحداث السياسية في المجتمع الهندي المعاصر.

ولماذا لم يوافق الغرب على ما أقره المسلمين في تعاملهم مع موضوع حقوق الإنسان ، حيث أقر:

1. لا خلاف بين الإسلام والتصور العالمي لحقوق الإنسان.
2. للدول الإسلامية ملف أفضل من غيرها في التعامل مع حقوق الإنسان.
3. تدعي الدول الإسلامية أن ظروفها التاريخية والحضارية تعطيها لملفها في حقوق الإنسان.
4. يرفض المسلمون الثقافة الغربية لحقوق الإنسان وينادون بتطبيق الشريعة الإسلامية مكانها.

5. تتعارض المعايير العالمية لحقوق الإنسان مع الرؤية الإسلامية.

فالغرب يبدي انزعاجه وتخوفه من إعطاء الدين بصفة عامة دورا في التعامل مع حقوق الإنسان.

ولماذا ظاهرة العداء للأتراك المسلمين من طرف الصرب الإغريق الذين ينتسبون إلى المسيحية الأرثوذوكسية ولماذا كرة الهندوس في الهند للمسلمين والقائل بأن هناك مكانين للمسلمين وهما: "الباكستان أو القبر".؟

ولماذا العداء للمسلمين في الغرب" أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية" ولماذا ارتفاع ظاهرة العداء ضد المسلمين بين الإسرائيليين؟ ولماذا ازدادت حدة هذا العداء بعد حرب يونيو (1967) بين العرب والمسلمين والإسرائيليين.

حيث تعتبر حركة "كاهانا" أكثر حركة يهودية عنصرية ضد العرب والمسلمين. ولماذا يقوم اليهود المتشددين بحفر النفق تحت المسجد الأقصى:

إن العداء بين الغرب والإسرائيليين والعرب المسلمين ذو جذور تاريخية ثقافية بعيدة. ربما لأننا خير أمة أخرجت للناس. وبذلك يمكن مواجهة الأخر القوي وثقافته المتغيرة، أو لأن العلم المتقدم بكل منتجاته وكشوفه واختراعاته الباهرة قد ساعد تلك المجتمعات التي تم تصنيفها معادية للإسلام تحديدا فقد تحول هذا العلم في نظر بعض أصحاب الرؤويا إلى شيطان يساعد الآخر على التفوق كراهية في الإسلام؟ ومن هنا كان المزيد من التمسك بالهوية الدينية والعلمية السليمة؛ فالإسلام دين الحراك(53)، ويختلف اختلافا بينا عن غيره من الأديان، حيث بدأت محاولات التوفيق بين العقل والنقل مبكرا جدا في مدارس العرب وأدت إلى نشوء فرق فلسفية تم تصنيفها جميعا تحت عنوان، مدرس واحد لعلم جديد هو "علم الكلام" ونادرا ما أهدرت دماء مسلم لاختلاف حول أمر من شؤون المقدس، فقد أرست

مدارس علم الكلام أقدامها بثبات من فجر الدولة الإسلامية، مما فتح أبواب الاجتهاد على مصاريعها، حتى انتهت مدرسة المعتزلة إلى ترجيع حكم العقل إذا تعارض أو اختلف مع نص. إذ تم إرساء حق الاختلاف حول أمور الدين مبكرا، بحسبان الإسلام تحديدا ملكا لجميع المسلمين وليس فيه أية سلطة كهنوتية تفرض رأيا بعينه في فهم النص دون فهم آخر، فأصبح هذا الحق متاحا للجميع على اختلاف مذاهبهم ومعارفهم.

ويرجع ذلك إلى أن طبيعة الدين الإسلامي تضع الإنسان في منزلة رفيعة الشأن. فالإنسان خليفة الله على الأرض، وقد سخر لــه الله ما في الكون ليتصرف فيه كيف يشاء.

وماذا عن التصادم الذي حدث لعلماء اللاهوت النصارى في العصور الوسطى حول بعض الأفكار التي تخالف رأي الكنيسة الرومانية مثل رأي (الكاردينال دوكوزا) (1401 – 1464) الذي افترض عمارة الشمس. لكن الحدث الأكثر مأساة والذي كان لــه أثر بالغ في التطور الثقافي في الغرب وقع سنة (1600) ففيها حكم بالحرق على الراهب (برونوجيوردانو) (1548–1600) بسبب كتاباته التي اعتبرت ردة. فقد كان هذا الراهب مؤيدا محمسا لتعدد العوالم وكان يقول " إن الكون غير محدود، عامر بعوالم لا حصر لها كعالمنا" وفندت الكنيسة بشدة تأكيدها الراهب لأسباب لاهوتية. ويعتبر الصراع الذي واجه (جاليليو) (1564–1642)، والكنيسة الرومانية عقب الحكم المفجع على الراهب (جيوردانو)[54]، ما هو إلا صدام مع الثقافة الدينية؛ أي الأنماط الدينية.

ولماذا قال (غاندي) ذات مرة في عبارة شهيرة: " إني اعتبر نفسي هندوسيا ومسيحيا ومسلما ويهوديا وبوذيا وكونفوشيا"[55] هذه الدعوة من التسامح والانفتاح على الأخر والثراء الباطني، وتعلم ديانات أخرى، وأن الدين ظاهرة حضارية، واكبت حياة الإنسان على الأرض منذ فجرها الأول، أخذة

على عاتقها تفسيرا ألغاز الوجود من ناحية وتنظيم المجتمع البشري على أسس أخلاقية من ناحية أخرى، ويجب تعلم أن الحضارات المختلفة جاءت بديانات مختلفة، وأن الديانات انتقلت من البساطة إلى التعقيد ومن محدودية التوجه إلى قبيلة أو أمة بعينها إلى الجمهور البشري الأوسع، مع تراكم الجهد الحضاري الإنساني، وزيادة التواصل بين الأمم المختلفة، هذه الدعوة تبين أن أخطر وأشد التصادم والعراء هو بين الأديان وليس بين الحضارات، ولتخفيف حدة هذا العداء ينبغي علينا أن يكون على قدرا من التسامح والانفتاح وخاصة بين الإسلام والمسيحية واليهودية باعتبارها الديانات الفاعلة في الثقافة العربية والإسلامية والغربية، وباعتبار المصلحة التاريخية بينهم.

ففي فرض تعليم الأنماط الدينية (الدين) الذي لـــه من العمر ما عاشت الإنسانية نفسها نجد الأفكار والمشاعر والآمال التي تستمر متوجهة في صد المؤمن لما تحمله من قيم سامية.

وتعتمد الأديان جميعها، على موقف معين من القيم ولعلها هي نفسها موقف قيمي صريح، وإذا كان الدين عند "أينشتاين" هو الذي يرسم الغاية، فإن العلم هو الذي يزودنا بمعرفة الوسيلة التي تساهم في بلوغ تلك الغاية أو الهدف وأن الدين هو الذي يعالج تقويم الفكر والفعل الإنساني، والعلم عندما يصبح معقدا بغير دين، ويغدو أعمى دون علم(56).

لقد وهب الإسلام الحرية التامة للإنسان في تأمله للموجودات والوصول إلى حقائق القول والحياة عن طريق التفكير والعقل.

أن الـــتطور التكنولوجـــي المتنامـــي المستمر في كل ما يتعلق بحياة الإنســـان وقضـــاياه لا يقـــف ؛ من وجهة النظر الدينية في وجه قيم التجديد والحداثـــة شـــرط الالـــتزام والـــتقدير باحـــترام مقدساته. وأن هذا التطور التكنولوجـــي فـــي تصـــديه لتغيير أشكال الحياة مع تصاعد إنجازات العقل الإنساني واهتزازات القيم وتجلي حقائق وأدلة جديدة لا ينال ذلك من جذرية

الأصول الراسخة للمعرفة الدينية.

وتجــدر الإشـــارة إلـــى المفكرين من رجال الدين والعلم والحضارة يـــتوافقون جمـــيعهم علـــى قيم " ثابتة" وحقائق لا تتغير، فالعدل يبقى حسنا، والظلـــم قبيحا وكذلك الصدق والكذب وغير ذلك من القيم الثقافية مهما تغير الزمن وانقلبت الظروف. وأن التغيرات الحضارة المادية المتلاحقة والتطور المتســارع والكبــير فــي أجهــزة الحضارة المادية من معدات، واكتشافات ومخــترعات وســواها مما أوجدته التكنولوجيا المعاصرة لا يمكن أن تجعل الحــق بــاطلا ولا الصدق كذبا، أي لا تصادم مع الحضارة المادية، ويبقى الإنســان في هذا العالم المتطور هو الإنسان، وأن التغيرات في مفاهيمه التي تحصل حول البيئة الثقافية يعني تصادمه أو تطبعه معها لكي يعيش فيها ولا يعني مطلقا تغيره جوهريا في كيانه.

فالتصـــادم بيـــن مفهومـــي "الحضـــارة" و"الثقافة" تصادم في السلوك، والأنمـــاط، والأفكـــار الاجتماعية والنفسية- والعلمية. فالأشياء المادية تتغير بسرعة، ويبقى التغير الثقافي ثقيلا.

فـــي بنـــية العقـــل الداخلـــية. ونضـــرب أمثالا على ما عناته بعض الشخصيات الفكرية والعلمية من اضطهاد "ابن باجه"، (وابن رشد) (وابن مـــيمون) ممـــن لهـــم أهميـــتهم بالنسبة للغرب بأكثر مما كانت لهم بالنسبة للحضـــارة العربية الإسلامية، ولقد أضطهد ابن رشيد وابن ميمون في فترة مـــن الزمـــن من مواطنيهم؛ اضطهد (ابن رشد) من رجال الدين واضطهد (ابن ميمون) من المسلمين المتحمسين للتحول إلى الإسلام حيث هاجر إلى القاهـــرة مـــارس الطب وألف كتبه، ولقد مات ابن باجة مسموما على أكثر الاحتمالات من المتدنيين المتحمسين"[57].

وفضلا عن ذلك كتاب (موسى بن ميمون) المهم "دلالة الحائرين" قد رفضته السلطات اليهودية التقليدية، فقد نبذ بشدة دعوى معارضته للدين، كما

تم بعد ذلك دفع الاتهام عنه بحماس.

ولم يتم إحياء المدخل الطبيعي للفلسفة والموضوعات المقدسة في الثقافة اليهودية حتى (سبينوزا)، وليس أقل من ذلك عن (ابن رشد) (وابن ميمون)، فقد كانا أستاذين في الأساليب الأدبية للتكلم والتعبير الرمزي الذي تطور في كل من الثقافتين الإسلامية واليهودية بسبب القيود الدينية، أما (ابن رشد) فبالرغم من مكانته كقاضي فقد نفى حتى نهاية حياته وأحرقت كتبه وأكره على الهجرة إلى مراكش سنة (1195) حيث مات عام (1198)، وذلك بسبب أن (ابن رشد) رفض كتاب الغزالي "تهافت الفلاسفة" ولم تجد كتاباته إلا إذانا صما في الحضارة العربية الإسلامية[58].

ونحن نعرض تطور الفكر الإنساني عبر العصور المختلفة، ما بين الحاضر المضطرم إلى عصور ما قبل الميلاد في رحلة الصدام الثقافي فلسفيا وعلميا، هذه الرحلة التي يرتبط فيها بين فكر وعلم ونظريات (الثقافة) فلاسفة العصور القديمة وعلى رأسهم: سقراط وأفلاطون وإكساجوراس.. إلى فلاسفة التنوير في القرنين السابع عشر، والثامن عشر، وفي مقدمتهم كانط.. إلى قضية التحرر من خلال المعرفة إلى التاريخ وكيف نفهمه بالمنهج العلمي.. إلى صدام الثقافات.. إلى المقارنة بين إبداع العلم وإبداع الفن وما بينهما من تشابهات، لا نرى في ذلك إلا صدام الثقافات وليس الحضارات.

الفرض الخامس: هل هناك علاقة بين إدراك الزمن والتطور العلمي والتكنولوجي وصدام الثقافات؟

الزمن يأخذ أهمية كبيرة في تاريخ الثقافات والحضارات ومازال هذا الموقف من الزمن يشكل المعادلة الصعبة التي تواجه بعض الأمم والمجتمعات في مسار تقدم ثقافتها وحضارتها.

فالمضامين الحرة للعقل والتي تنقلت من إطار التقليد ومن حصار الزمن الماضي، بما يشتمل عليه هذا الزمن من تصورات أسطورية وخرافية بائدة ؛ تشكل منطلق التقدم الثقافي والحضاري لهذه الأمم وهذه المجتمعات.

فبعض المجتمعات ومنها المجتمعات العربية الإسلامية مازالت تخشى المستقبل بما ينطوي عليه هذا البعد الزمني من عطاءات وإبداعات حضارية، وثقافية وإنسانية، قرون ثمانية كانت فيها جامعات قرطبة وطليطلة وأشبيلة وغرناطة تشكل منارات للإشعاع الثقافي والحضاري الذي يشع من الأندلس على العالم، عاكسة مدى الازدهار الذي تحقق على يد هؤلاء، حيث يقول كاتب أمريكي محايد هو (واشنطن إيرفنج)[59] في كتابه "الحمراء" أثر الحضارة العربية الثقافي والاجتماعي على الأندلس وإسبانيا "يقول" : هؤلاء الذين فتحوا وحكموا وازدهروا، ثم بادوا بسبب تعصب الأخر الديني. ويقول أيضا : إن فتح العرب لأسبانيا قد حمل معه حضارة أرقى وطرازا في التفكير أنبل، فالعرب أناس شاعريون، لامعو الذكاء سريعوا البديهة، أصحاب إباء وشهامة وحكمة، وعقل، وقد تشربوا علوم الشرق، وآدابه، وحيثما كانوا يقومون بتشريب وصقل الناس الذين يفتحون بلادهم، وليس هناك من أثر يعبر عن عصره وأناسه أكثر من الحمراء.

تلـــك القلعـــة المهولة خارجا والقصر الباذج داخلا، الحرب تكشر فوق أسواره ، وأنغام الشعر تتسرب في قاعاته بلا مقاومة حين كانت أسبانيا العربية الإسلامية، منطقة إشعاع للحضارة والنور وسط أوروبا الغارقة في الظلام".

ولقد زودتنا الدراسات الحديثة عن معاهد العلم في الإسلام وبخاصة في مؤلفات (جورج مقديسي) بتقدير كبير عن كثرتها وتنوعها وأهميتها ويشير مقديسي كذلك إلى أن منهج الجدل وأسماء الوظائف الأكاديمية في أوروبا الغربية كانت مأخوذة عن النظام التعليمي الإسلامي وعن اللغة العربية[60]. ذلك أن الصفوة المثقفة في الحضارة العربية الإسلامية تمسكت بشكل لا

نظير لـــه بكل صور التعلم، ويتضح هذا في تطور ومسيرة المؤسسات والتقنيات اللازمة لحياة الفكر والفن وتقنيات صناعة الكتاب وإنتاجه، وجمع ونقل المعرفة للمعاصرين وللأجيال التالية. وكانت مناهج المدرسة تتركز نظريا على الدراسات القرآنية أو الحديث أو أصول الدين وأصول الفقه. ومناهجه وكان الأخير يتضمن جدلا ومناقشات في الأمور العملية في الشريعة، ويرجع الاستبعاد المتعمد للفلسفة وعلوم الأوائل إلى الشك الذي يحيط بموضوعاتها من علماء الدين ، ومع ذلك كانت هذه الكتب تنسخ ويتيسر الحصول عليها في المكتبات الملحقة بالمدارس والمساجد، وكان أساتذة الشريعة الذين اشتهروا بإجادة علوم الأوائل يدرسون هذه الموضوعات تدريسا خاصا أو في منازلهم(61).

ويمكن القول ونحن نتحدث عن الزمن والتطور العلمي والتصادم الثقافي بأن البنية المسرفة في العامل الشخصي؛ التشريع الإسلامي قد أدت إلى عقبات حالت دون التطور، فضلا عن غياب الطابع المتحرك للطباعة والذي اخترعته الصين في القرن الحادي عشر، ومع أن تقنيات الطباعة قد وصلت الإسلام في مـــرحلة مـــبكرة عن الغرب فإنهم لم يستفيد منها. كما يتضح التصادم الثقافي أيضا، في سلوكيات الحياة الثقافية في الإسلام والتي تتعلق بالصلة بين المعلمين والتلامـــيذ ممـــا يعده الفلاسفة من الأسرار(62). إذ يرى (جورج حوراني) أن الـــتراث اليونانـــي الـــذي انتقل من (أفلاطون)خلال (جالينوس) (والفارابي) (وابن سينا) (والغزالي) (وابن طفيل) (وابن رشد) (وابن ميمون) كان يتصف بالســـرية، ذلـــك أن هـــؤلاء الفلاسفة كانوا يرون أن العامة غير قادرين على اســـتيعاب الحقـــائق العلـــيا للفلسفة أو كما عبر عنه (الغزالي) (وابن طفيل وابـــن رشد) "المعنى الباطن للشريعة" ففي بعض الحالات كان على المؤمن أن يدرك أن الشريعة تحرم المناقشة العلنية لهذه الموضوعات(63).

ومن منظور مدة ما حملته القرون الطويلة من صور الثقافة الإسلامية

لم يكن لأوروبا في القرن الحادي عشر شيء من ذلك، وإنما كانت بسيطة صغيرة مبتدئة بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية تماما كما كانت الولايات المتحدة بالنسبة لأوربا في عام (1776) فمع تقاليد القانون الروماني فضلا عن نصيب وافر من التراث اليوناني، كما أخفقت في أن تقيم تقاليد فكرية خارج نطاق الكنيسة مثل (جيراره أف كرموريا Gerard of Cremoria) (1114 –1187) (وميشيل سكوت Michael Scott) (1277 –1335) بين آخرين بدأوا في مواجهة التراث الفكري الخصب للشرق الأوسط وكان أكثره في أسبانيا وذلك بالحماس والترويج لحكمة "سادة العرب"[64].

ومما يدل على أن العرب بناة الحضارة في أسبانيا قول (إيرفنج) وهكذا ينتهي الأمر معه حيث ينظر لهذه الحضارة العريقة باعتبارها منارة أضاءت أمام النهوض الأوروبي، فالعرب من وجهة نظر أمة نتجت عن من موجة الفتح الإسلامي على شواطئ أوروبا، ليعملوا على توطيد حكمهم في أسبانيا كفاتحين حصلوا مقابل بطولتهم: أن شكلوا أمة فريدة زودت العالم بكل الفنون والعلوم الراقية التي ساعدت على النهوض، والخروج من قرون الظلام متسلحا بإنجاز الفكر والعلم والثقافة العربية التي شعت على الغرب المسيحي، حتى أن الجوامع في "قرطبة" و"الكزار" القصر في "أشبيلية" والحمراء في "غرناطة" تشهد على تأثر الحضارة المسيحية بهم كما ظلت الأرض لهم على مر القرون مدة تفوق دخول "النورمانديين" إلى انجلترا"[65].

ومن مسلمات العصر الوسيط أن اكتشاف التراث الروماني في التشريع مع نقل التقاليد اليونانية المفقودة منذ مدة، والتي عرفت عن طريق الاتصال الجديد بالثقافة العربية الإسلامية في القرن الثاني عشر قد أنتج نهضة في أوروبا، وقد أثر هذا التفجر الجديد للطاقة والابتكار في كل مجالات النشاط الفكري، وكان ذلك واضحا في القانون والفلسفة واللاهوت والبحث العلمي، ويتضح ذلك في إقامة الكليات والجامعات وكذلك في إنشاء المدن والبلدان

الجديدة[66]. هذا يعني أن مولودا جديدا سيظهر، وقد صاحب ذلك تطور اقتصادي هائل ليدعم ويعزز ما يحوم في الجو من فكر وخيال، إنه يمكن القول إن هذه الروح الإبداعية الجديدة في الثقافة الفكرية من القوة بحيث ولدت واحدة من أشد المفارقات حدة بين مفكري أوروبا والشرق الأوسط في ذلك الحين، بل إنه بين الصفوة الدينية المسيحية من كان أكثر تعبيرا عن ذلك، لقد كان ذلك ملاحظا في كتب المشرعين وتلاميذ القانون في العصر المدرسي والذين أرادوا إحياء القانون الروماني، وفلاسفة اللاهوت مثل (سبتير أبلارد P.Abelard) (وليم كونشوس W. of Conches) (وثيرأوف شارترس Thierry of charters) وآخرين، وقد عبرت هذه عن ذاتها في روح جديدة من العقل أو التفكير، وملامح العقلانية التي بدأت تفرض النظام في كل ميدان، وتسود كل مظاهر وأنماط الحياة الفكرية والثقافية، كما لو كان مفكرو ذلك العصر قد وضعوا على أعينهم منظارا من العقلانية الميدانية الإجرائية.

ودليل على ذلك كانت محاورة "طيماوس" لأفلاطون أهم قوة ومصدر للدافع والنظام العقلاني لدى اليونان أحيا موات التعلم بعد تدهور الإمبراطورية الرمانية، والذي ترجمه إلى اللاتينية (كاليكدوس Chalcidus) في نهاية القرن الثالث، والذي أعجب به (بسان أوجسطين) ثم تحمس لــه مفكروا القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ومع أن العرب قد عرفوا "طيماوس" فإنه لم تكن لــه هذه الشعبية ولا تحمسوا لــه بمثل ما فعل مسيحيو الغرب. وكان من أكثر ما أثار إعجاب المفكرين الأوروبيين في الفترة المبكرة من العصر الحديث، تلك الصورة المنظمة المتكاملة عن الطبيعة. ومن هنا بدأ العالم الطبيعي كنموذج من النظام العقلي، وبفضل العقل أصبح النص التاريخي مصدرا للاقتباس والتعليق والإسهام هو:

"أن أي شيء يتغير، أو يخلق فإن يخلق بالضرورة من أجل عله، لأنه

إذا لم تكن هناك علة ما كان هناك خلق، هل كانت السماء والأرض منذ الأزل موجودة ودون بداية، أم لها بداية)، إني أجيب- ولكن الرب أو صانع الكون قد أوجده، فهل لـــه ولكن حتى إن وجدناه فمن المستحيل أن يحكى للناس، وسيبقى دوما السؤال:

ما هو المثال الذي اختاره صانع الكون حين صنعه، ذلك المثل الثابت لما خلقه؟(67)

ولعدم الدخول في تحليلات وتفاصيل أعمق، فإن يمكن القول إن النهضة الفكرية في القرن الثاني عشر في أوروبا وضعت أسس برنامج البحث العلمي بعد أن نقل وهذب، وقد طورته الصفوة الدينية التي سيطرت على الحياة الفكرية والتي تتضمن كما يرى (تينا ستيفال Tina Stiefel) القضايا الآتية:

1. إن البحث العقلي والموضوعي للطبيعة من أجل فهم عملها ممكن مرغوب فيه.
2. إن مثل هذا البحث إنما يوظف التقنية والرياضيات والاستدلال الاستنباطي.
3. إنه قد يوظف مناهج البحث التجريبي أو الشهادة القائمة على استخدام الحواش مادام ذلك ممكنا.
4. إن الباحث عن معرفة عمليات الطبيعة أو بالأحرى العالم ينبغي أن يفكر منهجيا وأن يتحلى بالرزانة.
5. وعلى العالم أن يتجنب كل أصوات السلطة والتقليد والرأي العام بصدد كيف تعمل إلا إلى المدى الذي يكون فيه الخبر تحققا وعقلانيا.
6. وعلى العالم أن يمارس الشك المنهجي وأن يتحمل حالة من التشكك في

بحثه من أجل فهم الظاهرة الطبيعة(68).

وبالبحث في التطورات العلمية نجد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وجود مفكرين عظماء سواء في الإسلام أو في أوروبا. ومن ثم فلا يمكن القول إن عظماء الحضارة الإسلامية قد انتهوا مادام كان هناك اهتمام بالعلم الطبيعي، وربمـــا كـــان صـــحيحا ما ذهب إليه (جورج سارتون) من أن أعداد العلماء البارزيـــن بعـــد القرن الثاني عشر في العالم العربي قد تراجع وراء عددهم في أوروبـــا. بـــل ومـــن الحق أيضا أنه قد تدهورت أعداد الدارسين في العصور الوســـطى بعد ذلك التاريخ، ومع ذلك نجد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر عددا متماثلا من عظماء الباحثين في الحضارتين بل وكذلك في الصين(69).

ولقـــد عرفنا أن علماء الحضارة العربية الإسلامية وضعوا مؤلفات في العلـــوم التجريبية مثل البصريات والطب والفلك، وكذلك طبقوا التقنيات على مجالات نوعية من البحث العلمي وخاصة البصريات.

ولو أخذنا برأي بعض مؤرخين العلم مثل (إدوار روزين Edward Rosen) (هربرت تبرفيلر Herbert Butterfield) وآخرين معروفين فإنهم يرون "أن الثورة الكوبرنيكية كانت نقلة كبرى في التصور الغربي للكون ووضع الإنسان فيه، كما كانت الثورة العلمية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ثورة ميتافيزيقية عميقة، ونحن نعلم في نفس الوقت أن هذه الثورة لم تقع إلا في الغرب، لا في الإسلام ولا في الصين وقد دعت هذه الحقيقة إلى أن يتساءل الكثرون عن العوامل الاقتصادية والثقافية الفريدة التي وجدت في الغرب فمكنته من هذا التحول"(70). وإذا استرجعنا تاريخ العلم في الحضارة العربية الإسلامية نجد بعض الممارسات والانجازات في العلم العربي الإسلامي، باهرة نظريا وملاحظات دقيقة تجريبيا واستفادت تكنولوجيا تجريبيا وتطبيقات على أعلى مستوى للرياضيات المتقدمة، بل وأكثر من ذلك تطورا لما يسمى نماذج غير بطلمية للإجرام في مرصد

مراغه(*) في القرن الثالث عشر. فبهذه الاعتبارات يصبح من الواضح أن الاقتحام إلى العلم الحديث وبخاصة في الفلك.

لم يتم بسبب نقص الاستفادة بما تم وصفه، وأن الأمر كان يقتضي إما ملاحظات جديدة وإما ابتكارات فنية متعلقة بعلم الفلك الرياضي، غير أنه من المتفق عليه أن التصور الجديد الكبير (لكوبرنيكوس) عن نظام العالم لم يقم علـى ملاحظـات جديـدة مفاجئة، ولا على تقنيات رياضية لم يتوصل إليها العـرب، وإنما كان الأمر نقله جذرية خالصة فكريا، نوعا من التحول العقلي أحال المجموعات القديمة من المقدمات إلى مجموعة جديدة من العلاقات.

وبهـذا استطاع (كوبرنيكوس) تقديم حقيقة جديدة- حقيقة علمية على أسـاس مـن نماذج الإجرام والمقدمات القائمة على الملاحظات التي قام بها الفلكـيون العرب، فإن حكمنا على هذه النماذج بأنها غير ملائمة لدعم نظام (كوبرنيكوس)[71]. إلا أنه كان كوبرنيكوس شجاعا وجريئا في المضي قدما إلى النظام الكوني الفلكي الجديد، فهذه الثورة الكوبرنيكية الجديدة كانت قفزة نوعـية ميتافيزيقية لم يكن العرب مرحبين ولا مقدمين عليها بالرغم من أنه كانـت لديهـم الامكانـيات العلمـية والثقافية لمدة قرنين من تجارب سابقة، وبالـرغم من الإشكاليات والملاحظات في النماذج المعروضة عليهم والقائمة على القول بمركزية الأرض.

لم تكن مشكلة النظام الكوني الجديد من منظور سوسيوجي أن نظرية كوبرنيكوس صحيحة أم خاطئة أو عما إذا كانت تدعمها أدلة علمية أو منطقية كافية، وإنما تتعلق المشكلة بمؤسسات ثقافية فكرية وبوسط محايد يتقبل مزايا النظام الكوني الجديد دون أن يتعرض القائلون به والمدافعون عنه لأخطار شخصية فمن الواضح أن النظام الكوني (نظرية كوبرنيكوس) لم يخرق بعض مبادئ أرسطو لفلسفة الطبيعة مثل (أن الجرم سماوي أكثر من

(*) نشأ مرصد مراغه في عصر متأخر في القرن السابع الميلاد.

حركة- حركة حول نفسه وحركة حول جرم آخر - أو أن الفلك كنظام يتبع الطبيعة حيث منها يستمد قوانينها) ولكن الأهم أنه "خرق الفروض اللاهوتية للمسيحية التي تفترض أن الأرض هي مركز الكون وأن الإنجيل -المصدر المعول عليه- يقول ذلك ولم يقدر كوبرنيكوس ولا أتباعه هذه الحقيقة، وإنما عملوا وفقا لخطة مرسومة كان لابد حتما أن تتعارض مع هذه السلطة، ولقد كتب (Rheticus) (1514-1574) أول وأكثر أتباع كوبرنيكوس حماسة رسالة حاول فيها التوفيق بين الكتاب المقدس والنظام العالمي الجديد (لكوبرنيكوس). والخلاصة، لقد كان الصدام بين النظام العالمي الجديد وبين الآراء اللاهوتية المركبة من خليط من الكتاب المقدس ومن الأرسطية التقليدية- قد شكل عقبة كؤودا أمام تقبل نظام كوبرنيكوس، وكان الصراع قادما حتما إما في زمن كبرنيكوس أو بعد كما حدث بالنسبة لجاليليو.

ومما يؤكد صدام العلم والتطور التكنولوجي بالثقافة ما صاغه (سنجامين نيلسون Nelson) حيث أكد على رواد علماء القرنين السادس عشر والسابع عشر في الفلسفة والعلم، أولا أن يكافحوا من أجل اليقين والحقيقة وليس لديهم خيار في أن يبقوا متحجبين داخل تعاليمهم بالاعتراف بأن وجهات نظرهم التجريبية والاعتقادية هي مجرد " فروض. وثانيا: بمعنى أن تكون عالما أو فيلسوفا مبتكرا هو أن تجازف بالدخول في صراعات خطيرة مع السلطات اللاهوتية إلى حد أن تضع حياتك في كفة مقابل الفكرة التي اعتنقتها، ولوا أن الرواد لم يجازفوا بكل شيء في صراعاتهم ضد الغيبيات والاحتمالات، لما أصبح علماء الفيزياء اليوم أحرارا كما هم الآن كأبطال ضد الأوضاع الغيبية والظنية.ولقد ربط (بن دافيد Ben- David) مشكلة هذا الصدام بنشأة العلم إلى ظهور دور اجتماعي جديد، حيث يشار إلى أنماط السلوك والعواطف والدوافع التي تواجهها. ومن ثم فإن ظهور دور للعلم ارتبط بالتغيرات في الأنماط المعيارية المنظمة للأنشطة الثقافية. كما

أضاف بن دافيد ملاحظة إيجابية في هذا الصدام بأنه بصدد دور العلم فإن هذا التغير في القيم إنما يعني قبول أن يكون البحث عن الحقيقة خلال المنطق والتجربة لأهميتها في مسيرة الفكر(72).

أما (مرتون Merton) فقد صاغ مشكلة صدام الثقافة بالعلم في صلة العلاقة الجوهرية بين قيم العلم -كما هي- وبين الثقافة المحيطة به، وقد ذهب عام (1938) إلى أن التطور الدؤوب للعلم الطبيعي قد تم فقط في مجتمعات ذات نظام يقوم بتركيب مقدمات دقيقة وتحديدات تأسيسية. وليست هناك لحظة خاطفة لتأكيد أصل وطبيعة ووظيفة هذه القيم الثقافية الكاملة في الميزة العريضة للعلم. ودون تحديد هذه القيم الكامنة ومصادرها يتعذر أن يكون المرء مدينا بتفسير بشأن العلم الحديث من دون مؤسساته، ولعل الأهم من ذلك أنه قد أكد على حقيقة أن المجالات المتعلقة بالمؤسسات المتصلة إنما هي مستقلة جزئيا وليس استقلال كاملا، وأنه فقط بعد تطور طويل المدى، تمكنت هذه المؤسسات بما في ذلك مؤسسات العلم من أن تحقق درجة مهمة من الاستقلال. ومن خلال تحليله النظري هذا استطاع معه أن يحدد أخلاقيات العلم كمكون أساسي في عملية العلم، وقد ضمن هذا في مقالته الشهيرة بعنوان "العلم والتكنولوجيا والنظام الديمقراطي" الذي نشر عام (1942) وفي رسالته للدكتوراه كان مشغولا أساسا بالمصادر الاجتماعية والثقافية للحركة العلمية والتي استدل فيها بالتحولات العامة والخاصة في الفكر والبحث العلمي، وأهتم مرتون بأبعاد أخرى للعلم، وأن لفظ العلم إنما يشير في الاستعمال إلى:

1. مجموعة من المناهج ذات طابع معين تمكن للعلم أن يتحدد.
2. مجموعة من معارف متراكمة لازمة عند تطبيق هذه المعارف.
3. مجموعة من القيم الثقافية والأخلاقيات التي تحكم الأنشطة العلمية أو ترتبط بها، من منظور سوسيولوجي، وأن يتجه الاهتمام إلى البنية الثقافية للعلم والسلوكيات التي تتوقف عليها المدونات المنهجية، إن هذه المدونات

المنهجية هي ضروريات تكنولوجية ودوافع أخلاقية ولكنها تتشكل وتترسخ في سياق ثقافي أعرض يمنحها الصدق.

هنا نأتي إلى "أخلاقيات العلم" هذه المعايير التي تتخذ شكل وصايا واستبعادات وأفضليات وتصاريح[73].

هذه المعايير العالمية والشمول والنزاهة والشك المنظم إذا اعتبرت على أنها الجوهر السوسيولوجي للعملية العلمية، فإن فكرة العلم كمؤسسة اجتماعية تحقق استقلالها وأن نشأة العلم الحديث وتطوراته التكنولوجية، إنما هي حدث يحتاج إلى مدى طويل، وقد استمر يتوغل في كل الأبعاد، والهيئات والجامعات والكليات. مما يؤدي إلى تغيرات أساسية في الفكر وفي المجتمع مهما، كانت هناك سيادة وتعزيز وتقوية للأفكار التقليدية.

وأما عن الصدام الثقافي لا الحضاري في الصين، حيث كانت تتجسد في صورة رجل المعرفة في الصين هو ذلك الفرد المستنير الملتزم أخلاقيا بالتقاليد، والرجل المتعلم في ذلك المتمكن من الكلاسيكيات في الفلسفة الكونفوشوسية، والذي فهم مكانه الإنسان في كون متناغم، ذلك الفرد هو الذي يستطيع أن يقدم المشورة والنصح للإمبراطور أو الملك في مهنة السياسة وفي المسائل الأخلاقية. ذلك الشخص المستنير الذي يتبع اتجاها ينأى عن الكوارث الطبيعية، والاضطرابات الاجتماعية، لتحقيق غاية الفهم للمد والجزر فيما يصيب الإنسان والطبيعة، ومن ثم إلى التوافق أو الملائمة العضوية بين الإنسان والطبيعة.

فالغاية التي يوجه إليها هذا الفرد المتعلم هو الاهتمام بالإنسان والنظام الاجتماعي باعتباره المكون الأصغر Microcosm بأكثر منه الطبيعة أو النظام الكوني الأكبر Macrocosm. ويقال عن ما جلبه اليسوعيون في القرن السابع عشر من أفكار وتصور جديد لنظام الكون ومركزية الأرض، ومن علم حساب المثلثات، فاقتربوا بذلك في الصين من المسائل الكونية التي دفعتهم إلىما يمكن أن يطلق عليه بالثورة العلمية، ولكن هذا الانتقال حسب

رأي (نيثان شعان Nathan Sivin) لم يحدث تغيرات جوهرية في الفكر وفي المجتمع كما حدث في المجتمع الغربي، على عكس ذلك فقد شعر الأفراد في المجتمع الصيني بمسؤولية تجاه تقوية وتعزيز الأفكار التقليدية. بمعنى آخر لم تمارس الصين ثورة علمية حقيقية وإنما مجرد تعديل يسيط في مجال علم الفلك الرياضي، لأن الفرد في الصين مرتبط بشدة بالنماذج المقترنة بما في التفكير وتقر الصين ثلاثة توجهات تجاه العلم الغربي، أولها: هو ما حدث في القرن السابع عشر برعاية اليسوعيين، وثانيا: ما أكرهت عليه الصين من البريطانيين في القرن التاسع عشر. وثالثا: هو الاختيار الحر "السيادة للعلم" الذي تبع ثورة عام (1911)، ومع ذلك ففي كل من هذه الملحمات الثلاثة استطاعت الأساليب أي الأنماط التقليدية أن تؤكد ذاتها(74).

لذلك يمكن القول أن أسباب هذا النمط من الصدام لا يمكن في ظاهرة التحولات المسيحية في القرن الثاني عشر أو أصولية القرن العشرين الإسلامية إنها تنبع من طبيعة الدينيين (المسيحية- والإسلام) والحضارات المؤسسة على مبادئهما. (الصدام كان من جهة- نتاج خلافات (تصادمات) "وخاصة مفهوم المسلم للإسلام بأنه منهج الحياة يوجد الدين السياسة ضد المفهوم الغربي المسيحي الذي يفصل الدين عن السياسة. ولكن الصدام ينشأ من التشابه بينهما، كل منهما يؤمن بالله الواحد وفي ذلك يختلفان عن الأديان الأخرى التي تشرك بالله، كل منهما يرى العالم بطريقة مزدوجة نحن وهم، كل منهما عالميا يدعي بأنه الإيمان الحقيقي، والذي يجب أن تعتنقه الإنسانية كل الإنسانية، كل منهما صاحب رسالة دينية، الإسلام من بدايته انتشر بحد السيف وعندما سنحت الفرصة للمسيحية فعلت ذلك – تماثل مفهوم" الجهاد، و"الصليب لا يجعل الدين متشابهين فقط ولكن تميزها عن الأديان الأخرى. فالإسلام والمسيحية واليهودية لديهم وجهة نظر في بعض الحضارات الأخرى(75).

بالإضافة إلى ذلك ليست المعرفة العلمية أو التكنولوجية فقط هي التي

خطت، أو على وشك أن تخطو، خطوات مثيرة- بل إن قاعدة المعرفة يجري تنويرها في كل شيء في نظرية التنظيم والموسيقى ودراسة النظم البيئية وفهمنا للمخ واللغويات ونظرية التعلم والدراسات الخاصة بعدم الاتزان والفوضى والتركيبات المتبددة، الخ بل أنه حتى فيما يحدث كل هذا أخذ الباحثون المتنافسون في مجالات مثل الشبكات العصبية والذكاء الاصطناعي يقدمون معرفة جديدة عن المعرفة نفسها. هذه التطورات التحولية متصلة في واقع الأمر اتصالا لا فكاك منه. بانفجارات اليوم الجيوبوليتيكية، إن المعرفة هي العامل الحاسم في الصدمات الثقافية، باعتبارها عنصر أساسي من عناصر الثقافة في أي مجتمع أو أي حضارة.

والمثال على ذلك هو الموت الدرامي للشيوعية في أوروبا الشرقية والكرب الدموي الذي اقترن به، من بوخارست إلى باكودبكين، لم يحدثا مصادفة "بل لأن الشيوعية اصطدمت بالمستقبل. فانتشار المعرفة وارتخاء قبضة الكنيسة الكاثوليكية على المعرفة والاتصال في أوروبا الغربية مما أشعل في النهاية حركة الإصلاح البروتستانتي أدى إلى ظهور الحاسب الآلي ووسائط الاتصالات الجديدة في منتصف القرن العشرين إلى تحطم سيطرة موسكو على العقل في الأقطار التي حكمتها أو تحكمت فيها. وبانتشار الثورة الحقيقية في أقطار التقنية المتقدمة أصبحت البلدان الشيوعية، في الواقع كتلة موغلة في الرجعية يقودها رجال مسنون متشربون بلاهوتية القرن التاسع عشر.

وقـــد كـــان (ميخائيل جورباتشوف) هو أول زعيم سوفيتي يدرك هذه الحقـــيقة التاريخـــية"[76] ، فالفكرة البالية التي تملكها الشيوعية عن المعرفة في القرن العشرين وخاصة عن علاقة المعرفة بالعلاقات الاجتماعية الشيوعية تكاد هـــي التـــي جعلت من المستحيل للأقطار الشيوعية أن تستفيد من نظام المعرفة القـــائم على الحاسبات الآلية والاتصال وخاصة على المعلومات المفتوحة، مثلما فعلت العلاقات الاجتماعية الإقطاعية أعاقت التنمية الصناعية فيما مضى.

فظهور المعرفة كثروة أدى ظهور الاقتصاد الموغل في الرمزية يتصادم مع أساس ثان من الأساسات التي تقوم عليها العقيدة الشيوعية.

وكان (ماركس) بقوله إن الأولوية للقاعدة المادية يناقض (هيغل) ، ومـن كـبرى تحديـات التاريخ فى هذه الأيام أن النظام الجديد لخلق الثروة يناقض أي (يصادم) بدوره ما ذهب إليه ماركس أو بالأحرى يضع ماركس وهيغل كليهما على جانب. لقد كانت المعدات Hard Ware بالنسبة للماركسيين أهـم علـى الدوام من المنهجيات Soft ware بينما تبرهن لنا ثورة الحاسبات الآن أن نقـيض ذلـك هو الصحيح، وإن كان ثمة فارق فهو أن المعرفة هي التـى تقود الاقتصاد، لا العكس[77]. فعندما جاء الاقتصاد الجديد، الذي يتميز بـأن مادته الخام الأساسية غير محسوسة (ثقافة علمية) جاء ليجد الشيوعية العالمية غير مهيأة على الإطلاق. فكان اصطدام الشيوعية بالمستقبل محتوما ومميـتا. فـأي أمـة أو دولة تجعل المعرفة أسيرا إنما تحكم على مواطنيها وثقافـتها وحضارتها فى كابوس الماضى المتجمد، فالمعرفة هى غذاء الثقافة والحضارة وبالتالي هي غذاء المستقبل المتجدد والإبداع المتفوق.

فسرعة التغيير السريعة والفائقة تعني أن "الحقائق" أو "الثقافة" تصبح بالية سريعا أي أن المعرفة القائمة عليها تكون أقل استمرارية. وللتغلب على عامل الوقتية هنا يجري الآن تصميم أدوات تكنولوجية وتنظيمية لزيادة سرعة البحوث العلمية والتطوير، كما أن ثمة أدوات أخرى هدفها الإسراع بعملية التعلم. إن أيض المعرفة يتحرك بسرعة أكبر.

يقول (توفلر) لا تقتصر قاعدة المعرفة هذه المواد التقليدية كالعلم أو التقنية أو التعليم بل تشمل كذلك المفاهيم الاستراتيجية للأمة واستخباراتها الخارجية وقدراتها ولغتها ومعلوماتها العامة عن الثقافات والحضارات الأخرى وأثرها الثقافي والعقائدي على العالم وتنوع نظم اتصالاتها وما ينتقل خلالها من أفكار ومعلومات وانطباعات كل هذه تغذي أو تستنزف قوة الدولة وتحدد نوعية القوة والنفوذ التي تستطيع تعبئتها في أي خلاف أو أزمة[78].

هوامش الفصل الأول :

---

(1) صــموئيل هنتنغــتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي. ترجمة مالك عبيد أبو شوميوة ومحمود محمد خلف- دار الجماهير للنشر والتوزيع، (1999)، ص15.
(2) عبد الصبور شاهين، مشكلة الثقافة، دار الفكر، القاهرة (1969)
(3) إبراهــيم صــقر أبو عمشة: الثقافة والتغير الاجتماعي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (1981)، ص32.
(4) نفس المرجع السابق، ص27 ـ 28.
(5) نفس المرجع السابق، ص412.
(6) نفس المرجع السابق، ص30.
(7) نفس المرجع السابق، ص30.
(8) نفس المرجع السابق، ص8.
(9) نفس المرجع السابق، ص9.
(10) نبيل على، الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت. (1990)، ص127 - 128.
(11) صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات، (مرجع سابق)، ص104.
(12) نبيل على، الثقافة العربية وعصر المعلومات، (مرجع سابق)، ص128.
(13) إبراهيم صقر أبو عمشة، الثقافة والتغيير الاجتماعي، (مرجع سابق)، ص12.
(14) نفس المرجع السابق، ص52.
(15) نفس المرجع السابق، ص72.
(16) نفس المرجع السابق، ص15.
(17) نفس المرجع السابق، ص19.
(18) حســن شحاته سعفان، أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، القاهرة، (1975-1976)، ص 228- 229.
(19) نفس المرجع السابق، ص227ــ288.
(20) صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات، (مرجع سابق)، ص374.
(21) نفس المرجع السابق، ص375.
(22) نفس المرجع السابق، ص375.
(23) نفس المرجع السابق، ص376.
(24) نفس المرجع السابق، ص376.
(25) نفس المرجع السابق، ص377.
(26) نفس المرجع السابق، ص377.

(27) نفس المرجع السابق، ص377.
(28) نفس المرجع السابق، ص378.
(29) نفس المرجع السابق، ص383.
(30) نفس المرجع السابق، ص414.
(31) نفس المرجع السابق، ص415.
(32) آلفــن توفلــر، تحول السلطة بين العنف والثروة والمعرفة، ترجمة، فتحي بن شتون، نبيل عثمان، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، (1992)، ص319.
(33) نفس المرجع السابق، ص325.
(34) نفس المرجع السابق، ص326.
(35) برهان غليون، الوعى الذاتي، منشورات عيون، الطبعة الأولى، الدار البيضاء،(1987)،ص69.
(36) نفس المرجع السابق، ص69- 76.
(37) رافيد ريف، مجزرة البوسنة وتخاذل الغرب، "صراع الدم والتاريخ في البلقان"، ترجمة عبد السلام رضوان، ومحمد الصاوي الديب، مجلة العربى، عدد يونيو، (1996)، ص194.
(38) عــبد اللطيف السادة، سفاحون لاحمائم سلام، مجلة العربي، عدد 529، ديسمبر، (2002)، ص 200.
(39) صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات، (مرجع سابق)، ص462.
(40) نفس المرجع السابق، ص462.
(41) نفس المرجع السابق، ص461.
(42) نفس المرجع السابق، ص463.
(43) ألفن توفلر، تحول السلطة بين العنف والثروة والمدة، (مرجع سابق)، ص331.
(44) نفس المرجع السابق، ص487.
(45) نفس المرجع السابق، ص560- 561.
(46) نفس المرجع السابق، ص562.
(47) نفس المرجع السابق، ص588.
(48) نفس المرجع السابق، ص588.
(49) نفس المرجع السابق، ص593-597.
(50) صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات، مرجع سابق، ص348-349.
(51) حسن شحاته سعفان، أسس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص90.
(52) نفس المرجع السابق،ص 23.
(53) ســيد القمــي، الــثقافات القديمــة، هــل تحتاج إلى مراجعة ؟ مجلة العربي، عدد (465)، أغسطس، (1997)، ص144.
(54) كريمان فريان، تعدد العوالم عبر التاريخ، مجلة العربى، عدد (461)، إبريل (1997)، ص 99.
(55) رشيد العنانى، محمد عبد السلام العمري، وجها لوجه، مجلة العربي، عدد (445)، ديسمبر (1995)،ص72.

(56) عـبد الرؤوف فضل الله، القيم هل مازالت تحافظ على مكانتها؟ مجلة العربي، عدد (529)، ديسمبر (2002)، ص 30.
(57) توبـي أ. هاف، فجر العلم الحديث، الإسلام، الصين- الغرب. ترجمة أحمد محمود صبحي، عالم المعرفة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت. (1997)، ص180.
(58) نفس المرجع السابق، ص180.
(59) واشنطن،أيرفلج، الحمراء: أثر الحضارة العربية الثقافى والاجتماعى على الأندلس وأسبانيا، ترجمة عبد الكريم ناصيف، هانى يحى نصري. مجلة العربى، العدد 473، إبريل، (1998)، ص196.
(60) توبى أ. هاف. فجر العلم الحديث. الإسلام، الصين، الغرب. (مرجع سابق)، ص95.
(61) نفس المرجع السابق، ص99.
(62) نفس المرجع السابق، ص108.
(63) نفس المرجع السابق، ص109.
(64) نفس المرجع السابق، ص144.
(65) واشنطن أيرفلج، الحمراء: أثر الحضارة العربية الثقافي والاجتماعي على الأندلس وأسبانيا، (مرجع سابق)، ص199.
(66) توبى أ. هاف. فجر العلم الحديث: الإسلام، الصين، الغرب، (مرجع سابق)، ص144.
(67) نفس المرجع السابق، ص145.
(68) نفس المرجع السابق، ص151.
(69) نفس المرجع السابق، ص 176.
(70) نفس المرجع السابق، ص172.
(71) نفس المرجع السابق، ص172- 173.
(72) نفس المرجع السابق، ص178- 182.
(73) نفس المرجع السابق، ص82- 184.
(74) نفس المرجع السابق، ص228- 229.
(75) صموئيل هنتنغتون ، صدام الحضارات ، (مرجع سابق)، ص372- 373.
(76) ألفن توفلر، تحول السلطة بين العنف الثروة والمعرفة ، (مرجع سابق)، ص533- 534.
(77) نفس المرجع السابق، ص553.
(78) نفس المرجع السابق، ص551.

الفصل الثاني

التوازن وتفاعل الحضارات

تصورات التوازن الدولي، وصدام الثقافات:

هناك سؤال مهم، ما مستقبل التوازن الدولي بين القوى الكبرى؟ طبعا لا توجد إجابة واحدة. فهناك من يرى أن العالم في اتجاه إلى التمركز حول سياسة القطب الواحد وهي الولايات المتحدة الأمريكية.وهناك اتجاه ثاني وهو تكتلا غربيا رأسماليا يتمثل في الاتحاد الأوروبي، واليابان وركيزته الولايات المتحدة الأمريكية

وهذا التكتل سوف يشكل القوة الضاربة اقتصاديا وتكنولوجيا في هذا القرن والاتجاه الثالث يركز على مؤشرات النمو الاقتصادي ويرى أن العالم اليوم يتجه نحو تعددية الأقطاب. وهناك اتجاه رابع: يقول أن القرن الحادي والعشرين سوف يكون قرنا أسيويا في المقام الأول، وأن موازين القوى الاقتصادية قد بدأت في الانتقال من أوروبا الغربية، وأمريكا إلى شرق آسيا. وإذا كانت جملة هذه التصورات هي مجموعات احتمالات يمكن تحدث على مستوى قمة العالم، غير أن العالم المعاصر اليوم وتحت تأثير الاتجاه نحو العالمية، يشهد اتجاهين مختلفين هما:

1. جزء من العالم يؤدي الاتجاه إلى العالمية بمعنى مزيد. من التفاعل والتداخل والاعتماد المتبادل. يعني انتهاء الحرب الباردة وبداية مرحلة جديدة من التعاون والسلام والأمن.
2. جزء من العالم يتعرض، لانهيار الدول القائمة، والحروب الأهلية، والتقلصات السياسية الحادة، وتصاعد الشعور بعدم الأمن.

هاتان المنطقتان للأمن والسياسة لا تفصلهما الخطوط التقليدية الفكرية

للأيديولوجية والحرب الباردة (الشرق والغرب) ولكن تفصلهما خطوط ومستويات التنمية والتطور (الشمال والجنوب) فالمنطقة الأولى للأمن توجد في الدول المتقدمة صناعيا حيث ينتشر السلام والرخاء والاستقرار. والمنطقة الثانية لعدم الأمن توجد في المجتمعات النامية التي ينتشر فيها الفقر وعدم الاستقرار والحروب. ويلاحظ بشكل مقلق أن أهداف هذه الدول والمجتمعات التي تنتمي إلى تلكما المجموعتين لم تعد واحدة، فهناك (فجوة متسعة) في شعور كل مجموعة بمفهوم الأمن الدولي ومتطلباته ونتائجه.

بمعنى آخر هذه التحولات الدولية تعكس نوعين مختلفين من الآثار التي تندفع في اتجاهين متضادين وتعرض نتائج وتدعيات متناقضة ومغايرة. فهناك عمليتان يمكن ملاحظاتهما الأولى: مزيد من دمج العالم وتكامله في وعاء واحد، ومن خلال أنشطة الشركات الدولية، وأدوات الاتصال الجماهيري، وأجهزة الإعلام، والمواصلات. وبفضل المرئيات وأساليب الإعلان المتقدمة، انتقلت أنماط السلوك الاستهلاكي الرأسمالي إلى كل مكان في العالم تقريبا، في الأنماط التي تتعلق بنوع الطعام وشكل الزي على سبيل المثال لا الحصر نجدها اليوم منتشرة في كل مكان تقريبا.

والعملية الثانية تبرز في ظهور تيارات وقوى سياسية واجتماعية مضادة أو مقاومة لتلك العملية الاندماجية، وتأخذ هذه العملية أحيانا صورا دينية، ومذهبية، قومية، سلوكية وعرقية، وقبلية وطائفية. وبالرغم من اختلاف صور هذه العملية إلا أنها تجتمع حول حقيقة بأنها تعبر عن تيارات وقوى تخاطب العمومية من الجماهير. وغالبا في شكل خطاب سياسي يتسم بالأخلاقية والمثالية. والشعارات المرفوعة لهذه التيارات يختلف من مجتمع إلى آخر وحتى داخل المجتمع الواحد. إلا أنها في الغالب تدور هذه الشعارات حول طرح معاني الأصالة والتمايز الحضاري. والهوية والحفاظ على الذات في مواجهة حركة الاندماج والصهر، فهي تستثير لدى الأفراد

والمجتمعات كل ما لــه علاقة أو صلة بهوياتهم وصورتهم عن الذات وعلاقتهم بالآخرين.

من خلال هذا الوضع المعاصر نجد أنفسنا أمام تصورات دولية معقدة ومزدوجة مما قد يوحي بالفوضى أحيانا والغموض أو خلط تعددية الأوراق أحيانا أخرى- وفي نفس الوقت نجد أنفسنا أمام قوتين تاريخيتين الأولى: تدفع نحو التكامل بفعل التطور التكنولوجي وأدوات الإعلام الحديثة وانهيار حواجز المسافات والحدود بما يعني ذلك من اختراق للحدود السياسية وتجاوزها. والقوة الثانية تدفع إلى التمايز والحفاظ على الهويات الثقافية والحضارية واحترام الخصوصيات القومية والمحلية.

لــيس صــحيحا أن انــتهاء الحــرب الباردة يعني انتهاء الصراعات الإقليمــية، أو أن نهاية الحرب الباردة تعني فقدان تلك الصراعات مبررات قـيامها. والصــحيح أن أجـواء الحــرب الــباردة كانت وراء زيادة بعض الصراعات إن لم تكن مسببة لها. وعلى سبيل المثال فإن قضايا مثل القضية الفلســطينية والصــراع العربي- الإسرائيلي، والنزاع الهندي- الباكستاني، والمشــكلة القبرصية، هذه القضايا تشكل نزعات ومشكلات موضوعية تجد أســبابها فــي اعتبارات سياسية تاريخية وربما أيضا دينية تنبع من ظروف الإقلــيم أو المــنطقة ذاتها. وتحت تأثير الثورة العلمية والتكنولوجية، وثورة المعلومات والاتصال فمن المرجح:

1. اســتمرار الاتجاه نحو مزيد من الاعتماد الاقتصادي المتبادل بين الدول الصناعية.
2. أن يســتمر ازديــاد دور المعــرفة في تحديد الميزة أو الخاصية التنافسية للشــعوب والأمم. وأن تصبح القدرة على التعامل مع المعلومات والاستفادة منها وتوظيفها هي الركيزة الإنسانية لقدرة الدولة الاقتصادية على المنافسة.

3. من الممكن أيضا أن يستمر الاتجاه نحو تحرير التجارة الدولية الذي تسنده اتفاقية الجات ومنظمة التجارة الدولية، والاتجاه إلى توسيع الأسواق من خلال التكتلات الاقتصادية وأشكال أو نماذج التكامل الاقتصادي.

وفي نفس الوقت الذي تطرح فيه أمريكا أفكارها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وأشكال نظم الحكم في دول شرق أوروبا، الأخذ بأفكار ونظم وأشكال الديمقراطية الغربية وتعدد الأحزاب وازدياد الحديث عن احترام حقوق الإنسان، وضمن حقوق الأقليات، باعتبارها أحد معايير الانخراط في منظومة التحولات الدولية الحالية. تبرز لنا حقيقة وهي:

"ازدواجية المعايير" أو "الكيل بمكيالين" وفقا لمصالح الدول الكبرى ذات السلطة والنفوذ والهيمنة.

ولعل أوضح صورها ما حدث في البوسنة والهرسك، مما يعد انتهاكا إجراميا لكل مفاهيم حقوق الإنسان والذي لا تقبله القوانين أو الأعراف أو الأديان تحت سمع الدول الكبرى، وكذلك أيضا موقف إصرار إسرائيل على عدم الانضمام لمعاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية وقبول الدول الكبرى للمبررات الإسرائيلية مع أن هذا الوضع يمثل تهديدا خطيرا للدول العربية والإسلامية والأمن والمنطقة عموما وسلامتها.

وبالاعتراف بأن العالم وخاصة الشرق يعيش في مرحلة انتقالية أو مرحلة تحولات تختلط فيها الألوان والأوراق، فإن هناك عددا من الاتجاهات من الممكن أن تستمر:

أولها:- الاتجاه نحو مزيد من الديمقراطية، واحترام حقوق الإنسان وسقوط الأنساق الفكرية المعلقة.

ثانيا:- استمرارية النزعات الدولية وشكلها من المحتمل يأخذ الانفجارات الداخلية والحروب الأهلية الصريحة أو المستترة. وزيادة

النزعات حول منابع المياه.

ثالثا:- أن الثروة الحقيقية لأي مجتمع لا تكمن في الموارد الطبيعية، وإنما تكمن بالأساس في قدرات مواطنيه وفي مستوى إدراكهم العلمي وقدراتهم التكنولوجية، وإن ذلك سيدفع بقضايا التعليم وتنمية الموارد البشرية إلى مركز الصدارة في التخطيط المستقبلي لأي مجتمع. فالتعليم بمعناه الواسع سيظل هو أداة إعداد البشر وتأهيلهم بهذا الإدراك العلمي ، وتلك القدرات والمهارات التكنولوجية والفنية اللازمة لمواجهة تحديات المستقبل.

وما دام العالم يتأرجح بين المعلوم والمجهول ، فمن الصعوبة فهم هذه التحولات الدولية التي لم تكتمل بعد، ومن ثم يكون من الصعب إن لم يكن من المستحيل أحيانا تحديد العناصر المتعددة لتلك التحولات، فإن حجم المجهول يكاد بنفس مقدار المعلوم إن لم يزد عليه. فلا أحد يستطيع أن يعرف كم من الوقت يستغرق الاتحاد الروسي لتنظيم بيته من الداخل وفي نفس الوقت لا أحد يعرف آفاق التطور السياسي وتوجهات جمهورية الصين على ضوء الأداء المتميز للاقتصاد الصيني. لذلك فمن أكثر المفاهيم أو التغييرات استخداما لهذا الوضع، أن العالم يمر بمفهوم " الانتقال" و"المرونة" ومفهوم الانتقال يشير إلى مرحلة التحول من حال إلى حال أو التحرك من وضع إلى وضع آخر ومراحل الانتقال تتسم عموما بالتغيير والتجديد في أنماط السلوك الاجتماعي والثقافي. حيث ينظر إلى كل محاولة للتغيير على أنها تهديد اجتماعي أو ثقافي، وهنا يمكن أن نلامس الروح التقليدية للعلاقة الذهنية مع الأشياء وهذا يعني أن المحافظة هي سمة أصيلة في البنية العقلية المحافظة. والمحافظة هنا تضمن لهذه المجتمعات حماية ذاتية ضد كل ما يهدد الطابع التقليدي لوجودها، كما أن هذه المحافظة تعد أساسا ذهنيا في عملية توافق هذه المجتمعات. والتغير والتجديد حقيقة تتأصل في عمق العقلية الحديثة. ومن هذا المنطلق يمكن التمييز بين نوعين من

الـــثقافة داخل هذا "الانتقال" أو "التحول" النوع الأول من الثقافة: فهي تقليدية جامدة متصلبة وذلك لانعدام الروابط الوظيفية بين وحداتها وعناصرها. ومن مضـــامين هذه الثقافة التقليدية احتقار الحاضر وتمجيد الماضي والخوف من المســـتقبل، والـــنوع الثانـــي مـــن الثقافة: الثقافة الديناميـة مرنة تتميز بقدرة عناصـــرها على الحركة والتوالد والانتشار خارج إطارها الزمني والمكاني، وهـــي قـــادرة علـــى الاقناع والتحدي والمجابهة وتلبية حاجات الأفراد. ففي مـــراحل "الانـــتقال" أو "الـــتحول" هـــذه يخـــتلط القديم (التقليدي) بالجديد (الديناميـــية) "وبحكم أننا نعيش في هذه المرحلة من التحول، فإن العالم يبدو مضطربا تبرز فيه اتجاهات متناقضة أي في حالة صدام. وكل مجتمع يعرف بموقفه المتميز من الزمن، حيث قال: (ألفين توفلر)". حيث يزحف الماضي إلى الحاضر ويعيد إنتاج نفسه في المستقبل في المجتمعات التقليدية الجامدة. " لأنه مع القديم تكون الحكمة " كما يقول الإنجيل[1].

التفاعل الحضاري بين عالمية الإسلام والنظام العالمي الجديد:

ليست للدين الإسلامي وأمته وحضارته مشكلة مع علاقات نظام عالمي جديد يتميز بالرشد والعدالة والحكمة.

بل إن مشاركة الأمة العربية الإسلامية، في تأسيس هذه العلاقة الدولية الراشدة والعادلة مع النظام العالمي الجديد الرشيد هو تكليف إلهي فرضه الله على أمته الإسلامية.

فالتعددية في الشرائع[*]، والحضارات واللغات والألوان أي في القوميات والأجناس وفي القبائل والأمم والشعوب هذه التعددية بالنص القرآني، وفي تصور الدين الإسلامي سنة إلهية وقضاء تكويني لا تبديل لـــه ولا تحويل عنه.

تأســـيس هـــذه العلاقـــات الدولية، وإقامتها بين قوميات وأجناس هذه الـــتعددية، بالخـــير والمعـــروف ووفـــق ما يتعارف عليه الناس أي التفاعل

بالمعـــروف "بالعـــرف" "والديـــن" هو فرض فرضه الله بإقامة هذه العلاقات الدولـــية بين الأمم والشعوب والحضارات على أساس قاعدة العدل والمساواة والكرامة وتقدير واحترام الإنسان "بني آدم". للاتجاه بالأمان والسلام والحرية وحقوق الإنسان والعدل الدولي. هذا المنطلق من التفاؤل ضرورة نحتاج إليه كبشر حتى لا يزيدنا اليأس يأسا.

ولتأكيد مبدأ "التفاعل الحضاري" من الحضارات الإنسانية في هذا التنوع البشري من الأجناس والقوميات، قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ سورة هود 118-119[2]. وقولـــه تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ سورة المائدة[3] الآية 48.

ولزيادة وتقوية وتعزيز مبدأ " التفاعل الحضاري" بالمعروف والمعرفة والدين وقله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ سورة الحجرات[4] الآية 13.

فالمعرفة بين الحضارات سواء في داخلها أو خارجها تتم من خلال، العلم، والتجارة، والزواج والتعاون والتسامح والمساهمة في بناء المشاريع الخيرية للقضاء على أعداء الإنسانية (كالجهل، المرض، البطالة، الأمية، التخلف).

وقضايا أخرى مثل البيئة، والجريمة والتنمية الاجتماعية والاقتصادية.

فالـــتفاعل الحضـــاري بيـــن الحضـــارة العربـــية والإسلامية وسائر الحضـــارات الإنســـانية، الماضية منها والمعاصرة، والمندثرة منها والحياة. تكلـــيف إلهـــي أسسه المسلمون بانفتاحهم على مختلف الحضارات الإنسانية؛

يقول: محمد عمارة "فشريعة من قبلنا شريعة لنا، ما لم تكن هناك خصوصية لشريعتنا نسخت نظيرها في الشرائع الأخرى. والسياسة الشرعية لا تقف عند الــبلاغ القرآني والبيان النبوي، وإنما يدخل فيها كل ما يحقق الصلاح وينفي الفساد، إذ هي: في تعريف السلف: "الأعمال والتدابير التي يكون الناس معها أقــرب إلــى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم ينزل بها وحي أو ينطق بها رســول "ذلك أن الحكمة" هي في التعريف النبوي: "الإصابة في غير النبوة" أي الصــواب الــذي يدركه البشر بالعقل والوجدان والحواس والتجريب(5). والمســلمون الــيوم مدعــوون إلى طلب هذه الحكمة أي الصواب- من أي مصدر، وأية أمة، وأية حضارة، وكما يقول الرسول (ﷺ) "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن" فإذا وجدها فهو أحق الناس بها.

يجب علينا أن ندرك أن العصر الذي نعيش فيه يختلف عن العصر الذي أحاط بأجدادنا وآبائنا على المفاهيم والتصورات والقيم. كما يجب علينا أيضا أن نعي تأثير المثيرات والمتغيرات التكنولوجية الجديدة والسريعة والمتلاحقة، التي تؤدي إلى تغيرات مماثلة في بنية التصورات والمفاهيم وطرق التكيف والتوافق. فالتغير يجري بوتائر سريعة جدا وينعكس على أنماط السلوك والأفكار عند الناس (صغار وكبار) مما يعني أن هذه التغيرات تحدث في الظروف وفي الناس قبل أن تنعكس على الأنظمة الثقافية والتربوية والاجتماعية. مثلا تأثير المرئيات "القنوات المرئية" في نمط التفكير والسلوك عند الأطفال يتم بشكل مباشر دون توسط العملية التربوية، والنظام التربوي لم يستطيع حتى هذا الوقت احتواء التجربة التكنولوجية الجديدة.

ومــنذ بدايــة تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وضع المسلمون هذا المــناهج فــي الــتفاعل الحضاري موضع التطبيق، فقد أخذ المسلمون من تجارب وتقنيات وقواعد وعلوم الحضارات الأخرى "المشترك الإنساني العام" وأضــافوه إلــى "الخصوصيات الحضارية الإسلامية" التي تتميز بها مناهج

الحضـــارة الإســـلامية. فقد اختار علماء الحضارة العربية الإسلامية. "مبدأ الـــتفاعل الحضـــاري" مـــن خـــلال موقع "الراشد المستقل" رافضين "التقليد" و"التبعـــية" و"الخـــنوع" و"التســـلط" و"التشـــبه"، وكذلك "الانطواء" والانغلاق "والعزلة والتفرد".

لقد قام المسلمين بتطبيق مناهج مبدأ "التفاعل الحضاري" عندما أخذوا عن الحضارة الرومانية "تدوين الدواوين" ولم يأخذوا القانون الروماني. استغناء بالشريعة الإسلامية الراقية والمتميزة.

وأخذوا عن الحضارة الهندية "الفلك والحساب" ولم يأخذوا فلسفة الهند، استغناء "بالتوحيد" فلسفة الإسلام.

وأخذوا من الحضارة الإغريقية "العلوم التجريبية" ولم يأخذوا أساطير الوثنية، الرافضة والمنافية للتوحيد الإسلامي.

ويقول محمد عمارة في هذا الصدد "بل وصنعت ذلك الحضارة الغربية، إبان نهضتها الحديثة، عندما أخذت عن الحضارة الإسلامية العلوم التجريبية والمنهج التجريبي، ولم تأخذ عنا التوحيد، ولا الوسطية، ولا القيم... وأحيت خصوصياتها الإغريقية والرومانية، فكان هذا الصنيع دليلا على أن التفاعل الصحي بين الحضارات، والعلاقات العادلة والحرة بين الأمم والدول، لابد أن تتأسس على حرية اختيار الأمم والحضارات لما يناسب هويتها الحضارية، فيدعم الاستقلال والتمييز لهذه الهوية وحرية الرفض لما يمسخ ويشوه هذه الخصوصيات"(6) ، بالإضافة إلى ذلك "هذا هو القانون" المعيار"الذي نريده حاكما للعلاقات بين أمتنا وحضارتنا والأمم والحضارات الأخرى"(7).

فالدين الإسلامي، لم يحبس العقول ولم يحجر على الأفكار بل جاء يحرر العقل، فاليقظة الإسلامية المعاصرة كانت مشروعا فكريا للإحياء الحضاري والتجديد الفكري لكي تواجه به التخلف والجمود والتقليد الوراثي،

عن عصور التراجع الحضاري. فإذا كانت الحضارة العربية الإسلامية تشكو من التخلف أو التأخر الحضاري "المادي" الصناعي، فإن طوق نجاتها من هذا التخلف هو "التجديد" و"الإحياء الحضاري" فمن أشد أعداء "التجديد" هو "التفكير" وتفريط دعاة التقليد للنموذج الغربي. فالتقليد يعطل ملكة الابتكار والإبداع. بالتجديد تنهض الأمة، عندما تشعر بأن التجديد حاجة ضرورية أساسية. ولن يتحقق ذلك إلا إذا أرست وأمنت بأن لها في التجديد مشروعا متميزا ومتطورا عن المشاريع الأخرى للحضارات الإنسانية الأخرى.

عند ذلك تدفعها الحاجة إلى التجديد والإحياء وتنمو لدى أبنائها ولديها ملكات الإبداع والابتكار والتفوق، تلك التي تذبل وتموت في ظل أنماط التقليد والمحاكاة والتشبه بالآخرين.

ويؤكد محمد عمارة أن "اليقظة الإسلامية الحديثة والمعاصرة على وعي بهذه الحقيقة منذ بداياتها، فدعا أعلامها إلى التمييز في التفاعل الحضاري، والعلاقات مع أمم الحضارات الأخرى، بين النافع والضار، بين الملائم وغير الملائم، بين المشترك العام والخصوصيات الثقافية والعقائدية والحضارية، بين العلم التجريبي ذي القوانين والحقائق العامة والمحايدة وبين الفلسفات والثقافات والعلوم الإنسانية والآداب والفنون التي موضوعها النفس الإنسانية المتميزة بتميز الحضارات، فقال جمال الدين الأفغاني: "إن أبا العلم وأمه هو: الدليل، والدليل ليس أرسطو بالذات ولا جاليليو بالذات، والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل، والتمدن الأوروبي هو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني، والمسلمون الذين يقلدونه إنما يشوهون وجه الأمة، ويضيعون ثروتها، ويحطون من شأنها، إنهم المنافذ لجيوش الغزاة، يمهدون لهم السبيل ويفتحون لهم الأبواب"(8).

وإذا كانت عقلية الحضارة الغربية في حقيقتها اليونانية قد انفصلت عن "الوعي والنقل" لغيبه الوحي والنقل عن الحضارة اليونانية. وإذا كانت العقلية

الأوروبية في تطورها الحديث والمعاصر، قد تمردت وانفصلت على السلطة اللاهوتية "الكنيسة". فإن هذا الفصام قد برئت منه الحضارة العربية الإسلامية، فكانت عقلية الحضارة الإسلامية ثمرة من ثمرات التفكير والنظر والتدبر والفهم والمعرفة والحذق لروح التشريع وفلسفته التي أوجبها القرآن، كما كانت منضبطة ومحكمة مع ملكات العقل الإنساني النسبية- بالعلم الإلهي المطلق والمحيط، ومتخصصة في المجالات والمواضيع التي يستطيع العقل الإنساني أن يستقل بإدراك حقائقها وقوانينها وأصولها ومعارفها. حيث يقول محمد عمارة في هذا الصدد "ذلك حتى لا ينسخ التطور الأحكام الإلهية إن هي فصلت وقننت لهذه المتغيرات وأيضا حتى لا تحدث قطيعة معرفية في فلسفة التشريع بين الفقه المتطور وبين ثوابت الشريعة وروحها المتميزة، فاحتفظت الشريعة الإلهية بالثبات الذي حقق لها التواصل في حضارة الأمة وفق فقهائها عبر الزمان والمكان. وواكب الفقه كل المستجدات مع التزامه بفلسفة التشريع الإسلامية. وهو يقنن لكل جديد، فكان كالفروع النامية التي تظلل المساحات الجديدة في الواقع المتطور مع استمرارها روح التشريع الإسلامي من المنابع والجذور. ولهذه الحقيقة من حقائق الوسطية الجامعة بين الثوابت والمتغيرات، بين الشريعة التي هي وضع إلهي - ثابت - وبين الفقه - الذي هو اجتهاد الفقهاء في إطار الشريعة الثابتة"[9] ومن خلال هذه الحقيقة كان "الاجتهاد" فريضة كفائية من فرائض الإسلام، يجب على الأمة أن تخصص لـــه من علمائها من ينهض بفريضته، وإلا وقع عليها الذنب بكاملها.

ففي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ النساء[10]الآية 83. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ سورة التوبة[11] الآية 122.

لقـــد استقر الرأي في الحضارة العربية الإسلامية على أن الاجتهاد هو

أداة البعـــث الإســـلامي وطـــريق التجديد والإحياء، وأن العقلانية الإسلامية الجامعة بين العقل والنقل- هي أداة هذا الاجتهاد ، وعلى هذا الطريق سارت يقظتـــنا فـــي الحضارة الإسلامية الحديثة والمعاصرة، رافضة غلو التغريب والتفريط ودعاة التقليد للنموذج الغربي.

وفي ذات الوقت نؤمن بمبدأ وقيمة حرية الاعتقاد، فالإيمان الديني، في الرؤية الإسلامية، هو تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين ومحال أن يكون هذا الإيمان ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ سورة البقرة[12] الآية 256. وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ سورة الكهف[13] الآية 29.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ سورة الكافرون[14] الآيات 1-6

ومـــن خلال سردنا تاريخ المسلمون الأوائل في القرن الأول من عمر الإســـلام ففـــي فـــتوحات الإسلام أزيل سلطان الظلم والطغي والاضطهاد – البيزنطي- الذي استعمر الشرق وفتن أهله عن دينهم، حتى عندما كان دينهم هـــذا مذهـــبا مخالفا لمذهبه داخل النصرانية التي ينتسب إليها الجميع فحرر المسلمون ومعهم شعوب الشرق، وهي على دياناتها القديمة "تحرير الأرض" و"تحريـــر الضمير والاعتقاد" ، وبنوا "دولة حضارية" وتركوا الناس أحرارا في اختيار الدين الذي به يؤمنون. فكانت حدث في التاريخ لا نظير له.

نحن في العصر الحالي علينا أن نفكر تفكيرا استقلاليا، حسب المنظار والمعيار"المستقل" للإنسان والذي يعتمد على أساس مناهج الإسلام. لا على أساس الفكرة "التقليدية " والتي جعلتنا نتقيد باتجاهات ونظريات "أيديولوجيات" الغرب في كل شيء، فالنهضة الحقيقية في حياة الأمم لا تبدأ إلا بثورة معرفية علمية موجهة قبل كل شيء إلى فهم الذات (الذات الجماعية للأمة) وإعادة اكتشافها ونقدها، وإن العجز عن تحقيق هذه الثورة العلمية النقدية

يساوي التخبط المزمن. فالنهضات الحقيقية بدأت بالنظر إلى التراث والحياة والعصر بمنظار جديد، وبدأت بإعطاء الماضي والتراث لونا وبعدا وعمقا جديدا، فتنطلق الأمة بتراثها شابه من جديد. هكذا بدأت النهضة للحضارة العربية الإسلامية في صدر الإسلام، وهكذا بدأت النهضة للحضارة الأوروبية في عصرها. وهكذا اقتربت النهضة العربية الحديثة أن تنطلق من جيل الرواد قبل أن تجهض.

فـــالجمع بيـــن الثوابت والمتغيرات في حضارة الأمة الإسلامية وبين المعـــيار المتلقي، والنظرة المبدعة والتي سوف تحل محل (التلقي والتلقين) والاندمـــاج مـــع الـــذات الجماعـــية في الهوية الثقافية التي تتميز بمقوماتها وخصائصها وروحها وروح مقدساتها، تلتقي الحضارات وتتفاعل في منتداه، فعلـــى ســـبيل المـــثال: تلقـــى الإنسان الأوروبي في بدايات نهضته العصر الحضـــاري الإسلامي المتقدم والمتوقف عليه واستفاد منه دون أن يفقد هويته الأوروبية وهذه حقيقة جدير بتأملنا العميق؛إذ كيف يخشى علينا من المؤثرات الأوروبـــية؛ بيـــنما امتصـــت أوروبا- النهضة الكثير من عناصر الحضارة الإسـلامية؛ دون أن تتأسـلم. فلمـــاذا نخـــاف أن نتغرب؟ وبالمثل لقد تلقى المســـلمون الأوائل جديد الآخرين من أهل الحضارات القديمة دون أن يفقدوا إسلامهم وهويتهم. وهكذا تتلقى اليابان اليوم في العصر الحديث تزداد يابانية فـــي الوقت ذاته. تلك هي صورة العلاقات الإنسانية الدولية التي نريدها من ذاتنا والأخر أن يكون عالمنا "منتدى ثقافات وحضارات مستقلة" تتفاعل وفق تلـــك المعايـــير فـــيما هـــو "مشترك إنساني عام" وتتمايز وتختلف فيما هو "خصوصـــيات ثقافية وحضارية" وتقتبس المنافع وتتبادلها وفق معايير عادلة ليتحقق التقدم والتطور والأمن والسلام للإنسانية التي شملها الله تعالى التكريم والعـــناية وحملهـــا أمانـــة البناء والاستخلاف في إقامة العمران.تلك عالمية الإســـلام فـــي التفاعل الحضاري التي لا تجعله دين العرب خاصة ولا دين

جـــنس من الأجناس ولا دين لون من الألوان دون سواه هذه العالمية للإسلام تتوجه به إلى كل أجناس البشر، وتراهم بهذه الدعوى إحدى أمتين:

1- أمة الاستجابة: التي اختارت الإسلام اختيارا حرا، فالتزمت بأمانة إقامته إلى يوم الدين.

2- أمة الدعوة، التي على المسلمين أن يعرضوا عليها الوجه الحق للإسلام، لعل الله أن يهدينا إلى هذا الدين.

فالحضارات تتفاعل ولا تتصادم، وإنما تتفاعل فيما بينها، والذي يقوم بالصدام هو الأنظمة السياسية أو الاقتصادية التي تحاول فرض هيمنتها والدفاع بقوة وبكل الوسائل عن مصالحها الخاصة.

باختصـــار يمكن القول إن مقولتي (فوكوياما) و(هنتنغتون) "نهاية الـــتاريخ" و"صــــدام الحضارات" ، هاتين المقولتين ، لا يمكن أن تخطيا بأي احـــترام نظـــري يجعلهمـــا قابلتيـــن للنقاش لو لم يعبرا عن أهداف سياسية أيديولوجية ذات ارتباط عميق وثيق بالسيطرة القطبية الواحدة وهي السيطرة الأمريكية الراهنة على العالم.

فالحضارات لا تهزم لأنها لا تحارب ولا تتصادم بل تتفاعل.

هوامش الفصل الثاني:

---

(1) على أسعد وطفه، إشكالية الزمن ومأزق الثقافة العربية ، مجلة العربي، العدد (529) ، ديسمبر (2002) ،ص 18..

(*) تعددية في الشعوب والقبائل، وتعددية في القوميات، وتعددية في الأديان تعددية الحضارات ، فالتصور الإسلامي هو (التعددية، الاختلاف، والتنوع).

(2) سورة هود ، آيات 118 ، 119..

(3) سورة المائدة ــ آية 48.

(4) سورة الحجرات ، آية 13.

(5) محمد عمارة ، النظام العالمي الجديد ، " رؤية إسلامية " ، مجلة العربي، العدد (443) ، (1995) ، ص 32.

(6) نفس المرجع السابق ، ص 33.

(7) نفس المرجع السابق ، ص 33.

(8) نفس المرجع السابق ، ص 33.

(9) محمد عمارة، القرآن والاجتهاد والعقلانية المؤمنة، مجلة العربي ، العدد 446 ، يناير (1996) ، ص 561.

(10) سورة النساء . آية 83.

(11) سورة التوبة، آية 122.

(12) سورة البقرة ، آية 256.

(13) سورة الكهف، آية 29.

(14) سورة الكافرون ، آية 13.

الفصل الثالث

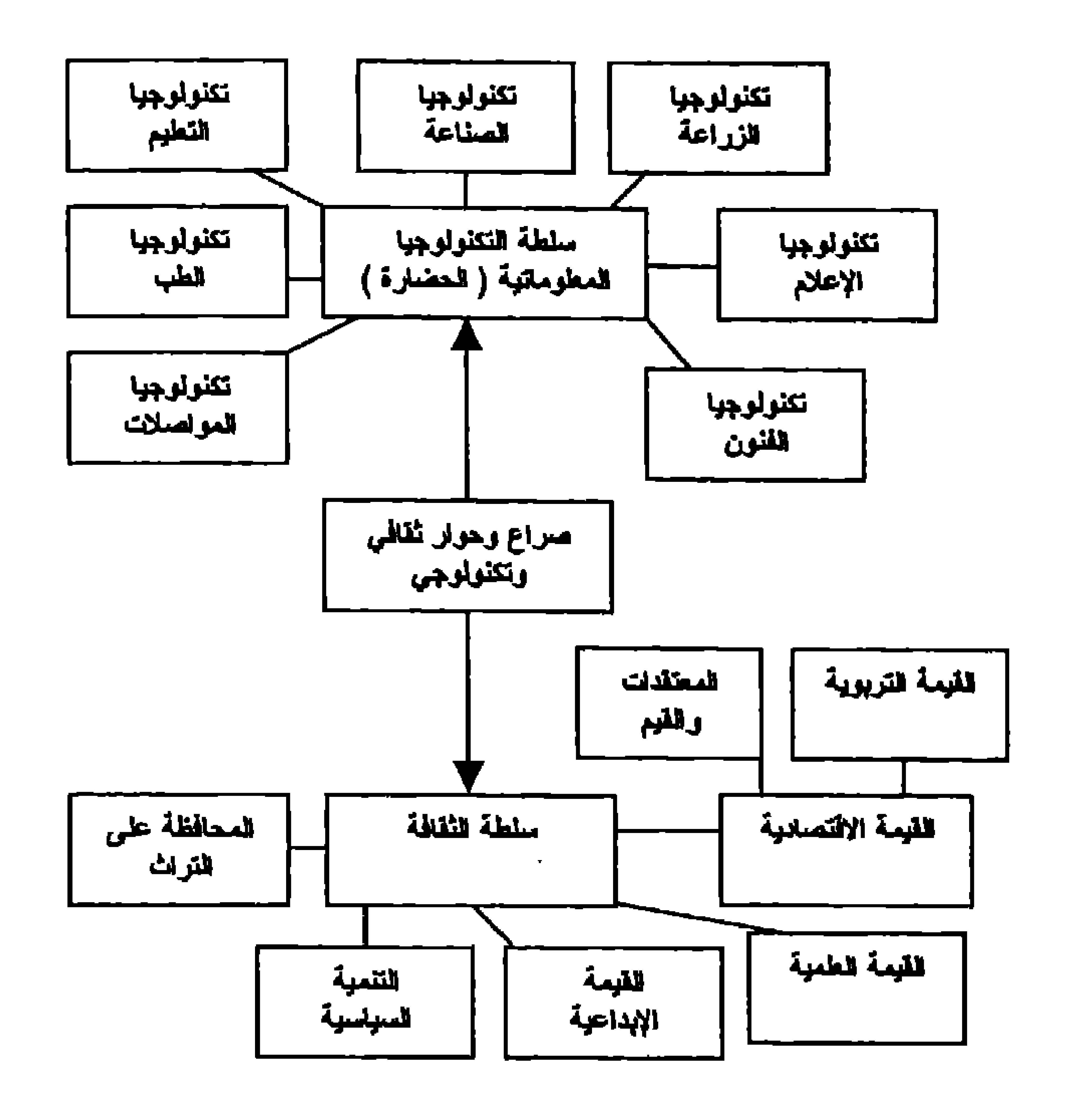
التفاعل التبادلي بين الثقافة والحضارة

إن الموضوع الأساسي لهذا الفصل هو أن الثقافة أو الهوية الثقافية والتي في أوسع معانيها (السلطة - الثقافة- الحضارة) هي التي تشكل درجة التماسك والتفكك والصراع في عالم عصر المعلومات أي في القرن الحادي والعشرين، أي في عالم ما بعد الحرب الباردة.

لأول مرة في التاريخ الإنساني أن السياسة العالمية هي في آن واحد متعددة الأقطاب ومتعددة الحضارات وإن التحديث مختلف عن الغربنة.

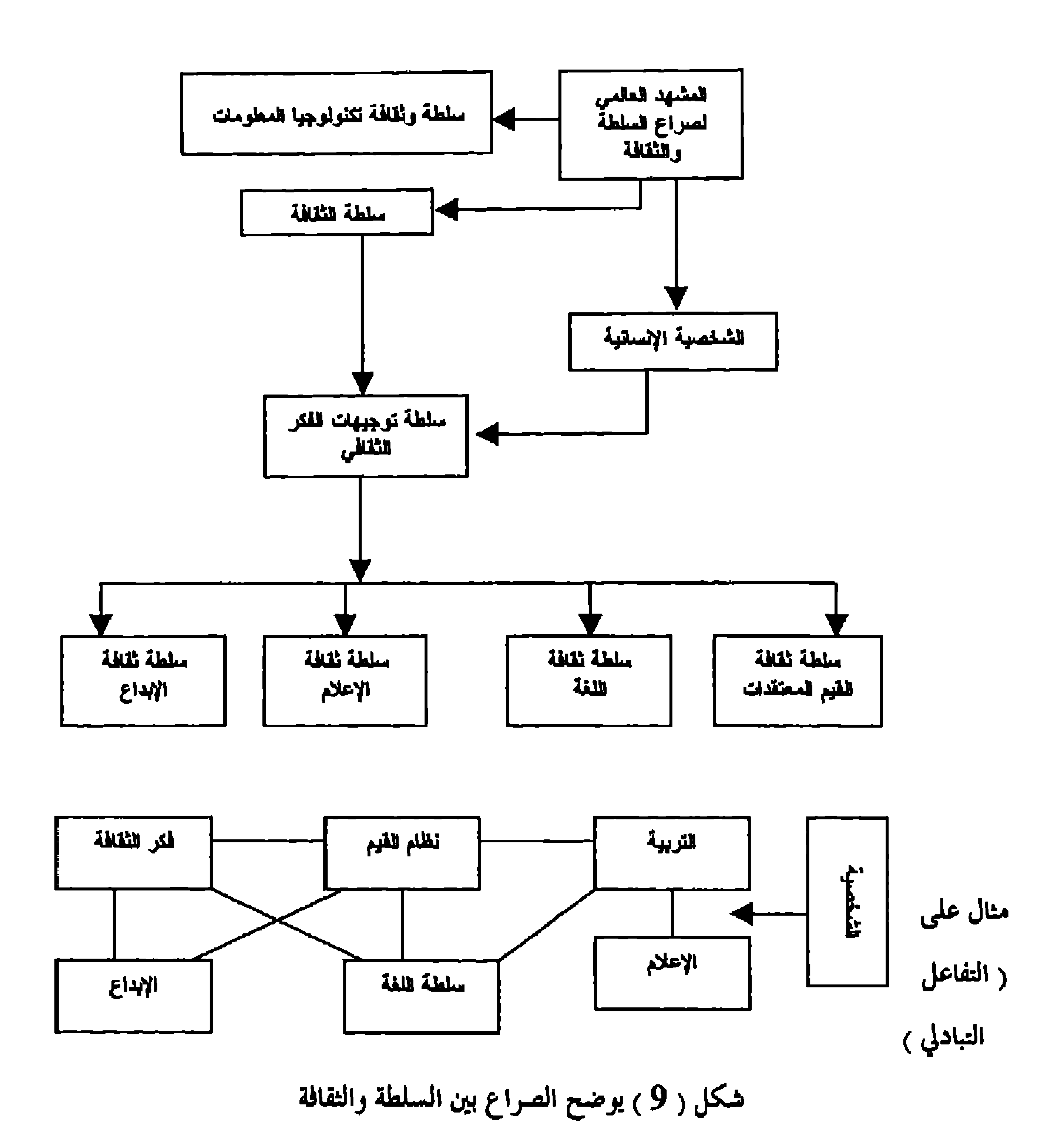
سلطة الثقافة وسلطة الحضارة: (التفاعل التبادلي)

- **الثقافة:** هي ما يتبقى بعد زوال كل شيء (فنون، معتقدات، قيم، سلوك، قوانين).
- **المعلومات:** هي المورد الإنساني الوحيد الذي لا يتناقص بل ينمو مع زيادة استهلاكه.
- **الحضارة:** هي نتاج مادي ملموس (زراعة، مواصلات، طب، صناعة، وسائل تعليمية، إعلام، اتصال...).



شكل (8) يوضح تفاعل تبادلي بين سلطة الثقافة وسلطة الحضارة

الصراع بين (السلطة - والثقافة) التفاعل التبادلي



شكل (9) يوضح الصراع بين السلطة والثقافة

إن الثقافة هي الإطار والمضمون الفكري الذي يحدد للمجتمع أو الأمة سماته المميزة، هذا الإطار وذاك المضمون يتنوعان بين طياتها السمات الاجتماعية المتوارثة والمستجدة، وتقيم حدودا معينة بينها، هي تبدأ من نقطة ما وتنتهي إلى هدف مرسوم، ولهذا تعتبر الحضارة ثمرة النشاط الفكري الخلاق والمرن لدى الإنسان الذي يفرز أنماطا معينة من السلوك يلتزم به الناس، في أعمق معانيه والناجم عن عادات جماعية وليدة.

فالحضارة المادية هي دوما الإنتاج المباشر للعقل الباطني، وهي تتألف من إنجازات ملموسة بينما الثقافة العقلية (اللامادية) تتألف من السلوك بذاته ظاهرا وباطنا في آن واحد، حيث تتضمن العلاقات المتشابكة لكل أفرادها، هذه العلاقات تمثل الصورة العريضة المتشابكة والمتكاملة داخليا في أجزائها طبقا لبعض المبادئ الأساسية السائدة أو المنظومة المعلوماتية التي تكمن خلف كل صورة فهذه هي المسلمات الحضارية.

يقول (هاري ل. شابيرو) : "إن كل حضارة ترسي طابعها على الفرد الذي يكبر في ظل تأثيرها، وتكون شخصيته خليطا نابعا من تركيبه الجسدي والعصبي الفريدي، ومن خلال احتكاكه بالعالم الحي والآخرين أيضا، وأن كل فرد نموذج عام تؤطره الحضارة والمجتمع، ورغم ذلك فستبقى له فرديته الخاصة التي لا تستطيع الحضارة أن تطمسها.. فالحضارة كما تنمو وتتطور فإنها أيضا تهدم وعندما تهدم فإن بناء جديدا يشق طريقه في الحياة، فإن هذا الإبداع يعتمد على التعليم وليس على الغريزة"[I] انظر شكل (9).

فالإنسان هو الذي أوجد بيئته وطورها ونمى البراعم القابلة للتطور، وكان من أسباب عمليات التطور الحاجة الماسة والملحة للشيء، هي التي دفعت الإنسان إلى الابتكارات الجديدة وتنميتها، وتعزى سرعة التطور إلى عمليات الاقتباس المبنية على أفكار حضارية وأسس اقتبست من حضارات

أخــرى أرفـــع نموا وتطورا، ولم تترك الحضارة كما هي، ولكن يؤخذ منها الأشياء التي تتناسب مع مفاهيم وعادات وتقاليد المجتمع بسمات جديدة، ذات معانـــي تخـــتلف فـــي مضمونها وشكلها عن سابقتها، وهذا ما تعكسه حاليا مضـــمونها وشكلها عن سابقتها، وهذا ما تعكسه حاليا التنظيمات الاجتماعية والسياســـية، والممارســـات الدينـــية، وهي تعتبر صلب الحضارة وامتدادها الطبيعـــي ضـــمن إطار تعريفها العام، ورغم التفاوت في الشكل والمضمون الخـــاص فـــي حضارة كل مجتمع، إلا أنها تتقارب في ضوء إطار المفهوم العـــام، وكان لهذا المفهوم ميزة عظيمة استطاعت إعداد البشر إعدادا فكريا مبنيا على أسس عقلية واحدة والتعايش ضمن مجتمع حضاري واسع، وهكذا حســـب الـــنظام الاجتماعي يتكون من المجتمع، وكان لتعدد التجمعات تمايز أدى إلـــى تفاعل الحضارات القديمة التي أفرزتها المجتمعات، وتمخض عنها بـــروز مفاهيم وتقاليد ومغايرة ومتنافرة، مما أدى إلى الاقتتال أو الحروب، الذي ألحق الدمار بالتراث الحضاري وأدى إلى تفتيت أطر المجتمعات ولكنه من أهم العناصر الأساسية للتقدم البشري، مما غير الطبوغرافية البشرية في العـــالم المعاصـــر. فقـــد لعبت الظروف الجغرافية والاجتماعية (الحضارة المادية) والثقافة اللامادية) دورا بالغا الأثر في تمييز النتاج الثقافي بميزات خاصة اتسمت بها الأجيال المتعاقبة في كل مجتمع أو أمة وأبرزها التغيرات فـــي الســـلوك الاجتماعي، وفي ظروف الحياة. فالتغيير في البيئة الجغرافية، كالـــزيادة والنقصـــان في عدد السكان والهجرات إلى بيئات جديدة والكوارث الطبيعـــية، الحوادث الفردية، والجماعية، والفيضانات، والقحط، ,الأوبئة وكل هذه التغيرات المفاجئة تنعكس على أخلاق وسلوك الفرد والمجتمعات، تتبدل فـــي مفاهيمه وعاداته وتقاليده، وتخلق سمات وسلوك ذات مضامين ومناهج خاصـــة، لضـــمان الســـيطرة على هذه الظروف ومقاومة نتائجها الملحة في انحطـــاط الإنســـان ، ومن هنا يقيم الإنسان دفاعات خلقية قادرة على حمايته ومقاومـــة كل تغير جديد يطرأ عليه، وهذا يرجع إلى تنمية الفعاليات الجيدة.

وبتر التي لا تقدر على تنمية طاقات الإنسان وقدراته.

فالمجــتمع هو الذي يحدث الثقافة ويؤطر سماتها، ضمن فاعلية التنشئة الاجتماعــية، فــي ضــوء التفاعل في الجماعات الأولية كالأسرة والمدرسة وجماعــة الــرفاق، كما للجماعات الأولية " الجماعات المركز، لها أثر بالغ الأهمــية فــي تحديــد هوية الفرد ومركزه في المجتمع.. ولضمان التوازن الاجتماعــي وقــت حدوث الكوارث، عملت المجتمعات المتقدمة على وضع الخطط زمنية ضمن التوقعات التي من الممكن أن تطرأ في المستقبل، بحيث إن هــذه الخطــط تســتطيع الســيطرة على المفاجآت التي تخل في توازن المجــتمع، وتحــط من إمكانياته وفاعلياته. فمجتمع اليوم يختلف عن مجتمع الغــد، حيــث نجــد تــرابطا وثيقا بين القطاعات الفكرية والمادية لمواجهة التطورات التي تنتج بين القطاعات الفكرية والمادية لمواجهة التطورات التي تنــتج عــن الطبــيعة من كوارث، أو مواجهة ما يصنعه الإنسان ضد أخيه الإنســان ، فكــل هــذه الحســابات أخذت بعين الاعتبار للمواجهة وتخطي الصعوبات في تلك الحضارات والمجتمعات المتقدمة، فهل مجتمعاتنا العربية والإســلامية وضــعت في خططها الثقافية والحضارية تلك التوقعات التي قد تطرأ في المستقبل؟

وإذا حللــنا الأشــكال (8)،(9) لمعرفة العلاقة بين التراث الثقافي والحضــاري فإنــنا نجــد أن الــتطور في الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية والتغير في هذه الأوضاع يسيران من فترة زمنية إلى أخرى، وتزداد في السرعة والتطور وخاصة في الوقت الحاضر، هذا يرجع إلــى الأساليب المتبعة الجديدة والمتطورة التي تؤخذ في كل حقبة من الزمن، وأيضــا الــتقابل بيــن المحكات والعناصر المادية (الحضارة) واللامادية (الــثقافة) كمــا يوضــحها الشكل السابق(9)، خاصة في ضوء عمليات التفاعل التبادلي والابتكار، فهذه المبتكرات الصناعية (التكنولوجيات) تصبح

على نطاق واسع من المعرفة ويصبح سهلا تحليل محتوياتها لدى جميع فئات المجــتمع أو الأمـــة. (إلا أن التجمع يتغير ويتطور في دوافعه وفي غاياته فيتخطى مرحلة التعدد إلى مرحلة الدوافع التجمعية، أن ذلك هو دلالة، إلا أنه لا يبرهن، إلا أن التجمع يتحرك نحو اكتشاف وظيفته الحقيقية في المجتمع[2]" ومـــن الســـهل حـــدوث الحراك الاجتماعي في المراكز والفئات الاجتماعية، ويصـــبح من السهل التغيير في التفكير والمفاهيم والمعتقدات والقيم، فتصبح عنصرا فعالا في عمليات التطور والتجديد والابتكار.

فالمحافظـــة على شخصية الفرد أو دميته فهذا يعزز معنى قيمة الفرد ويـــبعده عن الظواهر القديمة ويخلق بؤرة متفاعلة اجتماعيا ونفسيا توفي في نهايـــة مهمات الحركة الدينامية التي ترفض الحركة إلى الواقع القديم، وتضع بـــدلا منها الأفكار التي تخلف أطر تنظيمية لها الأولوية في عمليات التفاعل والابـــتكار وبـــناء واقع جديد متمشيا مع المركب الحضاري، ممتطيا الساحة الطبيعـــية للمجـــتمع بأفكاره وأدوات إنتاجه (الثقافة والحضارة)، فكلما تقدم المجـــتمع أو الأمة في الرقي والازدهار أصبحت الأفكار القديمة بالية وغير متمشـــية مـــع مسلكيات المجتمع الحضاري المتقدم. وأن استمر المجتمع في العطـــاء العصـــري الذي يضم صهر الطاقات وتفاعلها الملموس في المناخ الحضـــاري المتقدم ضمن مفاهيم استقطاب عمليات جديدة للمعرفة مبنية على الواقـــع العصري الحالي وتعني غير الملموسة التي يشعر بها الفرد في ذاته فـــيقرر بأن التنشئة الاجتماعية هي التي تفرض الأنماط الثقافية والحضارية المناســـبة التي من خلالها تعكس الاتجاهات الثقافية ضمن نظرية التطبيع، أن شخصـــية الكبـــير تشـــكل بأنماط التطبيع الاجتماعي في الطفولة والمراهقة وتعكس هذه الأنماط بدورها الثقافة. فقد أكد (كلهون) بتعريفه للثقافة بأنها: "وســـائل الحـــياة المخـــتلفة التـــي توصل الإنسان عبر التاريخ، الظاهر فيها والمتضمن، العقلي واللا عقلي التي توجد في وقت معين، والتي ترشد وتوجه

سلوك الأفراد في المجتمع[3]؛ حتى يصبح المجتمع أو الأمة متمشيا مع معتقدات المجتمع المتقدم حضاريا. وتسهيل مهمة الإنتاج والازدهار في المجتمع وتقدمه وتفاعله مع المجتمعات الأخرى ومن الصفات الحميدة في الفرد أنه يمتاز بصفة الديناميكية في الدور الذي يقوم به حتى يستطيع التفاعل مع الأخبار الواردة عن التنبؤات المستجدة للاختراعات الحديثة في مجال التخصص وضوحا في عمليات التغيير الاجتماعي ليستطيع الوصول بحيث تعزز التكنولوجيات والتقنيات مكانة الفرد والمحافظة على مفاهيم التقدم. فإذا كانت سلطة الثقافة تتميز بقابليتها للتغير كما تتميز بما لها من قوة فعالة وديناميه دافعة فلابد من دراستها في أبعادها التاريخية – فضلا عن التعرف على العلاقات القائمة بين العناصر المكونة لها ولهذا نعني بقول آخر، إننا حين نعني بدراسة عناصر الاستمرار والتغيير في المجتمع أو الأمة ، وحين يكون موضوع مناقشتنا (سلطة الثقافة وسلطة الحضارة) فإننا لن نقتصر فقط على دراسة المنظمات الاجتماعية. التي تتحكم في ردود أفعال الإنسان (تجاه الأعضاء الأخرى في المجتمع أو الأمة الذي ينتمي إليه. ولكننا نعني أيضا " بمظاهر السلوك الاجتماعية التي تقيم حدود منظمات اجتماعية معينة كاللغة والعلاقة بين اللغة ومظاهر السلوك والعلاقة بين الثقافة والشخصية ونظام القيم الذي يترك دلالات واضحة على نطاق السلوك المقبول عند أي شعب من الشعوب[4].

فالجسم الاجتماعي والنفسي يجب أن يكون خاليا من الأمراض الاجتماعية، وأن تكون له القدرة على الفرز المنظم في وحدات (الثقافة والحضارة) وفروعها والأخذ بعين الاعتبار الفعاليات الحضارية، التمشي مع التطورات المستحدثة في الساحات العالمية (الثقافية والحضارية) "ليصبح أفراد المجتمع لهم القدرة في التفاعل مع المجتمعات الأخرى ولا يمكن أن تصبح الجماعة قوة فعالة إلا بقدر ما تعرف كيف تكون هيئة وسيطة أي بقدر

مـــا تكـــون حـــياتها الخاصــــة قائمة على المشاركة وبقدر ما تسهم في حياة الجماعات التي تحيط بها[5].

فـــإن المنهج أو الأسلوب المتبع والمتفاعل في عمليات التفاعل التبادلي بيـــن الـــثقافة والحضــــارة والإنـــتاج التكنولوجـــي المتطور بين المجتمعات المعاصــرة أمر ضروري لاستكمال أدوات الإنتاج التكنولوجي والخروج من المـــأزق المبنـــية علـــى الفكر الفردي، فإن لتعدد العقول ذات أهمية كبرى للوصـــول إلـــى أرقـــى المفاهيم الثقافية والحضارية المتطورة، حيث إن كل مجـــتمع أو أمة يملك الطاقات التي يستطيع من خلالها وضع تخصصه لشغل المركـــز المناســـب، يصـــبح مـــتكاملا فـــي عناصره وقادرا على مواصلة الاســـتمرار في عمليات الإنتاج والابتكار. فالعلاقات الدولية بين المجتمعات والأمم ذات أهمية كبرى، ذلك لأهداف الوصول إلى مفاهيم التفاعل والتبادل في الأفكار والتكنولوجيات الحضارية المتطورة لتستطيع المجتمعات أو الأمم رسم صور للمستقبل، لتغيير كثير من النظم والظواهر الاجتماعية واستبدالها بمفاهـــيم جديدة قادرة على النمو والتطور، ومن ثم نتاج طاقات فكرية قادرة علـــى فهم التكنولوجيات المتطورة، حيث إن الحضارة في أي مجتمع أو أمة هـــي التـــي تحدد مسلكيات الأفراد وأيضا تحدد مستوى الفعالية لجميع فئات المجـــتمع." فـــإن سيطرة المجتمع على العناصر التي تكونه ذات أهمية من الناحـــية الثقافـــية ومـــن الناحـــية القانونـــية فالمجتمع الكلي هو الذي يحدد اختصاصات الجماعات الوظيفية حتى من الناحية الاقتصادية أحيانا"[6].

ولكـــن كثـــير مـــن الدراسات أخذت أساليب التعمق في الحضارة وفي فروعها والأساليب التي يجب أن تؤخذ على تثبيت هذا المفهوم متدرجة بالوقائع العلمـــية القادرة على انتهاج التغيير والإفصاح عن الخطة المرسومة والسير بها لبلوغ الأهداف الموضوعة والمنطقية. فالتغير الاجتماعي يعني التغير في البناء الكلي والهيكلي في المجتمع يؤكد (سوروكن) أن سمات الثقافة الأوروبية تنتقل

إلـــى الـــثقافة البدائية، كما تنتقل بعض سمات الأخيرة إلى الأولى" حيث إن أي ثقافة لابد أن تتدرج في التكوين من نقطة الصفر إلى أعلى درجة في التراكم في فـــترة زمنـــية معينة، ثم في نهج جديد"[7] أخذ العناصر الجيدة التي تتمشى مع الواقـــع، ولا تترك أثرا لتزايد المشاكل، وتتم عمليات التعديل ثم الإنتاج المبتكر. أن قـــوة المجـــتمع تتمـــثل فـــي المعرفة العلمية وتقاس النسبة دائما بالمقياس الحضاري التي توصلت إليه المجتمعات المعاصرة إلى المجتمعات المتخلفة، أي تقـــاس بنســـبة تقدم الحضارة المتطورة والاكتفاء الذاتي، وأيضا تقاس بالمعرفة الثقافـــية التـــي توصلت إليها في الأزمنة القديمة والحديثة أي مجموع المنتجات الماديـــة (الحضارية) واللامادية (الثقافية)، " حيث إن التغير هو العملية التي يتغـــير بواسطتها نظام المجتمع الحالي في نواحيه الاجتماعية الحالية والسياسية والمادية من شكل إلى شكل آخر"[8].

وحتى تستطيع المؤسسات والهيئات والمراكز الاجتماعية إيجاد صيغة التعاون المناسبة والتي تضمن سير المجتمع نحو عمليات التغير الكامل حتى المجـــتمع أو الأمـــة " يصـــبح متزودا في جميع مؤسساته ومراكزه وهيئاته بالأفكار الحية لضمان حيوية استمرار المفاهيم الاجتماعية القادرة على النمو والـــتفاعل لوضع أسس جديدة مساوية لمفاهيم المجتمع، ليستطيع القدرة على الاســـتمرار والـــتجديد والابتكار ضمن عمليات النمو المضطردة التي تحدث علـــى تفـــاعل الصـــراعات في المبادئ القومية العادات والتقاليد، وفي أثناء الصـــراع الإنســـاني، وفناء العناصر الإنسانية في غيرها، وفي خلال تبادل الـــنفوذ الـــذي يصـــبح اختلاط الأجناس وتأثير البيئات المختلفة ينمو النظام الاجتماعـــي ويـــزداد تعقيدا، وليس ذلك هو كل شيء، بل أن النشاط النفسي للفـــرد يـــزداد حـــدة كمـــا تزيد خبرته بالحياة الواقعية، ومقدرته على إيجاد الأســـلوب المنطقي لتخطي الأخطاء وتبدو بوضوح شخصية الرؤساء الذين يجعلون السلطة في أيديهم. ويؤدي ازدياد قيمة الأفراد بطريقة مضطردة إلى

الـتجديد فـي المخـترعات العلمية وفي التعجيل بها، كما يؤدي إلى كسب المعلومـات العقلية، وهذان الأمران معا هما أسس المجتمع، على الرغم أنه يمـيل مؤقتا إلى الوقوف في سبيلهما، ولكنهما ينتهيان بتحرير الفلسفة والعلم والفـن مـن سـيطرة الدين، وسيظل الحال حتى تقضي شخصية الحاكم إلى تغيير عميق في السلطان نفسه"[9].

حيـث إنه ليس من المعقول أن تقتصر الثقافة في تفاعلها التبادلي مع الحضارة على أداء دورها التقليدي في حفظ التراث الثقافي فحسب.

إن أدوات التغـير الاجتماعـي تلعـب دور كبـير في عمليات البناء الاجتماعـي، إلا أنـه في أي موقف تفاعلي اجتماعي نستطيع أن نكشف ثمة أربع عوامل، أو ظروف هامة تعتبر عواملا أساسية في كل تغير اجتماعي. "البيـئة الطبيعية الجماعة الإنسانية الموجودة فعلا، الثقافة السائدة والمظاهر البيولوجـية والسيكولوجية للناس"[10] ، ذلك فإن أي تغيير في عامل أو أكثر مـن هذه العوامل سوف يثير تعديلات توافقية في الأنساق المترابطة للسلوك الاجتماعي، وبهذا تبدأ في الحركة سلسلة مترابطة من التغيرات الاجتماعية. فالـتراث الحضاري لأي مجتمع إنساني حافل بالتركيبات المتنوعة، وتحمل كـل تركيبة ظاهرة معينة تدل على مدى فعالية هذه الظواهر في إنتاج أطر المفهوم الثقافي الحيوي لإرساء معالم التغير والمقدرة على النمو للوصول إلى أدق المراحل من المعرفة للمخلفات القديمة أو تعديلها أو إنتاج أمثال لها ذات طـابع ثقافـي معاصر يتسامى مع التقدم العلمي والتكنولوجي لإنتاج أدوات مؤدلجة ومتطورة، تستطيع أن تفي بكل مستلزمات ومتطلبات العصر إذا لزم أحـداث أي تغـير فـي أي وحـدة من وحدات الثقافة والحضارة وفي كل فـروقهما، فإنه لابد من الدراسة المتكاملة للبيئة الإنسانية، حيث إن الظروف الطبيعية تحمل في جوانبها تغيرات كثيرة تختلف من مجتمع إلى مجتمع آخر فمـثلا نجـد أن بعـض المجـتمعات تعيش على الأنهار في ري الأراضي

الزراعية على الينابيع والأمطار وهي الأخرى أقامت حضارة. كذلك تختلف المجتمعات الواقعة على خط الاستواء عن المجتمعات الواقعة في منطقة القطب المتجمد الشمالي في العادات والتقاليد، وفي وسائل المعيشة، وفي أساليب العبادة مثل "الطقوس- العقائد- الخرفات" أيضا فإن مناهج الحياة عند هؤلاء يختلف عن المجتمعات الأخرى، حتى في تركيب البناء الفسيولوجي للفرد من ناحية المزاج ونوعية الكلام المتبع في المجتمع، لون البشرة، أيضا تختلف ثقافة المجتمع التي معظم أيامها ليل دامس تستعين في حياتها اليومية على الأضواء الاصطناعية عن نهج الحياة الطبيعية في شمولها. إذن لكل مجتمع ثقافة خاصة بن تتمشى مع مفاهيمه الخاصة وتتناسب مع مطالبه اليومية، ولهذا فالبيئة الطبيعية ذات تأثير كبير في مسلكية الأفراد، وهذا يعطي الفرد القدرة على التكوين النفسي والبيولوجي الخاص الذي يختلف كل الاختلاف من مجتمع إلى مجتمع آخر حيث إن ابن الشرق الأقصى يختلف عن ابن الشرق الأوسط في ملامح الوجه ولون البشرة واللغة والمسلكية التي ينتهجها كل من المجتمعين مختلفة كل الاختلاف، كذلك المجتمعات الأوروبية الغربية تختلف عن المجتمعات الأوروبية الشرقية في المفهوم العام والخاص، وأيضا يختلف معظم أفراد المجتمع كلما انتقلنا من مدينة إلى مدينة أخرى أي داخل نطاق الحدود السياسية في نفس المجتمع. بالإضافة إلى ذلك أن التركيب النفسي والبيولوجي للأفراد يختلف كل الاختلاف من مجتمع المدينة إلى مجتمع القرية.

إن بعث الحياة في التراث الثقافي، بحيث يشارك بالفعل في معارك الحياة المعاصرة ويساهم في إعادة بناء التاريخ الإنساني من القدرة والاستيعاب والفهم واستخدام تكنولوجيات العصر الحالي وخاصة تكنولوجيا متغير المعلومات وتكنولوجيا التعليم وتكنولوجيا الإعلام.

والوسائط المتعددة الأخرى. بدلا من جعل التفاعل بين الثقافة والحضارة

فـــي مجتمعـــنا العربي يدور حول الأسئلة العقيمة ذاتها مثل أصالة ومعاصرة المحلـــية والعالمـــية. ماذا انحدر إلينا من القرون الماضية وماذا وفد علينا من المجـــتمعات الغربية؟ لقد آن الأوان لتجاوز هذه البديهيات الثقافية والحضارية فـــي التفاعل التبادلي أو الصدام. فما من ذي عقل يرفض أن نجمع بين أصالة هويتـــنا الثقافية والحضارية ومعاصرة حياتنا الحالية، وما في أحد يقبل أن نقف ضائعين تائهين نصطنع تلك الحيرة بين اللاتاريخ واللاحاضر.

لقـــد حســـم غيرنا من المجتمعات والأمم هذه الأسئلة المفتعلة، ها هي الـــيابان رائدة تكنولوجيا العصر استسلمت اليابان ولم تستسلم اللغة اليابانية، وهناك حركة في الصين وهي حركة نشطة لإعادة البناء الثقافة الصينية على أسس التعاليم الكونفوسيوسية. وهذه ماليزيا، وسنغافورة، والفليبين وأندونسيا، وكوريـــا وتايوان وغيرها، لقد شددت كل هذه المجتمعات على أن زمن آسيا هـــو علـــى طريق البروز على المستوى الكوني، فقيم الأسيويين الاجتماعية والأخلاقـــية والســـلوكية والفلســـفية والدينية لا تقل أهمية عن قيم الحضارة الغربية إن لم تتفوق عليها في جوانب عدة.

وإن التحديـــث ليس تغريبا، وإذا كان هناك من صدام بين الحضارات كمـــا يدعـــي هنتنغـــتون، فـــإن الآسيويين سيلتقون حول حضاراتهم القديمة وسيعملون بكل قواهم على تحويل "آسيا للآسيويين".

يلاحظ أن توازن القوى بين (السلطة- الثقافة- الحضارة) أخذ في التغير:

فالغـــرب يتقهقر في نفوذه النسبي، والحضارات الأسيوية تقوم بتوسيع قواعدهـــا الاقتصادية والعسكرية والسياسية، والإسلام يتفجر سكانيا مصحوبا بنـــتائج عدم الاستقرار للدول الإسلامية والعربية وجاراتها والحضارات غير الغربية بشكل عام وهي الآن تؤكد مرة أخرى قيمة ثقافاتها.

ما المتوقع من خلال هذه الملاحظات؟ هناك أطر عالمية أساسها التنوع

في (السلطة- الثقافة- الحضارة) أخذ في الانبثاق. مثلا.

هناك مجتمعات تتقاسم روابط ثقافية تتعاون مع بعضها البعض، ومجتمعات تجمع نفسها حول الدول الأساسية الرائدة الكبرى من نفس حضارتها.

لذلك أرى أن دعاوى العالمية الإنسانية الغربية والتي يطرحها الغرب تضعه بشكل متزايد في صدام مع الثقافات الأخرى وليس صدام الحضارات كما يقول:

(صموئيل هنتنغتون) في كتابه صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي.

الصراع مع الثقافات الأخرى وخاصة وبشكل أخطر مع الإسلام والصين.

فالصراع الأكثر انتشارا وأهمية وخطورة لن تكون بين طبقات اجتماعية (غنية وفقيرة) أو جماعات أخرى محددة على أسس اقتصادية ولكن الصدام سيكون بين شعوب تنتمي إلى هويات ثقافية مختلفة.

وعلى الرغم أن (هنتنغتون) وظف مفهوما مرنا للحضارة والثقافة وهو قد استخدمها بنفس المعنى وقال "الثقافة حضارة- والحضارة ثقافة" إلا أنني أرى أن الحضارة نتاج مادي تخدم الإنسانية جميعها بغض النظر عن الثقافة مثلا (الأدوية، الوسائل التعليمية والزراعية الصناعية) لكل الناس. بينما الثقافة تعني (العادات- التقاليد العيادات الطقوس والقوانين والفنون تختلف من مجتمع إلى أخر فقد ترتبط بالدين أو نظرية فلسفية أو اجتماعية أو تربوية... فالثقافة تشمل خصوصيات المجتمعات.

(فالصدام بين الثقافات وليس الحضارات) والتفاعل بينهما تبادلي.

فالحضارة لا تحدد بعناصر موضوعية أساسية (كالدين- واللغة والعبادات والعادات والتقاليد...) وإنما تحدد الحضارة بالإنتاج المادي

والمتطور الذي يقدم للإنسانية ككل. فالحضارة هي القوة الخارجية- والثقافة هي القوة الداخلية للإنسان. فالثقافة هي الأنا من الداخل (المشاعر الأحاسيس الأفكار..) والحضارة هي الأنا من الخارج (الدواء الغذاء- السكن- الركوب- الوسائل التعليمية).

حقائق مزعجة:

الصراع بين السلطة والثقافة هي قضية (ثقافية) في المقام الأول ولإيجاد الحل يجب على الإنسان يجدد عتاده المعرفي تأهيلا لشرف الحديث عن الثقافة وهو الحديث الذي يحتاج إلى معرفة نظرية وخبرة عملية في توظيف هذه المعرفة فقد صارت السلطة ثقافة إن لم تكن الثقافة سلطة في حد ذاتها في عصر المعلومات وصناعة قائمة بذاتها الأمر الذي أصبحت معه إشكاليتها لا تدين إلى أحاديث الصالونات- والسهريات وسجال المنتديات والرحلات ورؤى المقاعد الوتيرة وتكرار الجدل العقيم حول العموميات والأمور التي صارت في حكم البديهات من قبيل: أصالة معاصرة ثقافة النخبة أو الصفوة أو ثقافة عامة، تعريب التعليم أو ما شابه...؟

ماذا يجري حولنا؟ نحاول أن نلتقط ما يجري حولنا على الساحة العالمية الثقافية- المعلوماتية؟.

ما هذا الذي يشاع عن حال أهل (السلطة- والثقافة) هذه الأيام؟ ما الذي أدى إلى انهيار الاتحاد السوفيتي؟ بدون حرب أو انقلاب؟ أو تدخل أجنبي؟ أو بسبب تضليل الحكومة الروسية لشعبها في عصر المعلومات؟.

هل نصغي جيدا لهؤلاء الذين يرددون أن شبكة الإنترنت وما تنقله من معلومات عبر الحدود ستكون قادرة على إسقاط الأنظمة الدكتاتورية والاستبدادية؟ وما الجدل الذي يدور حول العولمة كسلطة ثقافية؟ وعلى ما يزيد عن (1500) مؤتمر وندوة؟ تلك الظاهرة وبعد ثورة المعلومات والاتصالات

هــل هي دين الرأسمالية الجديدة أو نوع منظور من الحتمية الاقتصادية أو لك فراغ الحتميات وبعد أن خلا بزوال النازية والفاشية والشيوعية؟.

ومـــا الذي تتردد حول مجتمع الوفرة؟ في الوقت نفسه الذي تشكو فيه مـــناطق كثيرة من عالمنا ندرة المياه، وندرة الغذاء، وما صلة ذلك بحروب المــواد الغذائية في إطار اتفاقية الجات حرب الموز الكاريبي والأرز الياباني والأرز الإيراني والذرة الفلبينية والبطاطس المصري والتونة المكسيكية؟.

ومـــا الذي يدور من سجال حامي الوطيس الذي تشهده ساحة اتفاقيات الجـــات حـــول أمور الملكية الفكرية؟ وما هذا الموقف الصلب الذي اتخذته فرنســـا ضـــد حليفها الأمريكي القديم؟ حتى منحت الاستثناء الفرنسي حفاظا علـــى صـــناعة الثقافة الفرنسية؟ والسؤال الذي يطرح نفسه ما مصير غير المســـتثنين؟ بعد أن أعلنت أمريكا عن نيتها لتطبيق عقوبات رادعة على كل من تساوره نفسه المساس بحقوق الملكية الفكرية لصناعتها الثقافية؟ من ترجمة الكتب إلى التوزيع الموسيقي واستخدام برامج الكمبيوتر التعليمية والترفيهية لقد شـــرعت الولايات المتحدة بالفعل في التطبيق هذه العقوبات فلوحة بغرامة على الصـــين بمقدار (3) مليارات دولار إن لم تتخذ الإجراءات الكفيلة بمنع نسخ سلع الثقافة الأمريكية من شرائط الفيديو وأقراص السماردي ومستثنى من ذلك إسرائيل أكبر متلق للمعونة الأمريكية حيث تشير الإحصائيات أن إسرائيل من أكثر دول العالم نسخا لبرامج الكمبيوتر.

وما هذا الذي يجري على جبهة اللغة؟ وما الذي زاد من شدة قلق أهل التربـــية الأمريكـــية؟ عـــندما صدمتهم البيانات الإحصائية عن أداء أطفالهم الابتدائي مقارنة بأقرانهم في اليابان والصين ودول جنوب شرق آسيا لقد أكد الـــتربويون الأمريكـــيون تخلـــف أطفـــالهم في المهارات الأساسية في اللغة والحساب أمر ذا صلة وثيقة بأمنهم القومي وهذا يذكر.

بقلقهـــم بتهديد أمنهم القومي على أثر تفوق الاتحاد السوفيتي في بداية

سباق الفضاء عندما نجح في إطلاق قمر صناعي (سبوتنيك) (1957) إنه شان تربية عصر المعلومات بعد أن أصبحت التربية مرادفة للتنمية.

- مـــا هـــذا التقابل العجيب بين تكتل الكبار وبلقنة الصغار من يوغسلافيا الســـابقة إلى أوندونيسيا؟ وهم يحومون حاليا على شمال العراق وجنوب السودان والجزائر وتقسيم مصر؟ هل نحن في طريقنا إلى عالم (1000) بلـــد كمـــا توقـــع البعض وكيف يتوافق هذا مع دعوى العولمة (كسلطة ثقافية) وحلم القرية الكونية الواحدة؟

- مـــاذا جرى لنا؟ سنحاول أن نحلل هذا بحديث تشظى النصوص ممزوجا بآلام الجروح.

إن العرض السابق يتضمن حقائق وفقرات مزعجة لنا؟ ماذا جرى لنا؟ ربما يرى البعض فيها نزعة تشاؤمية متطرفة وإلى هؤلاء نقول: هل: يجدي دفـــن الرؤوس في الرمال في عصر شفافية المعلومات؟ ونؤمن كباحث كما يؤمـــن كثـــيرون غيري (إن زهور التفاؤل تنبت عادة في شقوق الوقائع) ولنـــبدأ مـــاذا جرى لنا؟ بحديث أو بقول عام تؤكده الكثير من الشواهد مؤداه (إن أداءنـــا أدنى بكثير من قدراتنا وما حققناه أقل بكثير مما أنفقناه وحماس الأغلبـــية العربـــية لإحداث التغيير لا يحتاج إلى الدليل، فما من لقاء عربي، إقليمـــي أو شـــبه إقليمي أو قطري إلا وترتفع الأصوات المطالبة بالتغييرات الجذرية وإشاعة الديمقراطية والتصدي للبيروقراطية وما غير ذلك. والسؤال القلق (للسلطة والثقافة) كيف يتسرب كل هذا الحماس ويتبدد كل هذا الجهد فـــي الســـراديب المظلمة وعسى لظلمتها أن تنقشع، تحت الأضواء الكاشفة لتكنولوجـــيا المعلومات (كسلطة- وثقافة السلطة) ماذا جرى لنا وسط هذه الموجـــة مـــن التكتلات العالمية، الإقليمية السياسية والاقتصادية والإعلامية والكتولوجـــية (ســـلطة الثقافة أو ثقافة السلطة) لماذا عجزنا حتى الآن عن الوصـــول إلى صيغة الحد الأدنى لتكتل عربي لم يعد ، حتى من قبيل الحمية

القومية بالرغم من تجانس الثقافة كسلطة؟.

(زكاة، صوم، حج البيت، الشهادة، الصلاة) تعاون– دفء– تضامن، أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر) بل هذا مقوم أساسي لتكتل عربي لم يعد لإحداث التنمية ومواجهة مميزات العولمة؟ هل نحن في حاجة إلى (عوربة) لا (عولمة) نحن نتفهم دوافعهم، إلا أننا لا نرى (عوربة دون عولمة) لا (عولمة دون عوربة)؟

لماذا فشلنا حتى الآن في إقامة نوع من الحوار الاجتماعي– الثقافة بين حكومتنا وشعوبها؟ لماذا فشلنا في إقامة حوار بين (السلطة والثقافة) بمعناها الواسع؟

علما بأن مسلمات الحوار ومصادره متوفرة في (الثقافة العربية الإسلامية) هو غياب الديمقراطيات الحقيقية ووفرة المعلومات؟ يمثل تهديدا حقيقيا لعدم استقرار أنظمة (السلطة– والثقافة) وهل في إمكان فكرنا أن ينصب في معظم مجالات (السلطة– والثقافة) (اللغة، وفكر الإعلام، وفكر التربية وفكر الإبداع).

سلطة الثقافة والتقنية:

لقد أصبحت الثقافة هي محور (عملية التنمية الاجتماعية الشاملة، حيث أصبحت تكنولوجيا المعلومات حتى محور التنمية العلمية التكنولوجية فالمعرفة قوة والقوة أيضا معرفة. فالعلم هو ثقافة المستقبل في حين اقتربت الثقافة من أن تصبح هي علم المستقبل الشامل الذي يطوي في عباءته فروعا معرفية متعددة ومتباينة. (فالإنسان يسيطر على المادة والحياة والذكاء) من خلال ثورة الكم أولى ثورات القرن العشرين وأكثرها أساسية وهي التي ساعدت بعد ذلك على زرع بذور الثورتين العمليتين الكبيرتين الأخريتين وهي ثورة البيوجزئية وثورة الكمبيوتر لقد زودتنا ثورة الكم الآن بوصف

كامل تقريبا للمادة ووصفت هذا التعدد الظاهري اللامتناهي للمادة وفي القرن العشـــرين مكنتـــنا نظرية الكم من فهم لمادة التي نراها حولنا. أما في القرن الحـــادي والعشــرين فقـــد تفتح أمامنا الباب إلى الخطورة وهي القدرة على التحكم في المادة وتصميم استكمال جديدة منها حسب حاجتنا تقريبا.

"وستحل شفرة الجينوم البشري كاملا بحدود 2005 معطية أي أن "دليل تشـــغيل" للكائن البشري وسيجهز هذا المسرح للطب والعلم في القرن الحادي والعشـــرين، وبـــدلا من مراقبة رقص الحياة ستعطينا ثورة البيوجزيئية في الـــنهاية قـــدرة خارجة على التحكم في الحياة حسب إرادتنا تقريبا هل هناك مـــزيد مـــن الدعـــوة إلى التقوقع داخل الذات في دعوة انتحارية إلى العزلة الثقافـــية فـــي عصـــر أصبحت فيه العزلة ترفا مستحيلا لكنها دعوة لتطور ما أسماها (العقاد) (الهوية الواقية) عن طريق تطوير نظرية لغوية وأدبية عربية تقوم على الاتصال الكامل بالآخر الثقافي والاستفادة من كل إنجازات العقل الغربي المتقدم مع التمسك بجذورنا الثقافية.

فنحـــن نعيش بين (الثقافة المهيمنة) بدلا من (ثقافة عالمية) فالثقافة المهيمـــنة التي جاءت في أوائل التسعينات لم تكن خافية على أحد فهي ثقافة الاســـتهلاك واقتصاديات السوق والشركات العملاقة وهي ثقافة سوف تؤدي أجـــلا أو عـــاجلا إلـــى إضعاف سلطة الحكومات القومية. وبدأت الإشارات تـــتحول إلى تحذيرات قوية بعد ظهور كتاب (صامويل هنتنغتون) (صدام الحضارات) وكتاب (فرنسيس فوكاياما) نهاية التاريخ وحتى عندما أصبح الهـــدف المعلـــن لصدام الحضارات والثقافات هو فرض النموذج الحضاري والثقافـــي الغربي (كسلطة بمعناها الواسع) باعتبارها النموذج الأمثل الذي انـــتهى إلـــيه الـــتطور البشري، وأدار البعض الآخر ظهورهم واكتفوا بأن اســـتبدلوا (صدام الحضارات) الذي استخدمه اليمين الحديث مصطلحا آخر مريحا ومطئنا وعلى غير الحقيقة هو (حوار الحضارات)[11].

والخطر الذي يكمن في سلطة (الثقافة- والتقنية) هو إلغاء الاختلاف والـــتفرد: بغرض قيام (الثقافة المهيمنة) أما باحتواء الاختلاف عند الثقافات القومية وإما بكبته لخلق فراغ تشغله قيم تلك الثقافة في نهاية الأمر(والمؤسى أن الواقـــع العربـــي أصـــبح اليوم، أكثر من أي يوم مضى، معدا لتنفيذ ذلك الســـيناريو. فقد تحول المثقفون الحقيقيون إلى نخب ثقافية يخاطب أعضاؤها بعضـــهم الـــبعض في أحيان كثيرة، وتختلف مع السلطة الحاكمة في أحيان كثيرة. وفي كلتا الحالتين تخلى هؤلاء المثقفون عن دورهم القيادي في ترشيح الجماهـــير، وابتعدوا عن الشارع العربي تاركين الثقافة الشعبية تحت رحمة الـــثقافة المهيمـــنة تفعل ما تشاء، وتغرس قيمها الجديدة لنعيد تشكيل الوعي (العربي)، فالبقاء ضرورة، والبقاء[12] (هوية) في عصر تهدد فيه الثقافة العربـــية والإســـلامية مـــن الثقافة الغربية المهيمنة بابتلاع الثقافات في حالة غـــياب رد سياســـي عربـــي فعال لمحاولات إعادة تشكيل خريطة المنطقة العربية، تصبح (الثقافة) سلطة في رأينا حصن المقاومة العربية الأخير.

داخـــل هذا الحصن يتأكد دور الشخصية العربية والإسلامية في تجديد العقل العربي وتحقيق الوعي الذي يرفعه الجميع شعارا للمرحلة الجديدة.

فالتمســـك بالـــنظرية الثقافـــية العربـــية الإسلامية (منهجا، وطريقة، وأســـلوبا، ولغة، وتربية، وأدبا، وسلوكا، وإبداعا، ونقدا) تلك النظرية التي تحـــترم اجـــتهادات الآخريـــن، ولا تصـــادرها. اعتقد صادقا أنها أصبحت (ضـــرورة بقاء) قد تتفق وقد تختلف المسالك والدروب، ومن الطبيعي أن تخـــتلف لكن المهم أن نتفق على خطورة التهديدات بعد البقاء الفعلي (للثقافة العربية والإسلامية) ويجب العمل على ضرورة تطوير هوية(واقية) عندئذ يصبح الاختلاف في الواقع اتفاقا لأنه يصب في هدف واحد ونهاية واحدة.

ماذا يقول خطاب صدام الحضارات؟

أطروحة صدام الحضارات تتحدث عن تكريس الهيمنة الغربية وتدعو للدفـــاع عن مصالح الحضارة الغربية وعلى رأسها النفط والأسواق وبالتالي اتخـــاذ كـــل ما يتطلب للتعلم مع الأخر: الحضارات غير الغربية وخصوصا الحضـــارة الإسلامية والحضارة الكونفوشيوسية أو الصينية وبالتالي أي تقدم تحققـــه هاتـــان الحضـــارتان سيكون على حساب المصالح الغربية وبالتالي الصـــراع الأساســـي ســـيكون علـــى حساب الغرب والحضارتين الإسلامية والكونفوشوسية أو الصينية كما يرى بطرح (هنتندفتون)[13].

منطلقات صراع الثقافات:

الفـــرض الأساســـي لخطاب صراع الثقافات هو (أن الثقافة أو الهوية الثقافـــية الحضارية والتي في أوسع معانيها (الهوية الحضارية) حتى تشكل نمـــاذج التماسك والتفكك والانحلال والصراع في عام ما بين الحرب الباردة ويقول هنتغتون : "إن أكثر الصراعات انتشارا وأهمية وخطورة لن تكون بين طبقات اجتماعية غنية وفقيرة أو جماعات أخرى محددة على أسس اقتصادية ولكن بين شعوب تنتمي إلى هويات ثقافية مختلفة ، وبالرغم من أن هنتغتون حدد أربعة آليات تتعلق بخطاب صدام الحضارات وهي:

1. الديانة هي المعيار للتميز بين الحضارات.
2. حتمية صدام الحضارات.
3. الإسلام العدو الأول.
4. الحضارة تشكل كل شيء سياسي واقتصادي.

إلا أننا نقول آليات صدام الثقافات لا تتكون كما قال هنتغتون أي آليات الصدام هي:

1. الديانة هي المقياس للتمييز بين الثقافات.
2. حتمية صدام الثقافات لا الحضارات.
3. الثقافات المتحدية الأولى هي الثقافة الإسلامية.
4. الـــثقافة تشكل الجانب المعنوية للإنسان (فنون- عادات- تقاليد قوانين) وبلك الثقافة تشكل السياسة بالمقام الأول.

- **التحديث في ضوء (صدام الثقافات).**

إن المناقشـــة الأكـــثر عمومـــية الآن حول انبثاق (حضارة عالمية) أو ثقافة عالمية تنظر إليها على أنه نتيجة العمليات الواسعة للتحديث الذي بدأ مستمرا منذ القرن الثاني عشر التحديث يشمل التصنيع المدينة تزايد معدلات التعلـــيم (القـــراءة والكـــتابة) التعلـــيم في أوجه الحياة والتعبئة الاجتماعية والثقافية واستحداث بنيات وظيفية أكثر تعقيدا وتنوعا إنه نتيجة للتوسع الماثل في المعرفة العلمية والهندسية.

التحديـــث: عملـــية ثورية يمكن مقارنته فقط بالتغير أو التحول أو من المجـــتمعات البدائـــية إلى المتحضرة أي ظهور الحضارة في صيغة المفرد والتـــي بدأت في أحواض دجلة والفرات والنيل والهند طوالي 500 ق.م (إن اتجاهـــات وقـــيم ومعارف وثقافة الشعب في المجتمع المتمدن أو المتحضر تختلف إلى درجة عالية من تلك في المجتمعات التقليدية وكأول حضارة تتجه نحـــو التحديـــث فالغـــرب يـــتزعم فـــي اكتساب ثقافة التمدن أو العصرنة (Modernity) وبحصـــول مجتمعات أخرى على أنماط مشابهة من التعليم والعمـــل الثروة والبنيات الاجتماعية فالمناقشة تقول "بأن هذه الثقافة الغربية المعاصرة سوف تصبح الثقافة العالمية لكل العالم" هنتغتون [14].

هوامش الفصل الثالث :

---

(1) إبراهيم صقر أبو عمشة، الثقافة والتغير الاجتماعي ، (مرجع سابق)، ص3..
(2) نفس المرجع السابق، ص 8.
(3) نفس المرجع السابق، ص 30.
(4) نفس المرجع السابق، ص 33.
(5) نفس المرجع السابق، ص 37.
(6) نفس المرجع السابق، ص 38.
(7) نفس المرجع السابق، ص 44.
(8) محمد غيث ، التغير الاجتماعي والتنمية ، ط الثانية، (1966) ، ص 56.
(9) موريه ، " نشأة النظام الاجتماعي وتطوره " ،ص 23.
(10) إبراهيم صقر أبو عمشة ، الثقافة والتغير الاجتماعي ، (مرجع سابق) ، ص54.
(11) حمودة ، عبد العزيز، المرايا المقعرة ، نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (2001– 2002).
(12) نفس المرجع السابق.
(13) صموئيل هنتغتون ، صدام الحضارات ، (مرجع سابق) ، ص 28.
(14) نفس المرجع السابق، ص 147.

الفصل الرابع

الثقافة والتجديد (حوار لا دمار) (قبول أو رفض)

البحث عن لغة الحوار وأسسه : (عرض نماذج)

عندما شهد تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، إبان الاحتياج الصليبي (489- 690 هـ) (1096 -1291م) دعا فيلسوف الصوفية (محي الدين بن عربي) (560-638هـ) (1165-1240م) إلى تمييع الحدود وإزالة الفروق وفتح القلوب لكل المعتقدات بل وإلى الدين الواحد والمؤسس على الاعتقاد الواحد- الجامع لمختلف المعتقدات. وقال: ابن عربي في تلك الدعوة شعرا:

عقد الخلائق في الإله عقائدا ... وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه
قد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراه ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أني توجهت ... ركائبه، فالحب ديني وإيماني[1]

في الوقت الذي لا نتهم فيه (ابن عربي) بالتساهل مع الغزو الصليبي لوطن الأمة العربية الإسلامية، لأنه حرض وطلب من السلاجقة الجهاد والقتال ضد الصليبيين، ولا ندعو أيضا إلى التأكيد والوقوف مع كتابات ابن عربي، عند ظواهر دلالات الألفاظ ؛ فمقاصد هذا الفيلسوف في أغلب الأحيان تتجاوز المتعارف عليه من معاني المفاهيم والكلمات، لكننا نقول ونحن نعيش عصر المتغيرات لو أن جماهير الأمة في حضارتنا العربية الإسلامية أخذت بالمفهوم المتعارف عليه من مذهب ابن عربي هذا لضعفت مناعتها وانفتحت في حصون مقاومتها العقدية والثقافية والحضارية الثغرات والثغرات. عندما ننظر بعمق إلى ابن تيمية (661-728 هـ) (1263-1328م) وليس ابن عربي. نجده هو " رجل المرحلة" الذي حمل سيفه

مجاهدا بالسنان وحمل قلمه ليرفع شعارات البحث عن الفروق بيننا وبين قوى وجحافل الغزو الصليبي والتترى حتى أنه جعل من ذلك عنوانا لأحد كتبه فسماه: "اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أهل الجحيم".

وإذا اتجهنا غربا مع أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين وهو "كارل ريموند بوبر" حيث يقدم نفسه في كتابه المهم "بحثا عن عالم أفضل" حيث يقول: "إنني آخر بقايا التنوير أي إنني عقلاني أو من الحقيقة والعقل البشري، وأن كل شخص معقول يعرف جيدا أن العقل يلعب دورا متواضعا في حياة الإنسان دون التفكير النقدي أو الجدل النقدي الذي هو أساس الفكر الحر للفرد. ومن خلال هذا الجدل النقدي يصبح الشخص العقلاني مستعدا لأن يتعلم من الآخرين، ذلك لأن الحقيقة ليست احتكارا له، وأنه دائما في حاجة إلى أفكار جديدة، وأن (خذ وأعط) ذات أهمية قصوى في العلاقات البشرية الخالصة.

وحين أقول إنني آخر بقايا التنوير، أقصد أن رجل التنوير يتحدث بأبسط ما يستطيع من استخدام اللغة، حديثا يتسم بالوضوح والبساطة والقوة"[(2)].

وهنا نعرض فلسفته وفكره المتفائل وقدرته المذهلة على حملنا معه على موجات فكرة المتقدم الجسور، عبر العصور المختلفة، لعله يكون لغة الحوار المشترك، ما بين الحاضر المضطرب إلى عصور ما قبل الميلاد في رحلة فلسفية علمية شائقة يربط فيها بين فكر وعلم ونظريات فلاسفة الحضارات القديمة وعلى رأسهم: سقراط وأفلاطون وإكساجوراس، إلى مفكري وفلاسفة التنوير في القرنين السابع عشر، والثامن عشر وفي مقدمتهم "كانط" إلى مسألة التحرر من خلال المعرفة، إلى علم التاريخ، وكيف نفهمه بالمنهج العلمي إلى رؤيته للفلسفة إلى صدام الثقافات إلى المقارنة بين إبداع العلم وإبداع الفن وما بينهما من تشابهات.

وإذا اتجهـــنا غـــربا ونحن نبحث عن لغة الحوار، نجد مفكرا آخر من مفكـــري الغـــرب ومنـــبر لقضـــايا المسلمين العادلة يجيد التعامل مع العقل

الغربي- وبذات منطق الغربيين، ومن هذه القضايا التي يحسن محاورته فيها مفهوم الحوار، هو: "روجيه جارودي أو رجاء جارودي. لقد رفع هذا المفكر شــعارا "الحوار بدلا من الدمار" ، مؤكدا على أن الحوار هو البديل للتدمير المتبادل بين ألوان الأصوليات المعاصرة، الغربية منها والإسلامية.

وإذا أردنا فرز دراسات متعمقة ومتخصصة لمفهوم الحوار في مفهومه "للأصولية" وتعميقه لمضمونها في الحضارة الغربية على الحركات أو التيارات الإسلامية ودعوته لتطبيق مفهوم " التاريخية والتاريخانية" على تشريعات وأحكام وكل النصوص الدينية للقرآن الكريم. فإن مفهوم هذا المفكر للحوار، هو الأخر في حاجة إلى حوار. فهو لا يتصور حوارا إلا إذا قرر المتحاورون "إعادة النظر في معتقداتهم" ، وهو بذلك يتكلم عن "حوار مستحيل" ، وإلا أي ثقافة أو حضارة تطمع في أن يعيد أهلها عقيدة التوحيد النظر في التوحيد. وكذلك الحال مع أهل عقيد التثليث، وأيضا اليهودية، والبوذية إلى آخر العقائد التي كونت أمما تتعبد بهذه المعتقدات.

إن شرط الحوار عند (جارودي) هو "إعادة فرقائه النظر في معتقداتهم هو وضع للشروط المستحيلة التحقيق أمام هذا الحوار!.

وهذا المعيار الغريب، الذي وضعه هذا المفكر، وثيق الصلة بتصوراته للمقاصد المرغوبة من وراء هذا الحوار، فتصوره للعالم الذي "يحلم" به (جارودي)، هو عالم الدين الواحد والأمة الواحدة والعقيدة الواحدة، وهي أيضا صورة لحلم مستحيل التحقيق، لا بسبب إغراق (جارودي) في "الطوباوية" فحسب وإنما لأنه التصور النقيض لسنن الله، (لقد ذكرنا من قبل) في الاجتماع الديني والفكري والبشري، فسنن الله، في هذه الاجتماعات هي "التعددية" و"التمايز" و"الاختصاص" وليست الواحدية والأحدية والاندماج والذوبان، فالواحدية والأحدية للذات الإلهية وحدها، وما عدا الذات الإلهية، في كل العوالم جمادا، وحيوانا، وإنسانا وفكرا قائم على التعددية، والإزدواج

والترافع، والارتفاق[3].

لهذا نستنتج أن (جارودي) لا يريد أو لا يتصور حوارا بين ديانات، وفرقاء، ومذاهب، وقوميات، وإنما يريد أو يرغب أو يؤمن في حوار بين الذين أعادوا النظر في عقائدهم، وأصبحوا أبناء دين واحد، حتى يطلب من المتحاورين أن يفهم كل منهم الآخر ليس باعتباره "آخر" وإنما كجزء من "الذات" ولم يقل لنا: ما الداعي للحوار إذا لم يكن هناك "آخر" يدور معه الحوار؟

وهل يسمي الحديث إلى النفس، وإلى "جزء من الذات" حوارا بالمستوى الذي يكون فيه هو البديل عن "الدمار"؟[4].

فهو يرغب حوارا نتغلب به على "الخصوصيات" وليس لتعايش الخصوصيات، حوارا يحل به "عملية التوافق" محل اعتقاد "قدرة التفوق" مع أن عقيدة "التفوق" إذا ضبطت حرارتها عند درجة "التدافع" ولم تنطلق غرائزها إلى ميادين الصراع أو التصادم هي حافز التقدم، ودافع الاستباق بين الأمم والحضارات والشعوب والديانات على طريق الخير "الأمر بالمعروف والمعرفة" من أجل البناء والإصلاح، لا للدمار والفساد والهلاك.

ويقول "جارودي" في تصوراته لمقاصد وأهداف وثمرات الحوار:

"في عصرنا، لم يعد أمامنا خيار إلا بين: "تدمير متبادل مضمون" وبين الحوار، لكن، لمن يكون هناك حوار حقيقي ما لم يقتنع كل منا بأن عليه أن يتعلم شيئا من الآخر، بالتالي ما لم يكن مستعدا لإعادة النظر في معتقداته الخاصة به، في هذا المستوى لا يكون الحوار ندوة المتخصصين في تاريخ الأديان المقارن، ولا حتى لقاء بين لاهوتيين من مذاهب مختلفة.

إنه اجتماع أصحاب دين يتقبلون المخاطرة القائلة إن عقيدة الآخرين يمكنها إغناء عقيدتهم الخاصة، وتجعلهم يكتشفون في ذواتهم أبعادا تكون مغيبة أحيانا. وهذا يفترض السعي إلى فهم الأخر ليس كموضوع خارجي،

بل داخل ذاته، إن انتصار المستقبل على الماضي، انتصار الواحد والكل على الخصوصيات القديمة، انتصار الحوار على الأصولية، والتواق على التفوق، سيكون انتصار للروح"[5].

ونعرض نماذج من لغة الحوار والتجديد في الإسلام: (نماذج العصر الحديث) نماذج (الرفض أو القبول).

في الثقافة العربية الإسلامية، هناك من يخلط بين "التجديد الإسلامي: وهو عبارة عن "تطوير وتجدد من داخل النسق الإسلامي، ملتزم بثوابته وفلسفته ومبادئه ومقاصده".

وهناك دعاة "التنوير- الغربي- العلماني" الذي يقيم قطيعة مع الدين، عندما يعزله عن شؤون الدولة والاجتماع الإنساني والعمراني البشري، مكتفيا بعالم الشهادة والعقل والتجريب".

إنهم يخلطون بين النمطين من أنماط الإحياء والتقدم والنهوض.

يخلط تلامذة "التنوير- الغربي- العلماني" أوراق مشاريع "الحديث" في عصرنا الحديث، عندما يصورونها مشروعا واحدا يقولون في الحديث عن دعاة أسماء أعلام "التجديد الإسلامي" مع إعلام "التغريب" والتحديث على النمط الغربي، مع أن هذه القضية لم تكن على هذا النحو من "خلط الأوراق" عند جيل "الرواد" من دعاة النهضة والإحياء والتحديث تبني النموذج الغربي في النهوض.

وسنعرض هنا المفكر محمد عبده الذي يعتبر أبرز عقول التجديد الإسلامي في عصرنا الحديث حيث يعتبر كل مشروعه الفكري من أبرز المشاريع ولتمايز مشروعه النهضوي والتجديدي عن النموذج الغربي في التحديث ، وذلك انطلاقا من تميز الإسلام عن نصرانية أوروبا ولاهوت كنيستها، ومن تميز تطورنا الحضاري عن تاريخ الغرب في التطور الحضاري، ويكفي مراعاة للمكان والمقام يضرب على ذلك الأمثال:

لقد عنون محمد عبده واحدا من أهم أعماله الفكرية والحضارية: كتاب "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية" ليبين فيه الأدلة على تميز، بل وتناقض أصول الإسلام مع أصول النصرانية، كما عرفها الغرب واللاهوت الكنيسي الأوروبي. وعلى تمايز وتناقض الخلافة الإسلامية مع البابوية ودولتها الثيوقراطية وسلطتها الدينية، وعلى تميز الإسلام بالعقلانية التي لم تعرفها النصرانية. وعلى تميز الإسلام بل وتناقضه في موقفه من العلم والعلماء- فكرا وتاريخا- عن النصرانية في هذا الميدان، فجاء هذا الكتاب بيانا لتميز المشروع الإسلامي النهضوي عن النموذج الغربي في الإحياء والتحديث(6). بالإضافة إلى ذلك نجد أن اجتهاد محمد عبده للتمييز بين الإسلام والنصرانية، وبين الشرق والغرب في الموقف من علاقة الدين بالعلم، نجد رفضه الصريح للنموذج الحضاري الغربي لماديته التي ناقضت وتناقض الوسطية الإسلامية، الداعية إلى الجمع ما بين المادة والروح. وكذلك استطاع نقد المدنية الغربية ورفضه لماديتها بقوله:

" إن هذه المدينة هي مدينة الملك والسلطان، مدينة الذهب والفضة، مدينة الفخفخة والبهرج، مدينة الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو " الجنيه" عند قوم، و"الليرة" عند قوم آخرين ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك"(7).

فهو الذي علق وحلل حيرة الفيلسوف الإنجليزي "سبنسر" (1820- 1903) عندما التقى به سنة (1903م) وتشاؤمه من نتائج المادية المتفشية في أوروبا حتى لقد "محي الحق من عقول أهل أوروبا بالمدة، وسترى الأمم يختبط بعضها ببعض لتتبين أيها الأقوى ليسود العالم أو ليكون سلطان العالم" فهي النبوءة التي حققتها الحروب الكونية الاستعمارية الأوروبية، والصراعات والهيمنة السائدة حتى الآن.

لقد عرض الإمام محمد عبده "الداء" الأوروبي.. داء التقدم المادي المفرغ من روحانية الدين، بسبب علمانية ومادية ووضعية "التنوير-الغربي"

ثم قطع بأن الدين هو الدواء"[8] ، وليس هذا فقط بل قدم محمد عبده النقد والرفض لواقع النموذج الأوروبي الحديث والمعاصر، وكذلك النقد والرفض لنموذجها التاريخي المتميز بالكهانة والبابوية والدولة الثيوقراطية، والحديث عن تميز الإسلام ونموذجه التاريخي عن هذا النموذج (النصراني- الغربي). ويقول في ذلك: "إن الإسلام لم يعرف تلك السلطة الدينية التي عرفتها أوروبا. فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر، وهي سلطة خولها الله لكل المسلمين، أدناهم وأعلاهم، والأمة هي التي تولي الحاكم، وهي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه، ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين، بما يسميه الإفرنج" ثيوكرتيك" أي سلطان إلهي، فليس للخليفة بل ولا للقاضي، أو المفتي، أو شيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام، وكل سلطة يتناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية، قدرها الشرع الإسلامي فليس في الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه، بل إن قلب السلطة الدينية، والايتان عليها من الأساس، هو أصل من أجل أصول الإسلام"[9] ، فهو لا يدع مجالا لمن يتوهم أن انتفاء " السلطة الدينية" عن الإسلام تعني انتفاء علاقته بالسلطة والدولة ونظام الملك والاجتماع والعمران"[10]. أي بمعنى أن الدين دين وشرع أي دين دولة وسياسة وعمران واجتماع.

أما نموذج القبول للنموذج الغربي، (التنوير- الغربي- العلماني) الذي يقيم قطيعة مع الدين عندما يعزله عن شؤون الدولة. يمثل هذا النموذج: طه حسين (1306-1393هـ) (1889-1973) وهو من أبرز دعاة الأخذ من الأوروبيين في "الحكم" و"الإدارة" و"التشريع" ، ويدعي أن عقلنا يوناني وحضارتنا أوروبية وليست شرعية، ويزعم أن إسلامنا ولغتنا العربية لا يصلحان أن يكونا من مقومات بناء الدولة، كما لم تصلح النصرانية لذلك

في النموذج الأوروبي" بل تحدث عن الحضارة الغربية بابتهاج (؟!) واتخاذها مثلا أعلى.(؟!)[11].

بالإضافة إلى ذلك نفي صلاح الدين لأن يكون مقوما للدولة أو أن يكون لـــه مدخل في السياسية.

وهناك نفر من دعاة "التنوير- الغربي- العلماني" الذين أوهموا الجماهير أن دعوتهم إلى إحياء تراث "التنوير" إنما هي "لمواجهة المشروع الإسلامي الداعي إلى إسلامية النهضة والدولة والمعرفة والعمران" ، وهم سلامة موسى الذي رأى في الرابطة الدينية وقاحة يجب أن يأنف منها ويبرأ أبناء القرن العشرين.؟!

وعلى عبد الرازق الذي قال: "يا بعد ما بين السياسة والدين".؟![12].

وإذا عدنا إلى الماضي؛ إلى جدلية ابن خلدون، فإن العرب لن يستطيعوا تجاوز فكرة المجتمعي، إلا بعد معرفة فكره وتحليله عن كثب وبعمق، واعتقد أن كتابه" المقدمة" يمثل الأفضل في محو أمتنا الحضارية والتاريخية بشأن حقيقة الذات بين أميتنا الأخرى. لقد وضح ابن خلدون مضامين فكرة في "المقدمة" بشأن طبيعة المجتمعات العربية خاصة، لم تصبح جزءا من تركيبهم أو تكوينهم الثقافي؛ وما لم تصبح جزءا من هذا التركيب فإن عمليات اغتراب الإنسان العربي عن حقيقة مجتمعاته سيترك لفترة طويلة ضياعا فكريا لديه لا يمكن التقليل من أضراره.

يقول: محمد جابر الأنصاري[13]، في مقاله "العلامة ابن خلدون رحل منذ ستة قرون ومازال معاصرا" "إن ما رآه بن خلدون، برؤية نافذة حقا، إلى السوسيولوجيا السياسية للعرب، مازال الكثير منه مترسبا بقوة إلى يومنا بالرغم من "قشرة" الحداثة، بل العولمة، التي تحاصر المجتمعات العربية.

وعندما تأملت في "العولمة" لأول مرة قبل عقد من الزمن، ذهب فكري

حـــالا إلى تلك "العصائب" والقبائل وتساءلت ماذا ستفعل العولمة بهم؟ وماذا سـيفعلون بالعولمة؟ بكلمة أخرى: كيف سيكون التفاعل بين مفهوم كوني في منـتهى العمومـية وأوضـاع في القاع المجتمعي في منتهى" الخصوصية" وبينهما عصور وعصور، ليس من الزمن فحسب، وإنما من التطور الحقيقي فـي الواقـع البشـري المعـيش، الـذي تجاوز التنظير، والتجريد الفكري" (انظـر أيضا كتاب العرب والعولمة، ندوة مركز دراسات الوحدة العربية، ص55-56، بيروت، 1998).

ويضيف (الأنصاري) [14] أيضا: "إذا نظرت إلى ذلك الحضرمي، (ويقصد ابن خلدون) الأندلس الأرومة ، التونسي المولد، المغربي المعاناة، المصري المصير، خالجك الشعور بحكم الزمان"النهضوي" والمكان"المتوسطي" إنه ينتمي إلى ذلك الشاطئ الشمالي الأوروبي من المتوسط بين رواد نهضة أوروبا الأوائل بحكم جدة تفكيره، وتأسيسه لعلم العمران" الاجتماع" ، ولعل هذا ما يفسر الإعجاب المتناهي لفيلسوف التاريخ البريطاني أرنولد توينبي به، حيث اعتبره أعظم عقل في أي زمان ومكان، كما يفسر اهتمام الباحثين الأوروبيين به- وترجماتهم لمقدمته إلى يومنا هذا. إلا أن "مقدمة ابن خلدون" في حقيقة الأمر هي آخر كتاب، وآخر ومضة إبداع في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، بالمعنى الفكري الإبداعي في التجديد الحضاري، وتنتمي بشكل عضوي إلى هذا الجانب العربي، من المتوسط. حقا جاء بعده مؤرخون أفذاذ، وشهود حق على عصورهم، وأخرهم عبد الرحمن الجبرتي صاحب "عجائب الآثار"، لكن ابن خلدون يبقى سيد المفكرين، في الواقع، لا في اليوتوبيان وفي التاريخ لا في الميتافيزيقيا!"[15].

يتميز الفكر الخلدوني بالإيحاء الإبداعي للعقول في عصرنا هذا، وكذلك لغة ليست سهلة التناول ؛ فالنص الخلدوني ممتنع غير سهل، ربما أحس قارؤه المتعجل بركاكة وخاصة ممن تعودوا على الخطابة وشعر

الحماسة، فنصه كفرع الشجرة المثقل بثمره لغزارة فكره وكثافة تفرع تأمله، فيجب أن تتناوله بتؤدة لتكتشف كل ما فيه من ثمر، وإن استعجلت في قطفة ربما يفوتك الكثير من ثمره، ففكره يتميز بالكثافة والعمق، قبل لطافة لغته.

بل إن اللغة العربية في فكره تنوء بثقل أفكاره، وهذا يعد فخرا علميا لها. أنها استوعبته وربما هذا يفسر غربة هذا المبدع عند بني قومه العرب لطربهم المستمر والدائم بإيقاع البلاغة شعرا ونثرا وغناء.

ويظل الفكر الخلدوني اليوم على سائدة خبراء التحديث والتجديد التربوي سواء استلهموه من أوروبا أو أمريكا وقبل الوصول إلى نظريات كارل ماركس وفيبر وغيرهم من علماء الاجتماع الحديث. فعند نظرية ابن خلدون يتبين العمود الفقري الأساسي للسوسيولوجيا السياسية العربية بالذات وربما أيضا السيكولوجية العربية بالذات. وبعدها إضافات مهمة لكنها ليست بدايات يؤسس عليها. لغة الحوار أو التفاعل الحضاري لقد كان النص الخلدوني خارجا على التقليد البلاغي العربي. وخاصة عندما تبلور لديه علم الاجتماع العمراني مع فلسفته في التاريخ، ومع نظرته غير المعهودة في مسائل اللغة وعلم التربية. وعلم العمران كان في هذا إلحاح غريب منه يحذر قراءه بأن ما يقدمه في كتابه" المقدمة" " ليس من علم الخطابة" يقول ابن خلدون بكل هدوء موضوعي وغريب ومستقل في المقدمة:

"......هذا هو غرض هذا الكتاب، وكأن هذا علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والإجماع الإنساني واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غزير الفائدة، أعثر عليه بالبحث؛ وأدى إليه الغوص، وليس من علم الخطابة"(16).

هذه الجملة" ليس من علم الخطابة"!! هل هي إيقاظ ذهني؟ هل هي سخرية؟ هل هو غضب مكتوم؟! إنه بصراحة خروج على "الذوق" أو الإحساس الجسمي العربي؛ بل على الظاهرة الصوتية والفكرية– العربية

كلها، لذا بقي ابن خلدون في غربة عنها ولكن إلى متى سيبقى غريبا عنا؟ والعالم اليوم يفكر كما فكر ابن خلدون بالأمس. نقول: إن ابن خلدون لـه رؤية تحليلية لتكوين المجتمعات العربية، لابد من فهمها واستيعابها والوصول إليها والإلمام بها. قبل التحول أو الانتقال لغيرها من لنظريات.

فقد أشار باحثون عدة في فكر ابن خلدون إلى أنه كان رائدا في الإرهاص والإيماء إلى فكرتين مهمتين تنبه إليهما الفكر الحديث وهما[17]:

1- أن القيمة الاقتصادية للسلعة يحددها الجهد الإنساني (العمالي) المبذول فيها، وليس مجرد قيمتها المادية. وهي مسألة (فكرة) انبنى عليها الفكر الاجتماعي الحديث، الاشتراكي بخاصة- في دعوته إلى إنصاف العمال الذين يضيف جهدهم إلى قيمة السلعة، أحيانا في ظروف قاسية.

وهي قيمة يستفيد منها الرأسماليون عادة في النظم التي لا تنصف العمال.

لم يصل ابن خلدون إلى هذه الدعوى الصريحة لكنه اقترب كثيرا من مضمونها الفكري.

2- أنه أومأ إلى شئ قريب جدا من الفكرة القومية الجامعة، عندما تحدث عن "دولة العرب" ثم "دولة الفرس" ثم "دولة الترك" في سياق التاريخ الإسلامي. صحيح أنه بنى فكره في تفسير الاجتماع والتاريخ لدى العرب على "العصبية القبلية" وهو واقع لا يستطيع أي مفكر تجاهله- لكنه أشار أيضا إلى أن تلك العصائب القبيلة إذا تحالفت، خاصة في ظل "دعوة دينية" "تستطيع أن تؤسس تحالفا أوسع بينها يستند إلى حقيقة كونها منتمية إلى "قوم" متميز من الأقوام.

فابن خلدون معاصرة من خلال كتابه "المقدمة" يمكن الالتقاء به ومشاهدته في هذه المرحلة في العراق، حيث "عصائبه" وأحزابه، أو "طوائفه" تحاول التوقيع أو الاتفاق على مشروع "دولة" ، ويمكن الالتقاء ومشاهدته في

لبنان للاعتبار ذاته، وكذلك السودان، وفي اليمن بين عصبية قبائله المترددة بين أرثها العصبوي، ودولتها الحديثة، التي تحاول التحديث والتوحيد، بالإضافة إلى ذلك يمكن الالتقاء به من خلال مفهوم "العصبية" في مصر، حيث الدولة على عكس المحيطين بها من "أحلاف قبلية" مشرقا ومغربا، حقيقة قائمة: "سلطان ورعية" حسب تعبير ابن خلدون.

ومن خلال كتابه "المقدمة" كان ابن خلدون واضحا ومحددا في أطرافه فكــره وعمقــه، فقد وضح أفكار مازالت واقعا لا يمكن إنكاره أو رفضه في حياتــنا العربية الراهنة، سوف نذكر بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر تدليلا وتوضيحا على أن العلامة ابن خلدون مازال معنا "معاصرا" لنا كعرب ، ونحــن نحــتاج إلى وقت حتى نتجاوزه في واقعنا الاجتماعي والاقتصادي والسياســي الراهــن ، ونحن نبحث عن الفعل كحوار وأسسه فقد حذرنا من مسائل عدة منها[18] :

1 - من أهم المسائل التي حذر منها ابن خلدون اشتغال رجال السلطة بالتجارة ومنافستهم لأهل البلد وتجاره، بما يؤدي إلى عرقلة الاقتصاد وتدميره، وانعكاس ذلك وبالا على الدولة نفسها في نهاية الأمر. كما يتضح من تجارب عربية معاصرة يقول ابن خلدون في نص،كأنه كتب اليوم عن هذه الظاهرة، وخلاصته: " إن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا ومفسدة للجباية[19] (أي لنظام الضرائب الذي تستعين به الدولة) وفي "المقدمة" إسهاب فكري مهم في إيضاح مختلف هذا الأمر وجوانبه، والوبال الذي يجلبه على "الرعية" وكيف أن رؤوس الأموال تهرب وتهاجر من بلد التسلط إلى بلدان أخرى، خاصة إذا استغل المتسلط نفوذه في السلطة لمناقشة أهل البلد في أرزقاهم، وعلى العكس من ذلك كان ابن خلدون يشير دائما بالسلاطين. الذين يكتفون بسلطة الحكم ولا يخلطون بين الإمارة والتجارة، وهو ما بقي مثلا أعلى للحكام

العرب، الذين تميزوا عن غيرهم بالنزاهة، ونظافة الذمة، على ندرتهم في تاريخنا وواقعنا.

2- حذرنا ابن خلدون أيضا من أنواع الاستبداد والتسلط الأخرى، لأن ذلك يؤدي إلى تنفير أهل البلد، وانقلابهم على السلطان، وتعاونهم مع أعدائه، وقد لخص ابن خلدون رؤيته لأثار مختلف أنواع الاستبداد والتسلط بمقولته الرائعة "الظلم مؤذن بخراب العمران" داعيا السلاطين (الحكام) إلى اكتساب قلوب رعاياهم بالمودة والعفو والإحساس، تعزيزا لدولهم ذاتها.

3- لقد نبهنا ابن خلدون إلى أن الدعوة الدينية بلا عصبية، قبيلة أو قومية لا تتم لاحتياجها إلى وازع طبيعي، وذلك ما يحاوله فعلا - معكوسا - في أيامنا بعض المشتغلين بالإسلام السياسي تحديدا في إثارة النعرات الطائفية أو العشائرية لدى أتباعهم ليقينهم أن مواعظ المنابر الدينية في حد ذاتها. لا تملك التأثير الكافي لاحتياجها إلى قوى اجتماعية مؤثرة وراءها، لذلك لا نراهم ينادون بإسلام نقي مبرأ من الطائفية أو العشائرية، كما ينبغي أن يكون دينيا وإنما هم يتخندقون وراء هذه العصبيات، لأنهم دونها لا نفوذ لهم، ولم يسمح بحركة إسلامية واحدة فوق المذاهب، ومن مختلف المذاهب كما كان الأمر في حركة التحرر العربي- لأن الناس لا يجتمعون خلف الدعوة الدينية بالمطلق، وإنما يتحركون بعصبياتهم القائمة المتوارثة، فذلك ما ورثوه عقيديا ويبدو من الصعب جدا تجاوزه، عليه،فإن انتفت (اختفت) القوة الاجتماعية الدافعة، يتحول الدعاة إلى مجرد أصوات صارخة في البرية بلا أثر ، وحسب تعبير ابن خلدون الذي يقول:

"ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فإن كثيرا من المنتحلين للعبادة، وسلوك طرق الدين، يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر

بالمعروف رجاء الثواب عليه من الله، فيكثر اتباعهم والمتمثلون بهم في الغوغاء والدهماء، يعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في هذا السبيل، مأزورين غير مأجورين، لأن الله سبحانه وتعالى يكتب ذلك عليهم، وأحوال الملوك، والدول راسخة قوية لا يزحزحها، ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية، التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر.

وهكذا كان حال الأنبياء، في دعوتهم إلى الله، وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء، لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة....."[20].

هذا النص الذي كتبه ابن خلدون قبل أكثر من ستة قرون، يطل علينا من جديد في أيامنا الحالية تشخيصا وتحليلا لظاهرة الإرهاب أو العصبية أو العشائرية وبشكل أوسع وبصور عدة: القضاء على الدكتاتورية ونشر الديمقراطية الغربية، نشر الثقافة العالمية والنظام العالمي، سياسة القطب الواحد، حقوق الإنسان وقضايا التخلف، القضاء على الأسلحة النووية والبيولوجية.. استثمار الموارد تحرير الطرق وتقسيمه، ضرب الإرهاب في أفغانستان وتدميرها والتطهير العراق والثقافي في يوغسلافيا سابقا... ومن يندفع من ورائها من علماء، وفقهاء وعامة وغوغاء ودهماء، فيقضون ويهلكون حسب تعبير ابن خلدون:" مازورين غير ماجورين، لأن الله لم يكتب ذلك عليهم...." أحوال الدول قائمة لا تؤثر فيها إلا القوة الاجتماعية الفاعلة، سواء كانت "قبائل" أو "طوائف" أو غيرها من قوى مجتمعية فاعلة في أيامنا المعاصرة، وربما هذا يعني من خلال الفكر الخلدوني أن الموعظة تبقى موعظة سلفية أم علمانية، وأن الفكرة مهما كانت قوتها لا تصل إلى واقع الناس (الجماهير) إلا إذا حملتها وتبنتها أو اعتنقتها قوى جماهيرية فاعلة من ذلك الواقع، وما عداه نقش أو حرث في البحر.. حتى ولو كان تنويرا وعظيا من أخطر المفكرين والدعاة شرقا أو غربا.

4- وكما تعانيه المجتمعات العربية والإسلامية إلى اليوم، يكتب ابن خلدون

وكأنه معنا: "إن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب، قل أن تستحكم فيها دولة"[21] وهو ملحظ يحتمل مجلدات في إشكالات الدولة العربية الحديثة والمعاصرة، ويكفي للفت الأنظار إليه ما تحمله الفضائيات في أيامنا من أنباء و(صور) النزعات الداخلية العربية، وغيرها من دول غير العربية.

ويضيف (الجابري) "ماذا تبقى من الخلدونية؟" هو عنوان الفصل الأخير من كتابه "نحن والتراث" ، والسؤال كما هو موضح: ماذا بقي من ابن خلدون؟ وماذا يعني بالنسبة لنا أنه يمت إلينا بوشائج قربى حقيقية، بل موضوعية، ولكنه يظل مضمرا بالدعوى إلى تجاوز الخلدونية بفصله عنا وجعله معاصرا لزمانه، وبالدعوة إلى الانفتاح على الإشكالية الخلدونية في "العصبية والدولة" ثم تجاوزها باتجاه آفاق وأبعاد جديدة عصرية وهذا ما ختم به الجابري دراسته، حيث يقول:

"يجب علينا أن نتجاوز بالتحليل والنقد الخلدونية كواقع حضاري مازال يكبل مجتمعنا، لنحصل على الخلدونية كنظرية مستقبلية تخطط لنهضتنا.

وهذا ما لن يتم لنا إلا إذا تحررنا من عوائقها الأبيستمولوجية، وجعلها ترى حاضرنا نحن ما لم تكن تراه في حاضرها. إنه البعد الاقتصادي في الصراعات الاجتماعية في الوطن العربي الذي يجب رصده وراء النزعات الطائفية. والتحركات العشائرية في الماضي والحاضر. إن إبراز هذا البعد، معناه كسر عوائق التطور في مجتمعنا، وتحرير عقولنا من سيطرة اللامعقول.

إن دعوة المستقبل، بل رسالته ، تطلب منا تحرير واقعنا من السلاسل والقيود الفكرية والمجتمعية، التي جعلت الخلدونية تبقى دون مستقبل، وتهددنا نحن كذلك بالمصير نفسه"[22] وهنا يختم الجابري بحثه بقوله:

"إن ما تبقى من الخلدونية، هو ما يجب أن ننجزه، وليس ما أنجزه؟"[23].

ويلاحظ ما يقلق (الجابري) هو ما سكتت عنه الخلدونية، فلقد

أعرض ابن خلدون عن الحديث عن المستقبل، وكأنه لا يهمه، وتحدث عن كل شيء منحازا حتى إلى الضعيف من الآراء، إلا أنه لم يتحدث عن المستقبل، وما يهمنا كمعاصرين هو "المستقبل" وليس الماضي، الذي يدور في فلكه ابن خلدون عبر رؤيته التأملية والنقدية للعصبية والدولة والمحكومة بنظام من المفاهيم ثم تجاوزه في عصره الحاضر.

ثورة الذات على الذات: (المشكلة والتشخيص)

أشير إلى السحب والغيوم الملبدة في سماوات المجتمعات العربية الإسلامية، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر (2001) وأصفها بأنها نذر خطيرة لمواجهة العديد من الموضوعات، إنها تستوجب على العرب المسلمين حسن القراءة والتحليل والاستنباط والاستنتاج، وتتطلب صلابة فكرية نفسية، وشجاعة وجرأة لم تخبرها في زمان من قبل إلا الندرة النادرة من المفكرين والفلاسفة العرب المسلمين الذين هم اليوم في حالات: إما قنوط، أو خائف، أو خجول، أو صامت، أو طريد شريد..

تلك الغيوم بها رعد شديد يلوح إلى أن الأمة العربية الإسلامية تتجه إلى منعطف تاريخي خطير، إما الاختفاء من الخريطة الحضارية لهذا العالم، أو خوض الحرب الضروس، بشرط اعتبارها أقدس وأعظم وأوجع بل أول حرب حقيقية نخوض غمارها نحن العرب المسلمين، بعد الفتوحات العربية الإسلامية المقدسة في صدر حضارة الدولة الإسلامية، وهذه الحرب تتضح في القرآن الكريم منهجا للحياة الفردية والجماعية، وقائدا للحياة على المستويين الفردي والجماعي يوجهها إذا بعدت ويبصرها إذا أخطأت مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ سورة الإسراء[24] الآية 9. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ سورة الرعد الآية 11. وقوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ الذريات[25] الآيات 20، 21. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ

ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ سورة الإسراء[26]الآية 36.

فالدراسة المنهجية التحليلية تأخذ الطابع التعبوي المحدود بخطوط عريضة مرسومة تحدد خط سيرها ومركز بحوثها. فدراسة الظاهرة الاجتماعية في إحدى مكوناتها "الذات" تؤخذ بالتحليل العلمي لطابع النظم الاجتماعية التي طبقت وأعطت مفهوم جديد للمجتمع فالمقارنة التاريخية في دراسة "الذات" و"الواقع الحضاري" تأخذ عمقا اجتماعيا ونفسيا للمتضمنات والمخلفات الوثائقية والآثار والفنون والعقيدة والمعتقدات. وهنا يتطرق (ابن خلدون) للثورة العلمية، بصفتها بأنها منبع الحرية لكل فكرة وعامل تطهري يسمو إلى درجة الوعي لاستقطاب الحقائق ولمسها لتتسامى مع الجو العقائدي والقيم والأخلاق، وتصبح في صورة متطورة تنهج من الفساد لأجل بناء الجسم الاجتماعي (النفسي) الصحيح وللرفع به من قمة المجتمعات المثالية..، وقد أكد أيضا على ضرورة "تمتع الغالبية العظمى من المجتمع بالمناهج الحضارية المنظورة التي تعطي الثقافة نهجا جديدا للتكيف مع مناهج فروعها. كالفن والتكنولوجيا والأخلاق الحضارية فجميع التغيرات الطبيعية تنتهج أسلوبا مضادا للفرد الناضج، ومن هنا يستطيع الإنسان العمل على تغيير مناهج ومسلكيات واعية وجعلها في خدمة الوعي القائم على كل انحراف. فالناس يعيشون في الأصل تحت سلطان العاطفة وحقوقهم لا تعادل قوتهم في صراع دائم، والمجتمع الذي يقوم فيه السلام على جمود الأفراد وسكوتهم التام وعدم الحركة– وهؤلاء الأفراد الذين يتركون أنفسهم ليغدوا ويروحوا كقطيع ومن ثم لا يمارسون إلا العبودية لا يعد مجتمع بأي حال بل يعتبر وحدة لا حياة فيها[27].

فمطالب التغير في الذات أو في الظاهرة الاجتماعية، يجب ألا تخضع للعاطفة، ليسهل تحجيم وإنهاء الأخطاء المتفشية في المجتمع أو الأمة، في ضوء هذا ينمو سلوكا ثابتا يتمشى مع الواقع الحضاري المعاصر، ولكن

واقعنا الحضاري "لا تتم مطالب التغير إلا بالثورة العلمية فهي عامل أساسي وفعال، والقيم والأفكار والمعايير، ولهذا كانت بعيدة الأغوار، لما تحدثه من تغير في الشكل والمضمون في وقت واحد"[28].

فالتفاعل والحركة مطلب أساسي لثورة الذات على الذات، لتخطي مراحل الجمود "والصمت" والسلبية والحرمان والكبت، هذا لا يأتي إلا بالثورة في إطارها العلمي، فالمعارك المتعاقبة للتحريك المعنوي ضرورة ومطلب حيوي للتغير من مسلكيات الأفراد والتخطي بهم ضمن المرحلة المستمرة من الحركة التي تستجيد بكل الطاقات المادية (الحضارة) واللامادية (الثقافة) ليتفحص العلائق والشوائب، وتنتج المعطيات المتسامية فوق كل المعتقدات والمخلفات المهترئة. فالحراك الاجتماعي للذات النفسية- الاجتماعية ضرورة أساسية للرفع من قيمة الفرد والمجتمع ثم الأمة. فالسلام المحاط بالجمود، وثقافة التخلف لا يخدم مصلحة التقدم والتغير الاجتماعي الذي يتحرك مرحليا من أفضل إلى أفضل فالصدام المنظم عبرا الأطر العلمية والمنطقية ضرورة أساسية من ضروريات التغير في الجوانب الثقافية المتعددة الأطر والجوانب، لوضع بصمات التحرر من المخلفات القديمة وانتهاج مسلكيات متمشية مع ركب الثقافة والحضارة المعاصرة، ولهذا إن ما يصنع من الفرد كائنا أنانيا حقا إنما هو الكلام ومظاهره السامية وهي التربية والتربية الثقافية.

"ولذا لا يمكننا أن ننظر للفرد دون أن نأخذ في الاعتبار وضعه الاجتماعي وانتماءه إلى بعض الجماعات وإلى فئات اجتماعية وإلى شعب وإلى حضارة ومع ذلك ليس الفرد انعكاس لما هو اجتماعي، أنه يستقبل المجتمع في نفسه أو ذاته ولكنه يأتي لـــه شيء طريف شخصي. ولكي نفهم تماما ما هو الفرد لابد لنا أن نسلم بتدخل عامل آخر غير الوراثة وهو الوعي الفردي"[29].

فـــالعمل لزيادة فعالية الأفراد الذاتية، في المجتمع أو الأمة، والرفع بهم

لمستوى الحراك الاجتماعي في ضوء مسلكية الأفراد وتفاعلهم فلا يتم مع جميع المشاكل المادية والاجتماعية إلا بعد تنظيم الطاقات والقدرات، والرفع من قيمة الخبرات العلمية والفنية على مستوى التفاعل الاجتماعي والنفسي، حتى يكون سلوك الأفراد نفسيا مبنى على القدرات. والأفعال والطاقات المتقدمة والمتكاملة حضاريا ضمن الإطار المعني. فأهمية القرار السياسي في ثورة الذات على الذات،يؤدي إلى اكتمال نظريات التوازن الطبيعي، في المجتمع، أو الأمة والوصول للأهداف المرجوة للرفع من قيمة المجتمع، وتأصيل أخلاقياته وصبها في بوتقة من المعرفة ضمن أطرها العلمية لاكتمال مضمون البناء الاجتماعي المنتج ليصبح بناء الذات والمجتمع متوازنا ومتفاعلا، ولرفع المجتمع أو الأمة إلى بؤرة التفاعل ضمن المجتمعات العالمية المتقدمة. "لتستطيع التقدم بالظاهرة من سمة الثبات إلى سمة التغير، حتى يتمكن المجتمع في حث الأفراد على الخلق والابتكار في القيم والنهج إلى مراحل ثبات الخطة ومفاعلتها الديناميكية المستمرة، ومن خلال التغير المستمر في مظاهر السلوك وازدياد المبتكرات المدنية، والخاضعة لعقل الإنسان ومسيرة بإرادته، تستمر الحياة متوازنة في أنظمتها وقوانينها الإلهية والمدنية، إلا أن الواقع عندما تصبح محاربة الانحراف ضرورية على نطاق واسع، فإن ذلك يشير إلى البناء الاجتماعي يتطلب إعادة النظر والإصلاح الكلي. فالانحراف إذا ما أخذ مداه، وإذا رافقته أشكال لمحاربته يؤدي إلى الثورة وتتبعها إعادة بناء الجسم الاجتماعي"[30].

منذ عصر اليقظة الأولى شخص الكواكبي بتفصيل أمراض العرب والمسلمين: في التأخر الاقتصادي، التدخل الأجنبي، التمسك بالخرافات بدل الدين الأصيل، الضعف، الاستبداد السياسي وفقدان الروح النقدية والعلمية، أي ما نسميه اليوم بالتخلف الاقتصادي، والديكتاتورية، والتخلف الثقافي والعلمي. فقد اقترح الجيل الأول ضرورات ثلاث:

1. تخلــيص الفكــر الإســلامي أي العقيدة الإسلامية السائدة من العناصر والشــوائب التي لحقت بها مع القرون والتي أصبحت تعرقل وعي الناس بالخطــر وتفهمهــم للظــروف الجديدة كما تعرقل قدرتهم على الإبداع والتكيف مع الأوضاع الجديدة العالمية.

2. تحقيق الديمقراطية السياسية كاملة أو نسبية.

3. القــيام بمجهــود اســتثنائي لردم هوة التأخر التقني والصناعي وتحسين الجهاز الإنتاجي لضمان توازن الحياة المادية وحسن سير الاقتصاد(31).

إن الحــرب ضد الذات والقدرة على تفكيك العقل والذهنية السائدة الآن ليست خرافة، أو ابتكارا جديدا أو صمة عار مكتوبة على الجبين العربي، بل اختــيار تاريخي خاضته، قبلنا الشعوب الحية. فاستحقت الحياة وتهربت منه شــعوب أخــرى، تتوهم بأن ثقافتها المصنوعة المقلدة فوق النقد، وأرقى من المــراجعة فاختفــت مــن المســرح الحضاري، ولم يبق منها سوى أجزاء محفوظة في متحف.

ويقول محمد جابر الأنصاري: " فلابد إذن من استئناف مسيرة النهضة الفكــرية بإعطــاء تلك المحاولة النهضوية الرائدة حقها والانطلاق منها دون إفــراط أو تفــريط، فلا شيء، يبدأ من فراغ، ولا من تراكم متصل لتحقيق الانعطــاف النوعي والثورة الأصيلة هي التي تعرف كيف تبني فوق ما سبق مــن بناء، أما الهدم فلن ينتج غير ما نحن فيه. ولا يمكن أن تحقق الأمم أي نــوع مــن الصــحوة في واقعها، إلا إذا بدأت بصحوة معرفية عقلية تحليلية ونقدية، لذاتها أولا ولماضيها وحاضرها ولحقائق عالمها وعصرها. ثانيا: فلا صحوة بل عقل، ولا صحوة بلا معرفة حقيقية للذات... ومنذ أن تيقظ العقل الإنساني ومقولة:

(اعــرف نفسك) تتصدر اهتماماته. وهي مقولة تنطبق على الأفراد

وانطـــباقها على الأمم خاصة تلك التي تجد صعوبة في مواجهة حقائق ذاتها بموضوعية وشجاعة[32].

وفـــي إعـــادة الـــنظرة في الذات، ماذا فعلت بنا المتغيرات الخارجية والمتقلـــبات الداخلـــية، التـــي أطلت علينا في ثقافتنا الحديثة؟ تلك الموجات المؤقـــتة والمتباينة والمتضاربة من المدارس والاتجاهات، ونتفق مع وصف (الأنصـــاري) لهـــا بأنها "التقليعات والأزيا الفكرية في الصالونات الغربية أو في أوساطنا الداخلية. ففي الفترات الأولى موجة الواقعية الاشتراكية، وفي الموجـــة الثانـــية الوجوديـــة الســـارترية وفي الفترة الثالثة موجة السريالية واللامعقـــول والغمـــوض والتكعيبية والدادية، وفي فترة رابعة موجة البنيوية واللسانية وهكذا.

هذه كلها تطورات فرعية متأخرة في سياق الحضارة الأوروبية جاءت في وقتها التاريخي هناك. كإفرازات طبيعية أو عوارض مرضية.

مـــاذا أفادنا الاعتقاد فيها؟ وماذا بقى لنا منها بعد هذا الانهماك بها عن قضايانا القريبة منا والأكثر ضرورة؟

هـــذه المـــدارس والاتجاهات هي تفرعات لأصول كبرى صدرت عنها فهل تمكنا معتقديها من قراءة تلك الأصول قبل فروعها وخاصة شباب العرب؟ هل تعمقنا في جدلية هيجل قبل قراءة الترجمة العربية الضعيفة للمادية الجدلية؟ هـــل تعمقنا في وجودية (نيتشه) وظروفه الاجتماعية (وهيدجر) قبل متابعة الســـلوكيات والـــروايات الوجودية (لسيمون دي بوفرار) في الحي اللاتيني بباريس، هل تعمقنا وقرأنا وحللنا جيدا " ثروة الأمم" (لأدم سميث) ومدارس الفكر الليبرالي الأخر، قبل الإعجاب البهرجة بالمظاهر السطحية والاستهلاكية للرأســـمالية والاقتصـــاد الحـــر، هذه الأنماط التي تتهالك المجتمعات العربية الإسلامية غنيها وفقيرها على بقايا قشورها دون تنبه وفطنة لجذورها وأسسها وشروطها المجتمعية والحضارية والثقافية والمعرفية؟

ومن أجل الحقيقة وثقافة الأصول ولتخطي الأصول، كما يقول (الأنصاري) هل تعرفنا بصورة متعمقة أصول القرآن الكريم والسنة الصحيحة، قبل الدخول في التعريفات والمذاهب الفقهية والكلامية التالية؟ هل تعرفنا بشكل حميم قبل نشر الفكر الأشعري المتفرع عنهم؟ هل تمثلنا (الكندي والفارابي وابن سينا) وغيرهم من الفلاسفة الإسلاميين قبل الدخول في ردود الغزالي عليهم؟

هل نحن عبرنا وتعمقنا في الينابيع " الأصول" قبل الروافد (الفروع) ، وإلى المتقدم المتأصل قبل المتأخر المتفرع؟ وماذا عن قوله الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ سورة التوبة[33] الآية 31.

هذه التساؤلات: تثير فينا حربا مقدسة يتوجب شنها ضد الذات متى ما أردنا الحياة ومشاركة البشرية هموم هذا الكوكب الذي نعيش فيه وعليه حرب عربية- إسلامية ، حرب ميدانها العقول والأفئدة والصدور والوجدان، حرب ضد الذات المنتفخة الوارمة والواهمة التي تملك باقتدار عجيب متميز أن تتجاهل واقعا يغرق في الجهل والأمية والفقر والبطالة والتخلف والتبعية السياسية والحاجة الاقتصادية.

هل هي نسيت في وجدانها الجمعي الذي يؤمن بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ سورة محمد الآية 24[34].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورة الأعراف، 176[35].

فالقرآن لم يذكر العقل باسمه بل ذكر أثاره ونتائجه التي تنبئ عنه وتشير إليه مثل التذكر والتفكير والتعقل والفقه والتدبر[36].

عقلية أو ذهنية تجهل وتتجاهل واقعا حاضرا رديئا واقع عربي- إسلامي يعدد مظاهره أحد المفكرين العرب على النحو التالي: "ازدياد

المواقف القائمة على ردود الأفعال، والتطرف الفارغ، وضيق الأفق، والحيرة واليأس، وتدهور المناخ الفكري، وعودة الظواهر الطائفية والعشائرية وإنحطاط الممارسة السياسية، حيث يصبح تهور المغامرين إقداما وقوة وتصبح قناعة الجاهلين منبعا للعرفان[37].

هذه العقلية التي تتجاهل الإنسان وتضعه في علائق تطحن ذهنية ترى ما تود أن تراه، لا ما يتراءى للعيان، وتبصره الأبصار وتلمسه البصائر. عقلية نست ذاتها بحكم فسادها، في ظل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة[38] الآيات11، 12، 13.

عقلية هروبية قاصرة، عاجزة عن مواجهة الذات للذات وقاصرة الاعتماد على ذاتها، لكنها لديها الموهبة في الصراخ والخطابة والبكاء.

وتعلق اضطراباتها ومشاكلها على مشاجب الآخرين، منافقة تحتاج للأخر وترفضه في آن تحب وتكره وتغضب وتفرح بازدواجية لافتة للنظر والعقل. تكره ذاتها والأخر، تكره ذاتها لأنها لم تستطيع التخلص والتحرر من عذاباتها الداخلية (الجوانية) أي جروحها الجوانية، وتكره الآخر، لأنها لم تستطيع مقارعته أو التحرر أو الاستغناء عنه. فتجعل منه قوة عظمى أو شيطانا أكبر ومصدرا دائما للشر والشرور. ويجعل الأخر منها (الذات) بأنها إرهابية، متطرقة، بدائية، متخلفة، تابعة، ضعيفة غير موثوق في قدراتها العقلية والمادية على امتلاك التكنولوجيا المتقدمة.

فالقرآن الكريم هو مصدر العلم والمعرفة وتنمية القيم والإدراك والإحساس، وتكامل الشخصية (الذات الداخلية والخارجية) ؛ فالقرآن يحث على تطوير الإنسان في جوانب عدة سيكولوجية- اجتماعية-بيولوجية- روحية- ذهنية خيالية، علمية، لغوية...... فرديا وجماعة. ويحرض جميع

هــذه الجوانــب للوصول إلى النضج الفردي الجماعي الكامل والقوي الذي لا يضــعف عــند الاســتمرار والإيمــان والتمسك به فهو الطريق الحقيقي الأصــولي لــتكامل الشخصية في حاجات الأمن والاستقرار والسيادة والعدل والخير والسعادة وتسجيد الإرادة وليس بعد ذلك شيء آخر(39).

قــال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًا ۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَ ۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ ۖ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ سورة النحل(40) الآيات 75، 76.

فالديــن حــدد علاقــات الإنسان بالإنسان وبمجتمعه وتاريخه، وحدد علاقــات الإنسان بالأرض وعالمه، وهذا هو المنطق العلمي والعملي للحياة الإنسانية(تحقيق الذاتية النفسية المتكاملة) فالحقيقة إن الإنسان (الذات) هو كائــن بيولوجي لــه حاجات حياتية. وكائن عقلي لــه حاجات عقلية، وكائن اجتماعــي لـــه حاجــات علاقــية تقوم بينه وبين الغير وبين المجتمع إذ لا يستطيع أن يحيا بدون وجود صلة مع الآخرين، ومن ثم فهو كائن تاريخي أيضا فهو يولد ويحيا ويتطور وله علائق ديناميكية مع كتل اجتماعية متنوعة يتأثر بها وتأثر فيه(41).

العقــل لا يستطيع أن ينتج فكرا (أفكار) (ثقافة) إذا لم يتوفر غذاؤه الكافــي مــن المعــرفة. في هذا المثلث الذي يتكون من (الفكر- والعقل- والمعرفة) حيث تمثل المادة المعرفية قاعدة المثلث، وما لم تتوافر هذه المادة أمــام العقــل وبأســاليب معرفية متقدمة، فلن ينتج من فكر غير تخمينات أو تصــورات أو فــروض ذاتية، وهذا ما نلاحظه ونشاهده في الثقافة العربية الإســلامية الــيوم. فالغالــب على الثقافة العربية الإسلامية دراسات الأدب. والتراثيات والشعر والتاريخ والأيديولوجيات السياسية مقابل ضعف وضمور

المعــرفة العلمية في العلوم التطبيقية والعلوم الاجتماعية. يرى (الأنصار) "أن النهضـــات الحقيقية في حياة الأمم لا تبدأ إلا بثورة معرفية علمية موجه قــبل كــل شـــيء إلى فهم الذات (الذات الجماعية للأمة) وإعادة اكتشافها ونقدهـــا، وإن العجـــز عـــن تحقيق هذه الثورة العلمية النقدية يساوي التخبط المزمـــن فـــي المأزق العربي الراهن، حيث يعاني العرب التباسا خطير في الوعـــي بيـــن التصور الواقع، وبين الإيديولوجيا الحقيقة والرغبة والإمكان وباختصار؛ بين ما هو كائن، وما هو يجب أن يكون"[42].

وعلـــيه نحن أمة تعاني ومازالت تعاني من ازدواجية كبرى في الذات بيـــن الكـــلام والفعـــل، وهذه الازدواجية تعد من أكبر العوائق أمام التجديد الأصيل في حياة الأمم وحضارتها.

وكمـــا يقول (الأنصاري) "لأن هذه النهضات لا تسلم قيادها لمن لا يحـــترم مقالـــه فعلـــه ولا ينسجم فعله مع مقال"[43] وكما يقول: (ضاهر) الاصـــطدام بالآخـــر، فـــي حين أن الذات الواعية والمنفتحة على متغيرات العصـــر والقادرة على التفاعل الحر الإيجابي مع الآخر قادرة على الصمود والتصدي لكل محاولات التشويه والاستلاب والتغريب"[44].

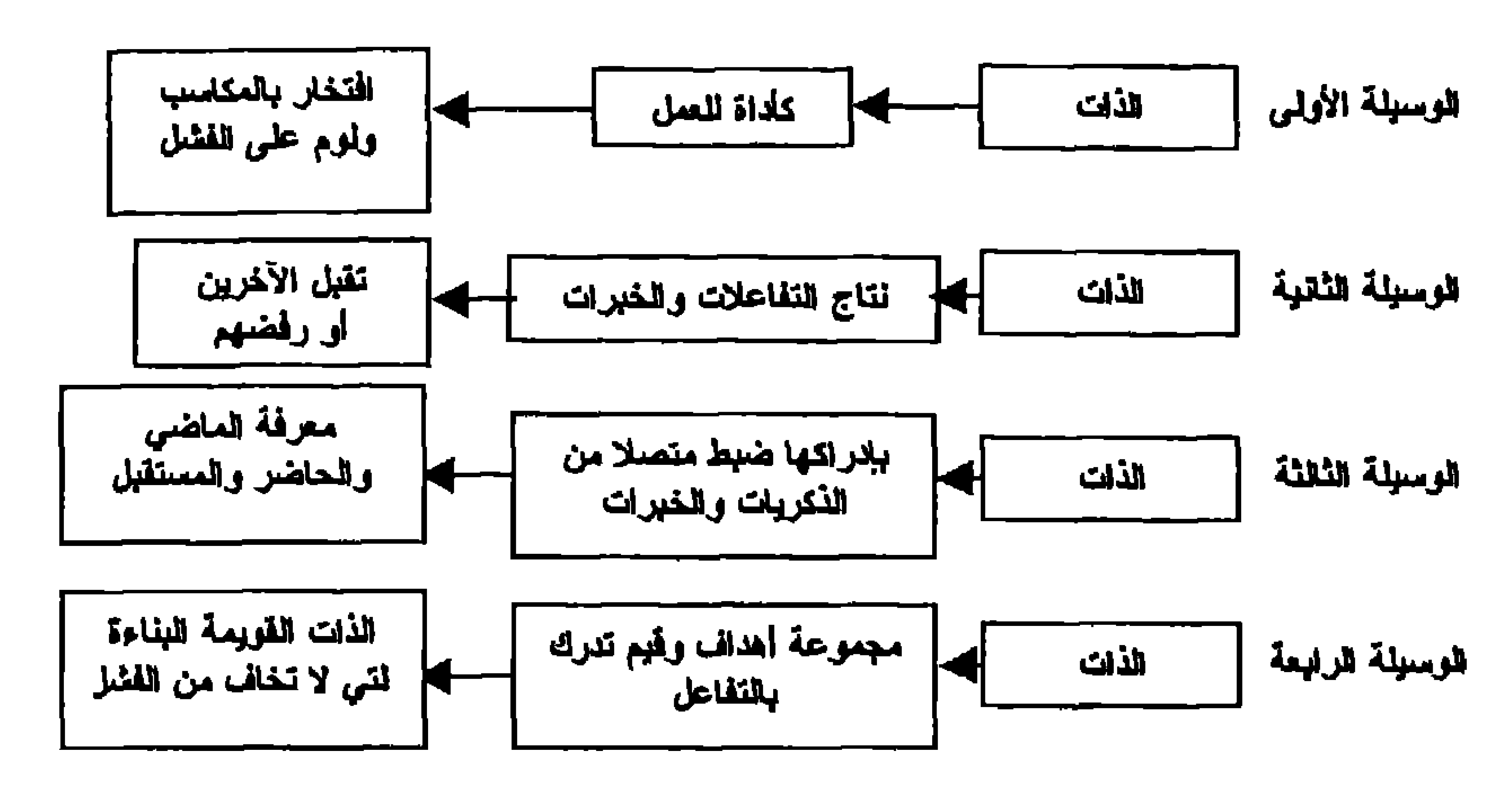
قـــال تعـــالى في شأن ازدواجية الذات بين الكلام والفعل: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ سورة الصف[45] الآية 3، وقال تعالى في شأن الذات المتقوقعة والذات الواعية والمنفتحة: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ سورة الأنعام[46]، الآية 104.

وكمـــا يرى (عبد العزيز) "فالذات القويمة التي صورها القرآن هي الشخصية التي تحسن التفكير في نفسها والآخرين، إنها الذات التي تقدر قيمة الآخرين، وتحسن التعايش معهم سعيا لبناء الذات وتطويرها، فالذات القويمة قادرة على المحافظة على نفسها، وقادرة على البذل والعطاء وهي تقبل على

الحياة متوقعة النجاح ولا تخشى الفشل"[47].

فـــلا بد من التجديد وتجاوز الذات. القويمة نحو أفق كوني أكثر رحابة مـــن السابق أي أفق عوالم الفضاء الأخر وعلاقتها بالكوكب الأرضي، وهو الأفـــق الذي يحمل في طياته لذة التجديد الدائم انطلاقا من العناصر الإيجابية والفاعلة في الأمة نفسها. هذا الأفق هو عالمية الإسلام كثقافة وحضارة ولغة وقوانيـــن، وآداب، وأخلاق، ومبادئ، وحقوق، وعمران، واجتماع، وسياسة. فالأحرى أن نلتفت إلى بنية الثقافة وعلاقتها بالذات.

ويمكن أن نقدم طرق أو وسائل لإدراك الذات باعتبارها عملية معقدة.



(نقلا عن عبد العزيز، 1997، ص 31 -32)

شكل (10) يوضح طرق أو وسائل الإدراك الذات

ولجعل ثورة الذات على الذات أكثر عمقا بوسائلها المختلفة، فقد حدد (سليمان إبراهيم العسكري)[48] في مقاله "الثقافة في زحام الإصلاح" ضرورة مراجعة الأولويات والتي تم تحديدها من خلال مجمل ما تردد في وثائق منتديات ومطالبات الإصلاح الثقافي، فيما يخص الثقافة على النحو الآتي:

1. العمل على سيادة التفكير العقلاني العلمي وتجاوز المرجعيات الخرافية والأسطورية وحصرها في مجال الفلكور الذي يمكن التحكم فيه، فالعقلانية والعلم هما الأساس، وحضورها قرين القوى الفاعلة في مجتمع المعرفة الواعد. ومفتاح التحول الحضاري والتنمية البشرية أو الإنسانية.

2. اعتبار الإنتاج العلمي والتكنولوجي والمعلوماتي خيارا ضروريا في الحياة المعاصرة.

3. تشجيع التبادل الثقافي مع الأمم والإفادة من تجاربها الناجحة، لدعم التعاون الخلاق في كل مجال دون معادة للتنوع الثقافي الذي يحافظ على الهويات.

4. التركيز على قضية الهوية في علاقتها بالخصوصية الثقافية، حيث لدى العرب تراث غني هائل ينتظر الدرس العمق والتحليل لتحويله إلى معرفة حية.

5. التركيز على اللغة العربية بوصفها مفهوما للهوية الثقافية.

6. العمل على إلغاء الإرهاب الثقافي، وإلغاء الرقابة والاهتمام بحرية الإبداع، وإعطاء مساحة كافية للمفكرين لإبداء الرأي المختلف واحترامه.

7. خلق محفزات للإبداع بمختلف أنواعه، وترويج المنتوج الثقافي من خلال المبدعين وجمعيات المجتمع المدني.

8. الاهتمام بقضية البحث العلمي والدعوة لتخصيص ميزانية معقولة لذلك، حيث لا يزيد ميزانية البحث العلمي في معظم البلاد الدينية على 1%.

9. التركيز على الخطاب الإعلامي، لما له من أهمية بارزة في تشكيل الرأي العام، وإنهاض أو تهميش محاولات النهوض الثقافي.

10. وضع الإنتاج الثقافي الرفيع في متناول الطبقات الشعبية.

بالإضـــافة إلى ذلك فإن أولوية الأولويات في الإصلاح الثقافي بل في كـل إصـــلاح، وقد صاغته وثيقة مهمة من وثائق التنمية الثقافية العالمية في صـــياغة محـــددة وشاملة" الاحترام" احترام الإنسان، كل إنسان، وهو احترام بشـــكل مـــا أسماه البعض " أخلاق الثقافة" ولن يكون هناك إصلاح للخطاب الثقافي بغير هذه الأخلاق، أي إصلاح منفصل عن سياقه الإنساني أي الثقافي يصـــير إصلاحا بلا روح ولا يعيش طويلا. فالثقافة يجب أن تكون أكبر مما تمـــتلكه النخـــب المحـــدودة حتى تكون المشاركة الفاعلة في النهوض شاملة وذات فاعلـــية فـــي تطوير الذات وبنيتها وعلاقاتها في الأفق الكوني، وحتى يـــتحقق التفكير المرن والسلام الاجتماعي، هذا التفكير الذي يعد أحد شروط التفكـــير العلمي الذي حقق للإنسان إنجازات كبرى على الصعيدين المعرفي والمـــادي خـــلال فـــترة وجيزة من عمر الإنسانية، لم تزد على ثلاثة قرون ونصـــف القرن. فالتفكير هو أرقى العمليات العقلية المعرفية، حيث يمارسها العقـــل عـــند الشـــعور بمواجهـــة موقف يتطلب تصرفا في نطاق الظروف والعلاقات القائمة. فالمرونة في التفكير مهارة إنسانية تبدو في تعامل الإنسان مـــع الأفكار وطرائق الحياة دون تشرد أو تعصب أو نبذ بل تعني الإنصات أو الاســـتماع بعمق إلى آرائهم وتحملها وإتاحة الفرص لها للتعبير. فهل في إمكانـــنا نحـــن العـــرب والمســـلمين فعل ذلك في التربية والتعليم، والإعلام باختصار شديد في (الحياة)؟

فالتفكير المرن يضفي على الأفكار (الثقافة) والعمليات الفكرية صفة ديناميكـــية، لأن هـــذا التفكـــير هو متغير أساسي لتحريك مجمل التوجهات، والأيديولوجـــيات والمقـــولات، وهـــو يحفز الأفراد والجماعات والأمم على مـــراجعة الـــذات، ومراجعة الماضي وتقويم الحاجز، وقراءة المستقبل. ومن هـــذا المـــنطلق فـــإن منهج المرونة في التفكير ينطوي على القبول بمراجعة

المقررات الفكرية الثقافية والسلوكية على مستويات العلم والثقافة معا بما فيها مـــراجعة الذات، والاستعداد لإعادة الفحص والنظر في الأحوال التي يقتضي الأمـــر فـــيها مقاومة أفكار بعينها محافظة على الهوية واستمرارها، بدلا من إشاعة التفكير المتصلب الذي يؤدي إلى تحطيم للذات والآخر وإثارة الأصول الأثنية والعرقية.

تحليل الثقافة وعجز الواقع من وجهة نظر بعض المفكرين:

تغيرات هائلة وسريعة في مسرح العالم، وعلى نحو تغيرت معه خارطة العلاقات والتفاعلات مع الأشياء، جراء الثورة الإلكترونية والعولمة الكاسحة، وثورة الكمبيوتر وثورة البيوجزيئية، وشفرات الـــ(د، ن، أ) الشخصية، وأفكار الكوكب الذكي، والآلات التي تفكر.

والحـــدث هـــنا إنما يسبب اضطرابا في المفاهيم، بقدر ما يحمل على إعـــادة التفكـــير في نماذج الرؤية والتصنيف، أو على إعادة النظر في طرق المعاملـــة والتسيير، خاصة إن الثورة الإعلامية لا تطال في أثرها الاقتصاد والمنـــتجات الماديـــة لا غـــير بـــل تطـــال طرق التفكير والثقافة، والوقت (الزمن)، والمعلومات، والمنتجات الرمزية.

هـــذا ما يحدث على أرض الواقع، فالثقافة أخذة في التغير، سواء من حيـــث أطرها ووسائلها، أو من حيث معايير وآليات إنتاجها، إنها لم تعد كما كانـــت عليه في زمن الكتاب والمطبعة أو الصحيفة، بعد الدخول في عصر الحاسوب وعصر المعلومات وبنوكه.

ومـــثلا على ذلك: أن البحث الأكاديمي الذي كان يستغرق شهورا من أعمـــال الجمـــع للمصـــادر أو ترتيـــب للمعلومـــات، لا يستغرق سوى أيام معـــدودات، في عصر المكتبات المبرمجة ذات الوسائط الإعلامية المتعددة، ممـــا يعني أنه لا معرفة تنتج، بعد الآن، من غير الاعتماد على التكنولوجيا

والتقنيات الحديثة للإعلام.

يلاحــظ في الواقع أن بنية المعرفة هي التي تخضع حاليا للتغير، بقدر مـــا تتغــير الأدوات والوسائط. ذلك أن كل تغير في الأداة يحمل على تغير مفهوم المعرفة، والفكر ذاته. فالوسائط الإعلامية توصف اليوم بأنها " شبكات مفكــرة" تــنوب عن العقل في التحليل والاستدلال، وهذا عنوان أحدث كتاب صـــادر في هذه الخصوص يعرفنا عبر عنوانه بالذات " الوسائط تفكر" مثلنا، ممـــا يدعــو إلـــى إعـــادة النظر في إشكالية الفكرة والأداة، وذلك من خلال مـــا يطلق عليه " فكرنة الآلة" ، فلا مجال بعد الآن لاحتقار الأداة التي تفكر بها أو على شاكلتها.

لقــد تســاءل (علـــي حـــرب)[49] حـــول الثقافة ومفارقاتها الكثير من التســاؤلات، والتـــي تملي علينا التحليل والنقد والاستيعاب للحالة الراهنة التي تعيشها الثقافة. ومن ضمن هذه التساؤلات كيف أوتي للثقافة السطحية والمبتذلة أو العابرة والخاوية أن تجتاح الثقافة الأصلية والعميقة أو الراقية والمتينة؟

بســؤال أكثر صراحة: ما حصيلة الثقافة التي ندافع عنها في مواجهة ثقافــة المرئـــية (الـــتلفزة) والعولمـــة؟ هل جعلت العالم أقل وحشية وعنفا أو أكـــثر عدلا وأمنا؟ من يجرؤ على الجواب بالإيجاب بعد كل هذه الحروب والقطاعات والمجاعات التي شهدها القرن العشرون؟

بـــل نـــزيد علـــى ذلـــك المذابح والمقابر الجماعية في صبرا وشتيلا والبوســـنة والعـــراق... والأولـــى أن يطـــرح الســـؤال على الثقافة العربية خصوصـــا بجانبها الأيديولوجي والنضالي، فماذا كانت الحصيلة والثمرة بعد عقـــود طويلـــة من الجهود الحثيثة والمحاولات المستمرة من أجل النهوض والإصلاح أو التحرير والتنوير أو التحديث والتغيير؟.

يلخص (حرب) الإجابة على هذه التساؤلات من أصحاب هذه الثقافة

والمدافعــون عــنها ضد الغزو والثقافة والنظام العالمي هو نهضة مجهضة أو ثــورة مغــدورة أو حريات مستباحة أو تنمية ممسوحة أو حداثة متعثرة، وهــي تعابير منتشرة في خطاب النقد الذاتي للمشاريع الثقافية والأيديولوجية، هــذا فضــلا عن الفتن والحروب الأهلية التي عانت منها الشعوب العربية، تبديدا وخرابا جراء المعسكرات الفكرية والمتاريس العقائدية.

إذن عليــنا على أي ثقافة وعن أي فكر ندافع؟ ومن هذا الجانب يمكن أن نتســاءل هل الثقافة العربية شبكة من التهويمات الأيديولوجية والهوامات النضالية حول الحرية والعدالة والوحدة أو حول التقدم والتنوير والتحديث؟.

والسؤال النقدي لا يقتصر على الثقافة الأيديولوجية، وإنما أيضا يشمل الــثقافة بمعــناها الأكثر أصالة وديمومة، بمعنى ما ينتج في مجالات الأدب، والفــن والفكــر والعلــم مــن نصوص، وأعمال أو من مقولات ونظريات، والأسئلة التي تفرض نفسها هنا هي:

مــا هو واقع الثقافة العربية اليوم؟ ما مكاناتها التواصلية والمفهومية؟ وما هي قدرتها على صوغ الحدث وتشكيل العالم؟.

فــيما يــتعلق بالشــق الأول مــن السؤال وهو (واقع الثقافة العربية، سنعرض آراء وتحليلات بعض مفكري الثقافة العربية في سياق معالجة واقع الأزمة الثقافية والحضارية في الوطن العربي.

يقدم (فؤاد زكريا) تحليلا لواقع الثقافة العربية السائدة، وفي إطار هذا التحليل ترتسم ديناميات التخلف العربي وأوجه حركته في سياق تاريخي. في هذا التحليل يميز زكريا بين وجهين للأزمة الثقافية في الوطن العربي، الوجه الأول: فــي عجز الواقع عن اللحاق بالفكر، حيث يكون الفكر متقدما والواقع لا يستجيب لحركته ونموذج هذه الحالة حال المفكرين الأوروبيين في عصر النهضــة، حيــث كــان فلاســفة التنوير يسبقون عصرهم ويمهدون للثورة

الفرنسية، أما الوجه الثاني للأزمة فيتمثل في أن يكون الواقع أكثر تطورا من الفكر، حيث يعجز الفكر عن المواكبة ولا سيما في المجتمعات المتقدمة. فهو يقـول : " أما أزمة الثقافة العربية فهي ليست هنا أو هناك، إنها حركة جمود فـي الواقـع وفي الفكر في آن واحد. وفي إطار هذه الرؤية التنويرية يعلن زكـريا أن "أنصار الثقافة التقليدية يريدون عقلا مطواعا خاضعا لا يتساءل ولا يـنقد، ويخلط بين المشكلات الحقيقية والمشكلات الفرعية، وهم في هذا الوجـه يعطـون انطباعا أن العقل شيء غير مرغوب وليس مطلوبا أصلا، ومن هنا نجدهم يدافعون عن الثقافة الهابطة[50].

ويؤكد (أدونيس) في كتابه" الثابت والمتحول" رؤية فؤاد زكريا في تخلف العقـل العربي وجموده إذ يرى أن العقل العربي عقل متبع لا مبدع، وأن الثقافة العربية ثقافة اتباع لا إبداع وتتفرد بخصائص ثلاثة: الخاصية اللاهوتية التي تتمثل فـي الغيبـية المطلقـة، خاصية الفصل بين المعنى والكلام وتفضيل الكتابة على الخطابة، وخاصية التناقض مع الحداثة والتمحور حول الماضي[51].

وعـن موقف جمود الثقافة العربية وارتباطها بالماضي، يعلن (محمد عابد الجابري) بقوله: "إن مشاكل الحاضر في ساحتنا الثقافية الراهنة ترجع فـي جـزء كبير منها، إن لم يكن في معظمها، إلى مشاكل الماضي" ، ومن منطلق أنه من هذا الماضي يتشكل خزان بؤسنا الحضاري.

حيـث يرى (الجابري) أن التحرر من التبعية للآخر لا يمكن أن يتم إلا من خلال التحرر من التبعية للماضي ، ماضينا نحن"[52].

ويؤكـد (العفـيف الأخضـر) على استغراق الثقافة العربية في لجة التقالـيد وشـواهدها. فالـنقل على حد قوله: "مازال يكفر العقل في القضاء العربي الإسلامي ومازال التقليد يقطع الطريق على التجديد، والقدامة تحارب الحداثة ويتجلى غياب الحداثة وحضور السمات التقليدية في المظاهر التالية:

- غياب الفصل بين الدين والدولة على مبدأ الدين لله والوطن للجميع.
- غياب المواطن الحديث الذي ينتمي إلى الوطن لا إلى طائفة أو قبيلة.
- غياب الفردية التي شكلت الأساس الذي قامت عليه عمارة الحداثة.
- غـياب حقـوق الإنسـان والديمقراطـية مفهومـا وممارسة في الوطن العربي[53].

ويرى (تركي الحمد) أن الأزمة للثقافة العربية المعاصرة في ثبات القيم المطلـق حيث يقول" لقد اكتسبت مجموعة من المفاهيم والتصورات والقيم صفة الثبات المطلق، وفقدت بالتالي الصلة مع الواقع والمحيط المتغير فأصبح الإدراك الـذي تنقله والأحكام الصادرة عنه إدراكا وأحكاما مشوشة، وهذا ما نتبينه من خلال التعامل العربي المعاصر مع أحداث هذا العالم وتحولاته[54].

ويضـف (الحمـد) في إيضاح جمود الثقافة العربية حيث يقول: "أننا نعـيش بيـن سندان مفاهيمنا الثقافية الساكنة ومطرقة العالم المعاصر وحركته السريعة، والعالم يتحول أمام عيننا تحولا سريعا متواترا ويقدم صيغا تتغير كل يـوم حـول المسـتقبل وصورة المستقبل، ونحن مازلنا أسرى الفتنة الكبرى وصـفين وكـربلاء وحطين وعين جالوت العالم يتحدث عن المستقبل ونحن نتحدث عن الماضي وتنقسم حول هذا الماضي المتصور شيعا وأحزابا متناحرة فـي قضية لا وجود لها أصلا، وإن وجدت فلا شأن لها في تحولات المستقبل فـي هـذا العالم، إننا نسبق الماضي على الحاضر فتخسر المستقبل ولا تدرك الماضي وتتحول إلى أمة عائمة لا هي مع هؤلاء ولا هي مع أولئك".

ويصـل (الحمد) إلى الخاتمة المحزنة" نحن أمة تنتمي إلى الماضي ذهنـيا، وتعـيش فـي الحاضر ماديا، وتريد السيطرة على المستقبل ذهنيا، وتعيش في الحاضر ماديا، وتريد السيطرة على المستقبل أملا وحلما، دون أن تمتلك مفاتيح هذا المستقبل، كيف يكون ذلك، لست أدري"[55].

أما (عبد الله عبد الدائم) فيرى أن الثقافة العربية تعيش في حالة غفوة عميقة بقوله: "إن السمة الأولى للثقافة العربية تتجسد في تخلف الإبداع وجموده في شتى مجالات الحياة، فهناك شبه إجماع على أن المجتمع العربي منذ سقوط الدولة العربية بسقوط بغداد على يد المغول والتتر دخل في حال سبات طويلة تخللتها لحظات صحو قليلة، وظل قرونا طويلة يجتر ذاته دون أن يبدع شيئا جديدا إلا في حالات نادرة"(56).

ويعرض (أنطونيوس كرم) في كتابه " العرب أمام تحديات التكنولوجيا " أن أزمة الثقافة العربية تكمن في قصورها عن مواكبة التكنولوجيا المتقدمة وعدم القدرة على تحقيق التواصل مع قيمها. وبناء على ذلك فإن الثقافة العربية تعاني من أزمة قيمية. فالقيم العربية على حد تعبيره هي:

"مزيج غريب من قيم عصور الانحطاط وقيم الاستهلاك التي يصدرها الغرب لكل الأبواب المشرعة" ويصبغ (كرم) أزمة الثقافة العربية صياغة أخرى بأن العرب غير قادرين "على الانصهار في حضارة العصر لأنهم يحلمون بالحصول على انجازات العلم والتكنولوجيا منفصلة عن النظام القيمي الذي سمح بتطويرها، وأن العرب غير قادرين على تقديم البديل لأنهم يرفضون منطق العصر ويدعون إلى منطق الماضي"(57).

أما ما يتعلق بالشق الثاني من السؤال، بالنسبة إلى الإمكانيات التفاهمية أو التواصلية للثقافة العربية، يلاحظ أن الثقافة العربية السائدة في المجال السياسي أو في الفضاء الاجتماعي بمؤسساتها وآليات عملها، لا تتيح لأهلها أن يديروا خلافاتهم بطريقة سلمية تفاوضية عقلانية إذ إن الحوار بينهم غالبا يحدث بالسيف أو بالمدفع ليس فقط على القضايا المختلف فيها بل أيضا على الوحدة أو كما يختلف الإسلاميون على الإسلام أو العراقيون على العراق أو اللبنانيون على لبنان أو السودانيون على السودان بينما نجد أن قادة المجتمعات الغربية المختلفين لغة وعرقا يتفاوضون في إدارة خلافاتهم

وصـــراعاتهم علـــى المواقع والمنافع بعقلية جدلية حوارية تواصلية تتيح لهم الوصول إلى حلول إيجابية ترضي جميع الأطراف.

فالـــثقافة العربـــية من حيث فاعلية التفاهمية مازالت أقرب إلى العجز الواضـــح وأبعد على الإمكان المناسب أو المتقدم بالرغم من كثرة الحوارات والمناقشـــات والمؤتمـــرات والإجـــراءات عن الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات المدنية.

أمـــا من ناحية قدرة الثقافة العربية على صوغ الحدث وتشكيل العالم، فإنهـــا تعـــتمد علـــى دور المثقف وفاعليته، كما يتجسد ذلك في المهرجانات الثقافـــية والمؤتمرات الفكرية التي نلاحظ الآن ازدهارها في الوطن العربي مـــن المشـــرق إلـــى المغرب. ولاشك أن لهذه المهرجانات الثقافية فوائدها بالنســـبة للمشاركين فيها، وقدر ما تتيح هذه المشاركات من ممارسة التفكير وحـــرية الـــنقد وتتيح احتكاك أو تفاعل الآراء والأفكار أو توليد التساؤلات وإعـــادة صياغة الإشكاليات. فالتحدي الذي يواجهه المثقف هو تحدي الداخل مقابل الخارج ، أي تحديات العولمة وثقافة النظام العالمي.

عوامـــل الصـــدام والتفاعل في (الثقافة والحضارة) (كما يوضحها الشكل 11)

مـــن خـــلال المشهد الثقافي العربي الإسلامي ورؤى وتيارات الثقافة، يتطلـــب مـــنا القـــيام بمـــراجعة عقلانية شاملة مفتوحة للخروج من علاقة التناقضـــات، فالـــتجربة التاريخـــية المزدهرة لأمتنا تجربة مفتوحة منفتحة، وذاتيتـــنا كانت تحقق بالانخراط في العالم ومشاركته، لا في التشكيك بالذات والعالم. أهم مشكلاتنا التقوقع في التفكير مما قد ولد انفصاما مخيفا بين ذاتنا الواقعـــية وعوالـــم الوهم التي تحتل المخيلة. وربما أيضا أن الثقافة الركيزة الأساســـية لأي أمـــة، قـــد تحولـــت في هذا القرن بفعل الانفصام بين الفكر والسلوك إلى عصابية وعصبية متخلفة.

فـــلا يخاف الغزو غير الضعيف، ولا غزو في الثقافة، بل إنك تستطيع في الثقافة تمييز الصحيح من الفاسد والمفيد من المضر والقوي من الضعيف، ومن المتحدي إلى المستسلم.

إذا كـــان هـــذا حالـــنا في الحاضر؟ إلى أين نتجه؟ هذا السؤال تكمن فيه صيغة المستقبل من منظور الحاضر، فالقدرة على استكشاف الإمكانات الإيجابية والســـلبية لإنجازات الثقافة في مستقبلها ويعني بذلك أن حضور الحاضر يشكل المســـتقبل ممـــا يجعلنا نكشف عن مكونات الثقافة في أبعادها العلائقية. يقول: (جابـــر عصـــفور) : "بـــرغم أنه من الضروري أن نحترس في التعامل مع الـــثقافات، ولا نـــتعامل مـــع أيـــة ثقافة بوصفها كتلة مصمتة خالية من التنوع أو التباين أو الصراع، فالثقافة كالواقع الفاعلة والمنفعلة في زمنها التاريخي الذي يمكـــن أن يكـــون زمنا للتحول والتغير أو زمنا للثبات والجمود، وسواء كانت الـــثقافة منتســـبة إلى هذا الزمن أو ذاك فإن نسيجها العلائقي يظل منطويا على عناصر متباينة تؤكد التنوع الذي يدل على اختلاف الاتجاهات"[(58)].

يمكـــن أن نثـــير السؤال بطريقة أخرى نتيجة الوضع الحالي الذي تم الوصول إليه من خلال التحليل السابق ما الذي فعلته الشعوب والأمم الأخرى التي كانت في مثل وضعنا الحالي الثقافي والحضاري لكنها تجاوزت وضعها وتقدمت ثم تفوقت؟

وبالـــرغم من هناك تساؤلات أخرى ذات علاقة بهذا السؤال الأساسي مـــنها "الـــثروة والثقافة" كيف يمكن توظيف الثروة في الثقافة؟ أي ما علاقة الـــثروة بالـــثقافة العربية؟ وهل استطاعت الأمة العربية التحول إلى العصر الحضاري أي عصر التصنيع والتكنولوجيا والاكتشاف بكل ما ينتج على ذلك التغـــير البنـــيوي والثقافي والعقلي أم ظلت الأمة العربية عند حدود الانتفاع المحدود بثمرة هذه الثروة دون توظيفها في عمليات أرقى كالإنتاج والتصنيع على جميع المستويات؟

الــذي يهمنـــي كثيرا هو تجاوز الوضع الحالي، وكل من يقرأ مسيرة البشرية وثقافاتها وحضاراتها، يدرك أن أصعب المواجهات التي خاضتها تلك الشعوب وأوجعها أي أكثر ألما هي مواجهة الذات لا مواجهة الآخر. مواجهة الذات من أجل بنائها وتخليصها من قيودها الذاتية وبالتالي تحقق التفوق. كما نراه في بعض النماذج الثقافية والحضارية اليوم.

ونضرب بعض الأمثال عسى أن ينطوي المثال على مثيل. لو توقفنا عند مرحلة من مراحل تطور الشعب الألماني، حيث يصف أحد المفكرين (المثالية الألمانـــية) مثالية هيجل بأنها نظرية الثورة الفرنسية "ولكن لو تصرفنا في هذه العبارة وقلنا" أن المثالية الألمانية صناعة فرنسية أي صناعة العدو"(59).

فبعد هزيمة الألمان، واندحار جيوشهم أمام قوات الثورة الفرنسية شرع المفكـــرون الألمـــان بمواجهة الذات الألمانية وساطوها بسياط النقد، والتفكر بضرورة تنظيم المجتمع والدولة على أساسات أخرى تقترب من العقلانية.

الفرنســيون، أيضـــا فعلـــوا مـــا فعله الألمان، فعندما خسرت فرنسا وانهزمـــت في نهاية الحروب النابليونية كانت الهزيمة أحد العوامل المباشرة لتلك الموجة الكبيرة والتي شكلت من المفكرين والفلاسفة والفنانين والمثقفين في القرن التاسع عشر الذين أدركوا أن المأزق التاريخي المليء بالهزائم كان نتــيجة البـــناء السياسي والاجتماعي والفكري القائم آنذاك وسعوا إلى تغيير حتى أصبحت فرنسا التي نراها اليوم.

وربمـــا من المفيد التذكير بأن أهم الجامعات ومراكز الدراسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أوروبا. وكذلك أهم النظريات والأفكار والمدارس الفكـــرية والفنـــية كانـــت نتـــيجة ورطات كبرى انحشرت في عنق زجاجتها الشـــعوب مكـــان للسقوط دوي أذهل الفلاسفة والمفكرين والمثقفين والفنانين، جعلهم يتساءلون عن جدوى العقل القائم الذي قادهم إلى الوضع والانحطاط.

وفي اليابان كما يرى (نجم الثاقب خان) في كتابه الصادر (1993) بعـنوان "الـتجربة اليابانـية وبناء الأزمة في جنوب شرق آسيا" يقول: "إن الـيابان الآن مؤهلـة لأن تكون بطل القرن الحادي والعشرين ومعها البلدان الأسيوية المطلة على المحيط الهادي"[60].

ويقـول أيضا: " إن ثمة تحديات بفعل عوامل سلبية: قدرة البشر على فهم قضايا تخلفهم والقدرة على الاستجابة الصحيحة لحوافز التقدم والارتفاع بأنفسـهم إلـى نوعـية حـياة أفضل وأن يكون سبيلهم إلى ذلك إرادة قوية، ومعارف علمية، وممارسات صحيحة"[61].

ومن هنا فإن أولى المهام هي التنمية البشرية، أداة وأساس وهدف التنمية الاقتصـادية، وتتمثل التنمية البشرية في بلوغ المواطن العام مستوى رفيعا من حيـث التعليم والمهارات والحقوق والواجبات. والتأكيد هنا على دور الصفوة، حيث هناك فرق بين الصفوة في اليابان وفي مجتمعات جنوب غرب آسيا.

فالصـفوة فـي اليابان بما حملته من مسؤولية وقيم عاملا أسهم في حل مشكلة التقدم الاجتماعي، بينما هي بتخلفها الفكري والقيمي تمثل جوهر المشكلة الاجتماعية، في مجتمعات جنوب غرب آسيا لما تفرضه وتشيعه من قيم وتقاليد واتجاهات تتعارض مع عملية التقدم وتتمحور حول المصالح الأنانية.

ويـرى (نجم الثاقب خان) أن للصفوة دورا أساسيا لإيقاظ الأمة هذا إذا مـا كانـت الصـفوة تجسـيدا صادقا ومسؤولا للقيم الجديدة في سلوكها وممارستها وفيما تسنه من معايير للإنجاز في الحياة الشخصية والعامة، وفي تحديـد الأولويـات وما تقيمه وتدعو إليه من مؤسسات تحقق التقدم الوطني السـريع. وأشار أيضا إلى نقطة مهمة تؤثر جميعها تأثيرا كبيرا في مواقف مجموعـات الصـفوة ونظـرتها وتفضيلاتها. ومن ثم يطرح سؤاله: ما هي طبيعة هذه الفوارق بين صفوة هنا وصفوة هناك؟

الصفوة في اليابان حملت هموم أمتها صادقة إذ أدركت أن الفجوة بينها وبين الغرب فجوة معرفية وعلمية وتكنولوجية صناعية.

لكـــن الصـــفوة فـــي جنوب غرب آسيا تصورات أنها فجوة دستورية وسياســـية وحقوقـــية، ومن ثم توهمت أن الاستقلال السياسي هو الهدف أولا وفـــيه الكفايـــة دون حاجـــة إلى استكمال ذلك بمؤسسات ديمقراطية وهياكل اقتصادية واجتماعية وثقافية.

بالإضـــافة إلـــى ذلـــك، الصفوة في اليابان بحكم ثقافتها تؤمن بالتغير والفضـــول المعرفـــي والشـــوري وتوافق الرأي. لذلك كان أهم إسهام محلي للـــيابان في مجال علم الحكم هو وجود نظام عالي التطور للمناقشة وتسوية الخلافـــات وبـــناء توافق الرأي والمسؤولية المشتركة، أما الصفوة في بلدان جنوب غرب آسيا فإنها لا تؤمن بأن التقدم مسيرة تغيير وتحول عن المجتمع التقليد ، وإنما ثقافتها سكونية، وتؤمن بأن الثبات والاستقرار فضيلة.

وهـــناك علاقـــة قوية بين الثقافة والتنمية، في تلك المجتمعات فالثقافة تلعب دور الحاكم لنوع الاستجابات السلوكية على الصعيد الاجتماعي. حيث يقـــارن (خـــان) بيـــن استجابات اليابان واستجابة الصين للتحدي الغربي. ويناقش الاستجابة عند كل منهما في ضوء عوامل متعددة: الوحدة الوطنية- الـــتدخل الأجنبـــي، دور السلطة- دور الصفوة- الجغرافيات- الثقافة والقيم. وقـــد أوضح أن الصين عندما واجهت التحدي الغربي وهي تعاني من افتقار للوحدة الداخلية وعدم استقرار وصراع على السلطة وعجز عن حشد الموارد المالية للتنمية؛ وندرة المواهب الإدارية لمعالجة قضايا الحكم الحديثة وفقدان مـــرونة التقبل والتغيير. وكانت الصفوة في المجتمع الصيني تتقن الكلاسيكية فقـــط. أي علـــوم السلف قانعة بها، عازفة عن سواها. وسيطر على الصين مـــزاج مقاومة الابتكار والتقدم والنزوع إلى الانغلاق والاكتفاء الذاتي. وأدى هذا الوضع إلى هزائم متلاحقة أفقدتها الثقة بالذات وأعجزتها عن وضع خطة

وطنية للتنمية عن الابتكار والتقدم. ولكن اليابان هي الوجه المقابل لهذا كله، ولقد تحولت مع عصر الإصلاح الذي بدأ مع تولي الإمبراطور ميجي السلطة عام (1868) إذ حققت ثورة ثقافية ودستورية وتعليمية وتشريعية واقتصادية أي "ثورة تحديثية شاملة لبناء دولة حديثة".

ولقـد أشـار (خان) إلى موقفين غير متماثلين في التصدي والتحدي للحداثـة فـي المجتمع الياباني والصيني بالسؤال: كيف كانت التقاليد والقيم ومجموعـات الصفوة معرقلة أم ميسرة لعملية تحويل الاقتصاد والمجتمع في كل منهما؟ للإيجابة على هذا السؤال يقول: "أن اليابان تؤمن بضرورة معرفة العـدو واستكشاف سر قوته، وامتلاك هذا السر، أما الصين فقد استنامت إلى عقدة عظمة هي إرث الماضي "بالإضافة أيضا إلى مشاريع التعليم في اليابان الذي ركز على دور التعليم كعامل محوري الأداء في العملية الاقتصادية، فقد جمـع التعلـيم في تلك المجتمعات بين التقليد والابتكار وكذلك بين الأصالة والحداثـية، وأوضـح المؤلـف أن التعليم الأولى الشامل كان ركيزة لنهضة وتنمية الإنسان الياباني وتهيئته لتلقي علوم وتكنولوجيا العصر الحديث وتوجد قـيمة ورؤاه ونظـرته إلى ذاته وتاريخه وإلى العالم من حوله وإلى مستقبله نحـو التحديات التي تواجهه، ولذا فقد أسهم التعليم في دعم أخلاقيات العمل والاعـتماد على الجهد الذاتي. والمثابرة في اكتساب المعرفة والمهارات ألا تنطبق هذه الأمثال على مثيل؟ مثيل يعاني من الجسد المربك والوضع العليل وصور كثيرة على أوجاعه وأمراضه وأحباطاته وهزائمه وتفككه وانفصاماته وتناقضـاته، إنني أتساءل أين الدواء؟ هل الدواء في أرثه عن الآباء والأجداد والسلف والخف؟ هل الدواء في تلك الخزائن التي نحملها فوق أكتافنا؟ أم أنه في تكنولوجيا الغرب المستوردة؟.

أرى أن هـذه الأسئلة لا تهمنا كثيرا لأننا نرى السؤال المهم ماذا نفعل لكي نتجاوز هذا الواقع ونحقق التقدم كما حققه غيرنا من الأمم؟ لعل النماذج

التي تم عرضها يمكن الاستفادة منها للحصول على ذلك الدواء ، فهي دروس حرى بنا استيعابها وتحليلها في ضوء توصيف وتحليل التحديات التي تواجه الثقافة العربية في وقتنا الحالي ، ويمكن تحديدها باختصار على النحو الآتي:

1- إثبات الذات وهويتها وهذا ما قصده بثورة الذات على الذات. أمتنا العربية الإسلامية تمتلك أضخم تراث عالمي. فمتى نتصافح ونتصالح ونتسامح مع تاريخنا القديم لكي يكون القديم جديدا وتجديدا؟

2- تطويع ومسايرة المتغيرات الدولية والعالمية، ومسايرة التيارات الثقافية والفكرية العالمية، وعلينا نتعمق في تلك التيارات لمعرفتها وهضمها ونقدها وتوظيفها لرقي الثقافة العربية الإسلامية وخاصة في جوانبها التكنولوجية والعلمية. بدلا من الانتماء إليها والاعتقاد فيها والدفاع عنها.

3- التركيز على ضرورة ترجمة وعرض إنجازات الثقافة العربية على المستوى العالمي، وهذا الموضوع يتطلب من أمتنا الجهود الكثيرة والكبيرة.

4- احترام وتقدير "الصفوة" من العلماء والفلاسفة والمفكرين والمثقفين في الوطن العربي والإسلامي لدورهم الفاعل للخروج من هذا المأزق. بدلا من القيود والرقابة التي تفرض عليهم. ولماذا لم تكن "الصفوة" هي مجلس الرأي أو المشورة في توافق الآراء حيث دلت النماذج والتجارب السابقة للأمم. إن الالتزام بالأهداف الوطنية والحضارية والثقافية على المستوى القومي والأممي في القيادة بشأن أولويات البناء أمر ضروري لنجاح عمليات التقدم من تحديث وتجديد وتطوير.

5- نشر مفهوم التقدم بجميع الطرق والوسائل مع الجمع بين مفاهيم عدة (الحداثة- والتجديد...) والتراث: والتقدم هنا يقصد التغيير انطلاقا من عدم الرضا عن الواقع، والتقدم بهذا المعنى هو التفاعل الاجتماعي والمزج بجميع الأنماط السائدة في مواجهة تحديات واقعية فهو شرط

الأمـــان الاجتماعـــي والقومـــي. ويتعين علينا التفرقة ثم الاستجابة بين التحديـــث والتغريـــب، فـــإذا كان مفهوم التحديث بدأ في الغرب إلا أنه يتضـــمن أفكـــار ومـــبادئ مقـــيدة لها انطباق عالمي مثل زيادة سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة وإجراء تغييرات هيكلية في المجتمعات توفر حقوقا مدنية واستراتيجيات اقتصادية للإنسان في أي مكان وزمان دون تميـــيز وتحـــول المعرفة والعلم إلى قوة، بل تحول الثقافة إلى علم لأن الـــثقافة علم. ولكن دون أن يقصد بهذا كله التخلي أو الانسلاخ عن قيم تقلـــيدية وميراث ثقافي وروحي تماما مثلما فعلت "اليابان" علوم الغرب وروح الـــيابان". يمكنـــنا القـــول "علوم الغرب والشرق وروح الإسلام والعروبة والقيم الروحية هي محور ارتكاز أنماط السلوك كافة.

6- تصـــميم مفهوم التعليم على نطاق واسع: بما أن التعليم في تلك النماذج لقـــى اهـــتماما بالغـــا وخاصـــة في جوانبه النفعية لاكتساب المهارات والمعـــرفة وتنمـــية البشرية باعتبارها رأس المال، وتهيئة المناخ اللازم لنشر التكنولوجيا وتنمية القدرات التنافسية العالمية. كما أن التعليم متغير أساســـي للحفاظ على الهوية الثقافية للأمة على جميع المستويات لجذب الجماهـــير إلـــى التـــيار الأساســـي لمفهوم الحياة على جميع المجالات (الوطنـــية- القومية- الإقليمية- الأممية- العالمية) فمن خلال النماذج والـــتجارب وجـــد أن التعلـــيم أرخص وأنجح وسيلةِ للدفاع عن الوطن والأمة ومسيرة تقدمها وتوحيد رؤيتها والانتقال من الشخصية الوجدانية (بكـــاء وصراخ..) إلى الشخصية العقلانية (تفكير- تنمية المهارات- إنجـــاز- تفوق..) ، لذلك لم يستهدف التعليم الإلزامي في اليابان توفير مهـــارات القراء والكتابة والمهارات الأساسية فحسب، بل استهدف أيضا تعلـــيم الفضـــائل المدنـــية وغـــرس عادات الكد والتعلم، وإيقاظ وعلى المواطن لإمكانات التغيير والنمو في حياته.

7- تخصـــيص المـــوارد أولوية ضرورية للأمن الاقتصادي: نموذج اليابان يعتبر مثير إلى مجتمعات العالم الثالث الملئ بالمنازعات على أن الانفاق العســكري الــذي يفــوق طاقة الاقتصاد يدمر التنمية. ويجب على هذه المجـتمعات أن تضــع فــي أولياتها القضاء على الفقر والبطالة وتهتم بالتنمــية البشــرية باســتمراره لذلك نجد أن اليابان بعد الحرب أعطت أولوية كبيرة للتنمية ووصل الانفاق العسكري الدفاعي إلى أدنى حد من الــناتج القومـــي الإجمالـــي وتوجــيه الوفــرات لميدان التعليم والرفاه الاجتماعي والخدمات.

8- اتخاذ القرارات وتنفيذها: ويجدر أن نذكر ما حدده (أوتأنت UTHANT) فــي دقـــة بالغة التطور الذي نراه اليوم من عصر الصناعة إلى ما بعد الصــناعة وأم فــوق الصــناعة فيقول: " لم تعد موارد الثروة هي التي تفــرض على الإنسان ما يتخذه من قرارات، بل أصبحت القرارات هي التـــي تخلق موارد الثروة، وهذا هو التغير الثوري الأكبر، ولعله أعظم تغير شهده الإنسان طوال تاريخه"[62].

ويقــول (توفلــر Tofler) : " على كل مجتمع واع أن يعمل حسابا لا لمواجهة مستقبل متوقع فحسب بل كذلك لمواجهة مستقبل ممكن، على أن يكون لديه تصور لمستقبل يؤثره لنفسه، ويسعى من أجل تحقيقه"[63].

فمـــن الســـمات البارزة في نماذج وتجارب تلك الأمم مثل (اليابان) القـــدرة علـــى تنفـــيذ القـــرارات بسرعة وفعالية حيث تشارك جميع الفئات والمســئولين والعامليـــن والمنفذيـــن، علـــى أساس من التشاور وأخذ الآراء والـــتفاوض والبحـــث عـــن أكبر مساحة للانفاق وتجنب التعصب والمجاملة والصـــدام. فـــي إمكان الأمة العربية الإسلامية أن تتخذ قرارات وتنفذها في الثروة وخاصة (النفط) العربي، وأن تصب هذه القرارات في عروق الثقافة والحضارة العربية.

9- تحديد أدوات الوعي في الثقافة: أداة الوعي في المعرفة كقوة هي العقل الذي يدرك أهمية العلم في التقدم والتطور الإنساني. وفتح الإسلام أمام العقل آفاق الاجـتهاد وخاصـة في العلوم العقلية، والذي يلزم له: معرفة الدلائل العقلية ومعـرفة وجه الاستنباط منها كما وضعوا لـه شروطا يوفر اجتماعها لأهلة القـدرة على الوفاء بما يقتضيه، وذلك مثل (التمكن من اللغة، الفهم والتدبر، والمعرفة بأصول الفقه، والحذق لروح التشريع وفلسفته).

فالـثقافة العربـية الإسـلامية ليست الثقافة المنغلقة وإنما هي الثقافة المنفـتحة لأنـه لديهـا خاصية الاجتهاد لكل ما هو متغير في شؤون الدنيا وعالمية الدين الإسلامي. والفارق بين الثقافتين: المنفتحة والمنغلقة هو فارق بين ممكنات الوعي بين الثقافتين في علاقتهما بمعاني مفاهيم التقدم والتخلف في الثقافة، بقول(جابر عصفور) "إن الثقافة المتقدمة هي ثقافة الوعي الذي لا يفصل بين الانشغال بأسئلة المستقبل والاعتراف بحق الاختلاف والتسامح بوصفها المظهر العملي للتنوع الذي تعتني به الثقافة. ومن هذا المنظور، فإن تقـبل "الأخـر" هو اللازمة المنطقية لاستيعاب " المغايرة" بوصفها عنصرا فـاعلا فـي المبدأ الحواري الذي يصل بين مكونات الثقافة المنفتحة، فتقبل "المغايـرة" على سبيل مستوى الحضور الداخلي هو الأصل في تقبل "الآخر" على مستوى الحضور الخارجي في الأفق الحواري الذي لا تنغلق به الثقافة على نفسها"(64).

ولقد تعلمنا من نماذج تاريخ الثقافات والحضارات،أن الثقافات المنشغلة والمشـتغلة بسـؤال المستقبل هي الثقافات المتحركة والمتطلعة إلى الانتقال أو الـتحول أي الـثقافة المنفتحة على "المغايرة" المتقبلة للتنوع والاختلاف، والمـتفاعلة مـع الآخر، فحضور المستقبل في الثقافة المنفتحة يعتبر عنصر وحضـور فاعل "ديناميكي" في تركيبها أو تكوينها، مما تتحدد قابليتها للنمو الـتطور وقدرتهـا على التقدم ثم التفوق ورغبتها في الإبداع الذاتي. وعكس

ذلك هي الثقافة المنغلقة التي بقيت فيها سؤال المستقبل، وتتقوع في مداراتها المغلقـــة- المقفلـــة- وتحجر نفسها على التطلع إلى ممكنات المستقبل بجميع الألـــوان أو الصـــور. ولهذا فإن تخلف الثقافة- أي ثقافة التخلف- هو الوجه الأخـــر لانغلاق الوعي في هذه الثقافة التي لا تقبل بحق الاختلاف وصرامة الإجماع وبالمغايرة حتمية المتشابهة، وبالتعاون الاعتماد أو الاتكالية.

وبالتســـامح العـــنف أو التعصـــب، وبأسئلة المستقبل- أسئلة الماضي المسيطرة على تطلعاتها في كل غد ممكن.

فالإســـلام فـــتح الـــباب على مصراعيه للإنسان ليدخل مختبر الكون وليـــنظر مـــاذا خلق في السموات والأرض، وليرى دقة هذا الخلق وقوانينه وتقلـــب أحوالـــه، وليرى في كل ذلك شواهد قدرة الله وعظمته فيقتنع بأهليته بالمحبة الكاملة والطاعة الكاملة ولتتوثق بينه وبين الله علاقة العبودية.

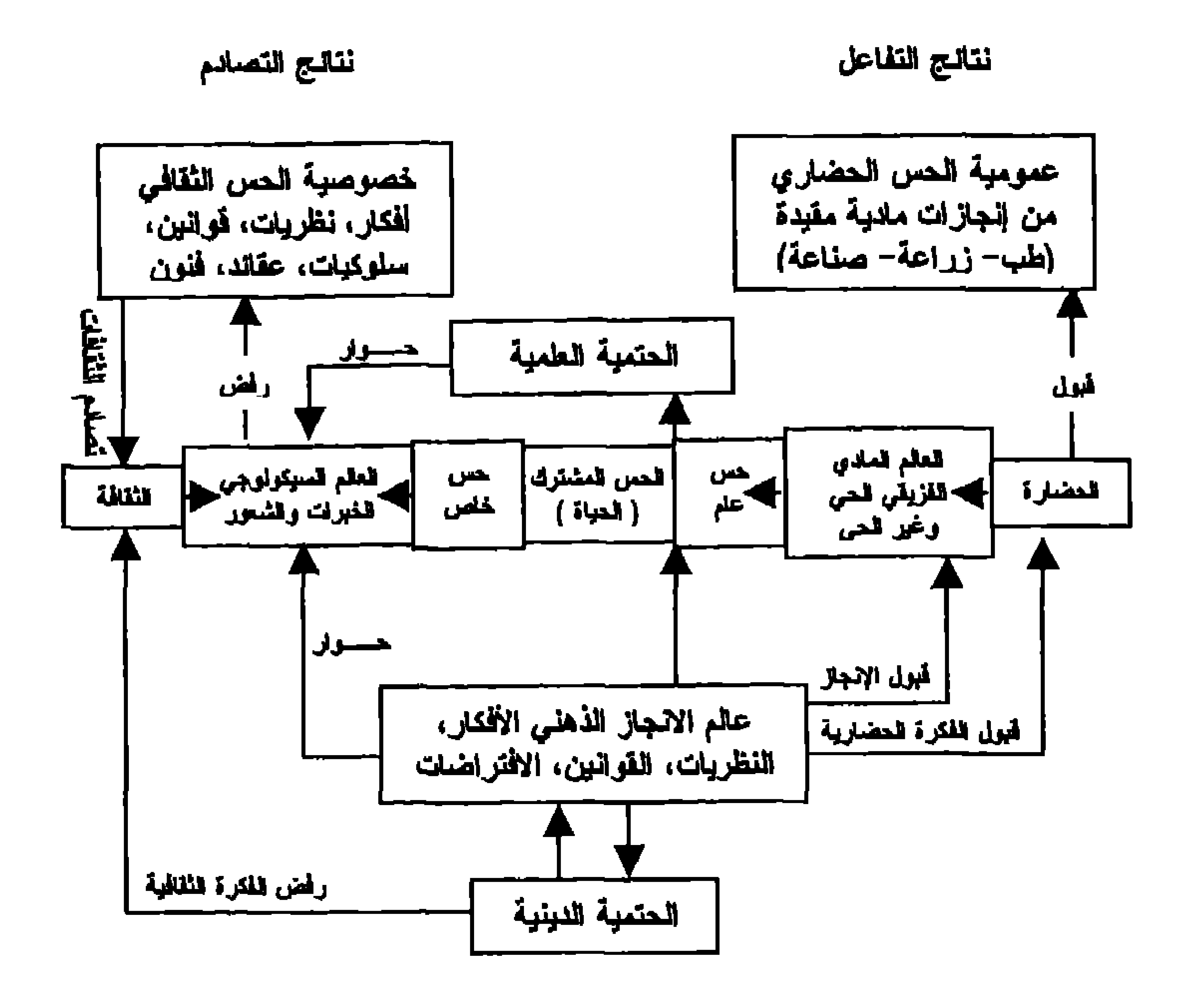
قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾. سورة فصلت[65]، آية 53.

حـــتى يتسنى للإنسان قراءة كتاب الكون وإجراء التجارب في مختبره ومعرفة أسراره جاءت العلاقة في العلم، التعليم، الثقافة، الحضارة، والتربية- بيـــن الإنســـان وبيـــن الكون علاقة تسخير. والتسخير أن الله طوع للإنسان مكونـــات الكون وأمده بالقدرات. والمهارات والوسائل التي تمكنه من دراسة هـــذه المكونات وفهم علاقتها واكتشاف قوانينها وتغير أحوالها ثم تطبيق ذلك كله والانتفاع به في مجالات الحياة المختلفة.

10- حسم العلاقة الجدلية بين العلم والثقافة: من غير شك أن للعلم دور في تأسيس ثقافة المستقبل حيث أن العلم يشكل جوهر أي ثقافة، والثقافة مع ذلـــك هي التي تتبع العلم وتطوره، وكما أن الثقافة هي التي تتبع العلم، فـــإن العلـــم هو الذي يغير هذه الثقافة ويطورها، ومن خلال متابعة هذه

العلاقــة الجدلــية بيــن العلم والثقافة في تاريخ الثقافة العربية، تبين أن العلاقــة الوثــيقة بين غياب العلم، والتدهور الثقافي والاجتماعي بشكل عــام. حيــث اتضــح أن المؤسسة الدينية في مواقع مختلفة من البلاد الإسلامية لم تقف عقبة مباشرة أمام البحث العلمي، والمشاكل التي كانت تظهــر عــن الاخــتلاف بيــن الرؤية الدينية والرؤية العلمية هي عمل السياسة أكثر من عمل الدين أو العلم.

11- المــبالغة فــي تضــخيم الذات: هناك دائما تصور التوتر في علاقتنا بالآخــر، فالأخــر فــي حالة تأمر مستمر ضدنا فهو يخافنا ويفعل كل الأشــياء مــن أجــل ألا نعود إلى الوصول إلى مقعد السيادة العالمية، أمراضــنا ليســت ذات مصدر ذاتي بقدر ما هي نتيجة تربص مستمر واستهداف تاريخي، ولن تقوم قائمة إلا بزوال الآخر. ولكن كيف يزول الأمر ونحن في هذا الحال من العلل؟ ينتج عن ذلك بروز خاصية أخرى مــن خصــائص الثقافة العربية وعقلها المنتج وهي اللاتاريخية في فهم مسار المجتمعات والثقافات فنحن ثقافة ضمن ثقافات تاريخية عديدة وأمة ضمن أمم أخرى. وبالتالي ما يجري على الغير من ضعف وقوة لابد أن يجــري علينــا. وإذا كانــت الرغبة تتجه إلى العودة إلى مجال الفاعلية الثقافــية والحضــارية، فذلك لا يكون إلا بمفاهيم جديدة معبرة عن تلك المتغيرات التي طرأت على الساحة.



شكل (11) يوضح ملخص ملحمة التصادم والتفاعل بين العوالم (العالم المادي الفزيقي للأجسام الحية وغير الحية- والعالم السيكولوجي (المشاعر والخبرة) عالم الإنجاز الذهني (نظريات- وافتراضات).

نقطة بدء التصادم والتفاعل الحس المشترك (الحياة) ، وينقسم هذا الحس إلـــى قســـمين: حس عام (مقبول) لدى الإنسانية، وحس خاص (خصوصية ثقافية) بالحوار أو التفاعل قد يقبل أو يرفض كما الشكل السابق.

- نمـــوذج الازدهـــار (الـــذات الفاعلة وعلاقتها بالمجتمع والمتغير المعلوماتي)

تتضـــح الـــثقافة الحـــية والمزدهرة في قدرتها الدائمة والمستمرة على التغـــير والتجدد، ببناء الرؤى والعوالم، أو بابتداع النماذج أو الصيغ أو بتبني المواقـــف والمـــبادرات، أو حتى باختراق المعجزات والخوارق. ألم يستطيع العرب قديما الخروج من عزلهم وعجزهم بنص خارق أتاح لهم فرصة تغيير خارطة العالم؟

وحـــتى تستطيع الثقافة العربية أن تتجسد في صيغ أو نماذج عملية في الحـــياة وتتيح للإنسان أن يتحدث بما يحذر الحديث عنه أو أن يفهم ما يمتنع فهمه أو أن يمارس ما لم يكن في استطاعته الممارسة.

إن تحويـــل النموذج السابق عمليا يبدأ الانخراط في تحليل ونقد العقليات، والمفاهـــيم والممارسات ذات العلاقة ببنية الثقافة، ودور المثقف أو بالنظرة إلى حصـــيلة الثقافة وأسلوب التعامل مع المقولات والأفكار (الثقافة والفكر)، هو هـــدف الـــرهان: فـــي تفكيك آليات القصور أو العجز وتعرية مواقع الضعف، وإعادة تنظيم سلم الأولويات لإحداث التغيير في نموذج العلاقة بين المعرفة كقوة (الثقافة) والثروة كقوة (مادية) والقوة كقدرة (التفوق).

ويمكن القول بأن تجديد النهضة لا يمكن أن يتم إلا من خلال العمل على بـــناء الـــذات وعقل الحضارة وهذا يتطلب ثورة إبستومولوجية في البناء العقلي للإنسان وفي مضامين الثقافة والحضارة العربية، أي مضامين الذهنية (العقل) والحضارة (الأشياء المادية) حتى يتمكن الإنسان العربي من إرساء قواعد بناء الذات القوية القويمة التي تحسن التفكير في ذاتها والآخرين.

وإنهـــا الذات التي تقدر قيمة الإنسان والآخرين وتحسن التعايش معهم ســـعيا لبناء الذات ثقافيا معرفيا وتطويرها حضاريا. ورفض الجمود والقهر والـــيأس والفســـاد والتبعـــية والقطعـــية. والعمل بالتواصل من خلال الثابت والمتغير والفهم والتدبر والاجتهاد والتجديد. هذا النشاط الإنساني الذي يجب أن يتســـم بالفعالـــية أو المـــبادرة أو قل بالقصدية التي تستهدف تغيير العالم وإعـــادة بنائه ولا يتحقق ذلك النشاط إلا بشروط : العقل، والجماعة- اللغة، المعـــرفة، والعمل. فالإنسان ليس كالحيوان، الإنسان لابد لـــه من وجود في حضـــرة الآخرين يرعونه صغيرا، ويعدونه بالتعليم بمعناه الثقافي التاريخي العام لرشده ثم يشاركونه راشدا في ذلك العمل الاجتماعي الراقي المنتج الذي أصبح يتسم بقدر عالي من التخصص والتشابك ولتبادل والتخصص الدقيق ثم

هــم (الآخر) الإطار الذي يمارس من خلاله وجوده وحريته، ويتلقى أيضا من خلاله حدوده التي لا يقبل لــه بتجاوزها على (ذاته أو الآخر) وإلا كان خطر النبذ، بل ربما الهلاك أو الدمار أو العقاب الرادع.

إذن المــنطلق النظر إلى الإنسان كاذات في وحدتها وبنياتها الكلي في فاعليــتها وإيجابيــتها في سعيها التاريخي وملكاتها الإنسانية النسبية المحكمة بــالعلم الإلهي المطلق والمحيط. للوصول إلى السيطرة على عالمه ومداومته على بنائه وإعادة بنائه وتجديده لعل هذا النموذج الأوفق والأصول أن ينطلق من مفهوم "الحياة" على نحو لغة الأديان السماوية، وأن نسقط مفهوم "الغرائز" لمــا لها من تاريخ سيئ ولما تنطوي عليه من اختزالية حيوانية تغفل الكيف لحســاب الكم. نقطة انطلاقنا لبدء التفاعل بين الثقافات والحضارات. "الحياة" بما هي بناء وإبقاء وتجديد وآفاق وعمل. تتجسد فيه وتتحقق من خلاله حرية الإنســان واختــباراته. يتجسد فيه مسؤوليته وحضوره في العالم عالم الناس والأشــياء، لا عــالم الأشياء فقط. وإلا ما كان العمل في جوهره قسمة بين الــناس مــنذ عرف الإنسان في فجر تاريخه توزيع العمل، وألفه بين الناس أيضــا، وإلا لمــا صار الناس شعوبا وقبائل؛ ولا ما كان هناك بينهم تعارف وكــرم واحــترام وتقدير. لأن قيمة "الحياة" وما يصدر عن الإنسان من القيم تعتــبر الشعاع الذي يبدد غياهب الظلام الفكري الذي يعتري الكائن البشري. كمــا تؤثــر على ما يتخذه من آراء أو مواقف حيال هذا العالم المضطرب؛ بــالأحداث، فــي ســائر فاعلياته فكرا وسلوكا. مع ملاحظة إلى أن التحول الاجتماعــي المتسارع الذي أدى ويؤدي إلى الاضطراب والتخبط في تصديه للأمور يهدد قيمة الحياة وجميع القيم بصورة متلاحقة، غير أن الإنسان اليوم يرد كل ما ورثه من ألوان الثقافة للاختبار.

إذ كــل شـــيء يعــتريه التغير بسرعة مذهلة بحيث لا يسعفه المنطق المعتاد بالتنبؤ لما سيؤول إليه أو ملاحقته.

أن مفهوم الحياة يقتضي التغذية والتغذية تتطلب مصادر لابد من السعي إليها وبلوغها واستهلاكها أو المحافظة عليها، فحياة البشر أكثر أشكال الحياة رقيا وثراء وتعقيدا وجود فعال وإيجابي في هذا العالم. يتصدى بالاستهلاك والهدم والتدمير وأيضا بالتجديد والتطوير وإعادة البناء. فالاعتراف بقدرة الإنسان على تغيير ذاته وواقعه من حوله في الثقافة والحضارة العاصرة، يعد أن ثقافة العصر اخترقت أسوار المشكلات التقليدية لتحتضن مشكلات الإنسان على أساس منظور إنساني شامل مؤلف من جميع القيم الحياتية، التي لها أوجه متعددة بقدر ما تتعدد المجالات التي تنطلق منها فهي في الدين والجمال والأخلاق، في كل ما يتعلق بأمور مفهوم "الحياة" من اجتماعية وسياسية واقتصادية وتربوية.. وغيرها ويبدو الإنسان في هذه "الحياة" والقيم فردا في أسرة مواطنا في أمة وعضوا في مجتمع إنساني يرتبط كماله بكمال المجموع الذي ينتمي إليه مع احترام مقدساته واحتفاظه بفرديته واستقلال شخصيته. فالإنسان ليس مثل "كلب" مقيد بمعمل بافلوف ليس أمامه إلا الانتظار حضور "المجرب" والاستجابة لما يقدمه لـه من منبهات.

ففي حقل الأديان التي لها من العمر ما عاشت الإنسانية نفسها نجد الأفكار والآمال والمشاعر التي تستمر متوهجة في صدر الإنسان المؤمن لما تحمله من قيم حياة سامية. وتعتمد الأديان جميعها على موقف معين من القيم ولعلها هي نفسها موقف قيمي صريح.

وإذا كان الدين عند "اينشتاين" هو الذي يرسم الغاية، فإن العلم هو الذي يزودنا بمعرفة الوسيلة التي تساهم في بلوغ تلك الغاية، وأن الدين هو الذي يعالج تقويم الفكر والفعل الإنساني.والعلم عنده يصبح معقدا بغير دين ويغدو الدين أعمى دون علم.

فالإسلام وهب الحرية التامة للإنسان في تأمله للموجودات والوصول إلى حقائق القول والحياة عن طريق الفعل والتفكير، فالتطور المستمر

والمتنامـــي في كل ما يتعلق بحياة الإنسان وقضاياه لا يقف من وجهة النظر الدينـــية، فـــي وجـــه قيم التجديد، والتطوير شرط الالتزام باحترام مقدساته. والـــرهان معقـــود علـــى الإنسان بفكره وإرادته وإن هذا التطور في تصديه لتغيير أشكال الحياة، مع تصاعد إبداعات وإنجازات العقل، واهتزازات القيم، وتجلـــي حقـــائق جديـــدة متجددة لا ينال ذلك من جذرية الأصول الراسخة للمعـــرفة الدينـــية. والعلم في الأساس هو اكتشاف الأصول الراسخة للمعرفة الدينـــية. والعلم في الأساس هو اكتشاف القوانين الطبيعية وصوغها، وعملية الاكتشاف والصياغة مشروطة بما يشرط كل فعل إنساني آخر، وبذلك لا يقع العلـــم بعـــيدا عـــن القيم، والقول بإنكار تعلق العلم بالقيم إنما هو تعبير عن اغـــتراب العلم عن الإنسان مصدر إنشائه، علما لأن، العلم هو نشدان الحق وتجليته، والتطابق معه، وما دام العلم يبحث في الكون فهو يبحث إذن في قيم وغايات كونية Cosmic وذلك بمعنى أن الكون يدرس هذه القيم وتلك الغايات على أنها حوادث ووقائع موضوعية.

فالدين يرفض الأمية ويكرم العلم ونشره والدعوة إلى الإبداع والتفكير فـــي الطبـــيعة وأســـرارها وفـــي الذات الإنسانية خلقا وسلوكا، والبحث عن المعرفة والحكمة من أي وعاء خرجت وقد برهنت الثقافة والحضارة العربية الإســـلامية عـــن انفـــتاحها علـــى مختلف الثقافات، فقد سبق أن اقتبست من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وتواصلت معها.

فالإنســـان "بنية" Structure كلية ، بنية يتدرج داخل إطارها "كل" مثلما الكلمة حروف لا معنى لأي منها مفردا لكن هذه الحروف كلها وبنظام معين يشـــكل بنية الكلمة- وكما تتشكل الكلمة من حروف تتشكل الجملة من كلمات ويتشكل الخطاب من جمل. هذه البنية الإنسانية يد لتعمل وعين لترى ولسان ليـــنطق، وأذنـــان لتســـمع، وعقل يجمع هذا كله ويؤلف بنية في بنيان كلي. فالإنسان بنيان كلي في عالم هو الآخر، فالثقافة والحضارة أيضا بنيان وذلك

البنـــيان لكـــي يكـــون قويا متراصا متماسكا، يتطلب ذات ثقافية قوية توفر الحماية للهوية الثقافية مثلما توفر المنزلة السامية للعقيدة الدينية.

تنتقل الثقافة إلى علم الثقافة في مجتمعنا العربي الإسلامي مطلب أساسي وربما يعتبر (ابن خلدون) في مقدمته، هو أول من نبه إلى المعنى العام لمفهوم اجتماعية المعرفة تنطبع بطبيعة المناخ الاجتماعي الذي تنطلق منه.

هذا التراث العظيم الذي خلفه علماء وفلاسفة العرب المسلمين وخاصة فيما يخص علم اجتماع المعرفة بمفهومه المعاصر والذي يجب على علمائنا ومفكريـــنا أن يساهموا في تطويره بصورة عميقة وجدية، حيث تشير دلائل عـــدة إلى أن علم اجتماع المعرفة سيصبح المظلة المعرفية لكثير من العلوم الإنســـانية خاصـــة في مجال نظرية التربية ونظرية الإعلام ونظرية القيم. يتطلب ذلك أول ما يتطلب إحياء الفكر الفلسفي وتنمية التوجه عبر النوعي أو التخصصـــي، والتخلص من تلك الثنائيات التي تتخذ في كيان الثقافة العربية" ولقد قدم (أسامة الخولي) بحثه بعنوان الثقافة العلمية في الوطن العربي هل من جديد؟ خلص الباحث إلى أننا مازلنا دون تعريف واضح وليس بالضرورة بـــالغ الدقـــة لمصطلح الثقافة العلمية ومازال الكثيرون يقصرون مفهوم هذه الـــثقافة علـــى أمـــور تبسيط العلوم الإلمام بأخر إنجازات العلم والتكنولوجيا ويدرج البعض هذا أحيانا مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن. وينظر (نبيل علـــي)[66] إلى الثقافة العلمية استهداء بما أوضحه (الخولي) كقضية ذات وجهين، ويقصد بذلك أنها تتطلب تثقيف غير العلميين علميا وتوعية العلميين ثقافيا، بل وعلميا أيضا.

فـــلا يخفـــى على أحد أن كثيرا من علمائنا باتوا أنفسهم في حاجة إلى تثقـــيف علمـــي يحـــررهم من أسر تخصصهم الضيق، ويسد فجوات الفراغ الفكري لديهم.

وكمـــا هو متوقع، لا يقر هؤلاء العلماء المتخصصون بسهولة بوجود

مـــثل هـــذا الفراغ الفكري، وغالبا ما يملأونه بمط نطاق تخصصهم العلمي، متخذيـــن منه نوعا من "الأيديولوجيا الشاملة" يفسرون بها العالم من حولهم. ومـــآل ذلك في النهاية– هو الانغلاق في ثقافة أحادية الأبعاد، واختزال العالم ومشـــكلاته في عدد محدود من المقولات والمسلمات؛ أو الوقوع في فخ "شبه العلـــم" quasi – science والســـطحية العلمية[67]. في الوضع الراهن الحالي ونحـــن نعـــيش عصر متغير المعلومات يتطلب منا نحن العرب إعادة طرح العلاقـــة وبقـــوة بين الإنسان والمجتمع وموقف جميع الفئات الاجتماعية من "الثقافة" إنها استدعاء جديد للذات الإنسانية ونظرة أكثر تعمقا وتحليلا وتحرر من دعوة (فرويد) الثلاثية، وتجاوز رباعية الجسد والغرائز والعقل والروح "جاعلـــة مـــن النضوج النفسي نتاجا لتفاعل الفسيولوجي مع الرمزي وترى الذات مشروعا رمزيا يتحقق من خلال التفاعل الإيجابي الحي مع عالم الواقع وعوالم الفضاء المعلوماتي، ومن خلال الممارسة والمشاركة وتقبل المخاطر والقـــدرة علـــى اتخاذ القرارات والوعي ببدائل الخيارات، ولابد لهذه النظرة الجديدة تجاه الذات الإنسانية أن تتعرض لعلاقة الإنسان بالآلة بعد امتزاجهما فـــي تولـــيفه "تكـــنو– حيوية" ذات طابع جدلي تكاد تفقده السيطرة على آلته والتالـــي علـــى عالمه وعلى ذاته أيضا ومن المسلم به أن لن يتحقق إلا إذا أدركـــت الفـــئات الاجتماعية المختلفة من قادة الرأي والإعلاميين والتربويين والدعـــاة الدينييـــن ماذا تعنيه ثقافة المعلومات بالنسبة للمجتمع ككل. أفراده وجماعاته ومؤسساته وعلاقته، علاوة على تحدياته وفرصه وتوقعاته[68]. كما توضحه الأشكال (12)،(13).

إن تحديـــد العقل العربي تجاوز مرحلة كونه ضرورة أو مطلبا ثقافيا، بعـــد أن أصـــبح أساسا تنمويا لدفع وتأهيل المجتمعات العربية لدخول عصر المعلومـــات ويتطلب هذا العمل أي تجديد العقل العربي، دراسة وتحليل تلك البحوث الرائدة التي قامت بها نخبة من خبرة مفكرينا من أمثال (محمد عابد

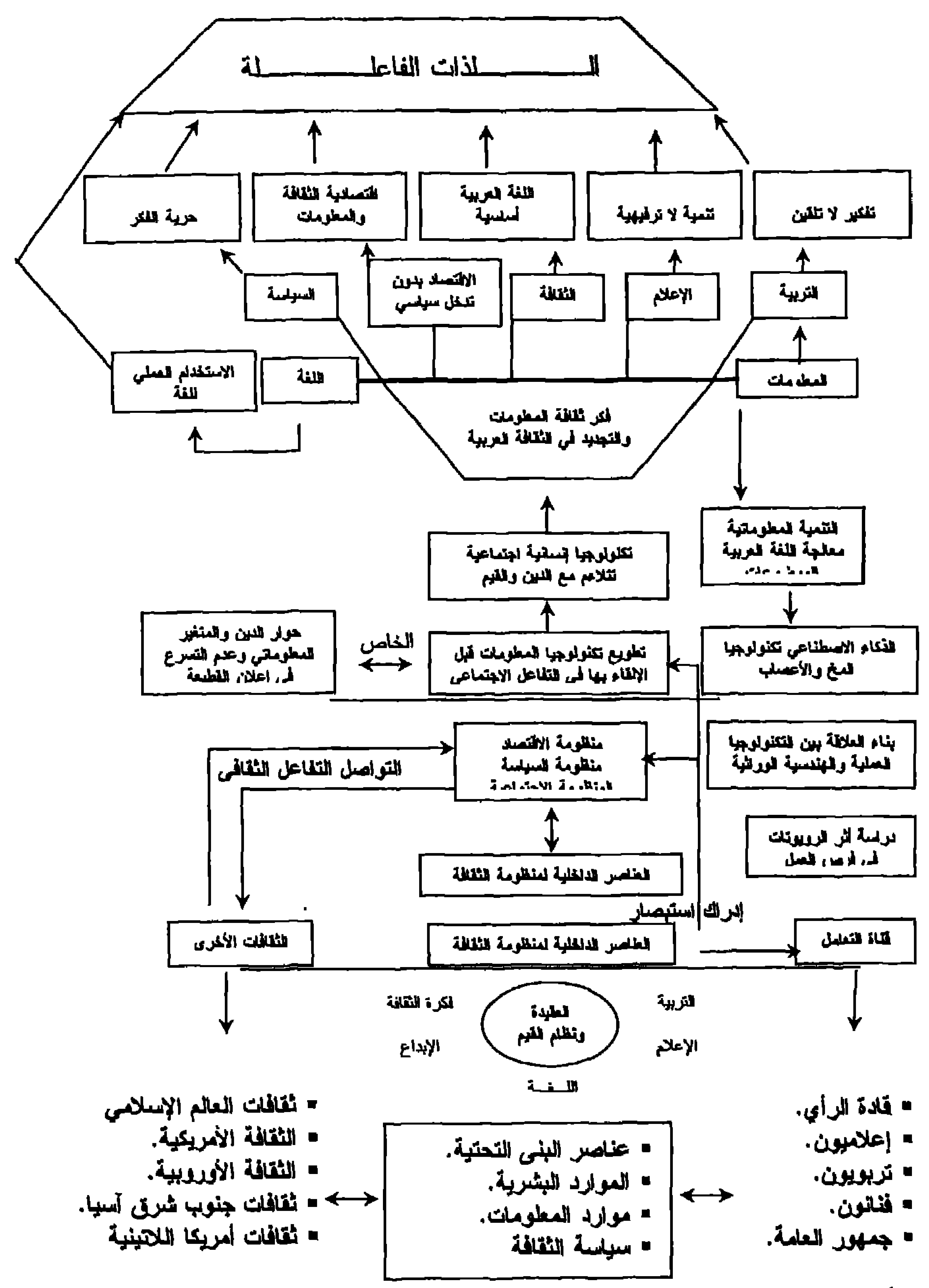
الجابـري ومحمـد أركون وحسن حنفي والعفيف الأخضر وبرهان غليون) تلك البحوث التي تناولت العقل العربي في جملته. فدراسة عقول جميع الفئات الاجتماعـية المخـتلفة أصبح ضرورة ومطلب أساسي لمتغير المعلومات مع التركـيز وزيادة الاهتمام بالثقافات الشعبية عند تناول قضايا وإشكاليات ثقافة متغـير المعلومات بالإضافة إلى عدم التوجه إلى الفصل بين ثقافة النخبة أو الصـفوة وثقافة العامة، فمن خلال عدة وسائل تستطيع تكنولوجيا المعلومات رصـد وتحليل عقول تلك الفئات الاجتماعية المختلفة. وحتى لا تكون المهمة مقتصـرة على تجديد العقل العربي العام المجرد أو المتصور Speculative. بالإضافة إلى ذلك نحن في حاجة إلى دراسة هذا العقل كما أوضح (عاطف أحمـد)[69] حـتى تبين لنا صورة الخريطة المعرفية العربية، ومرة أخرى يمكـن أن تسـاهم تكنولوجـيا المعلومات بوسائل العديدة في إجراء المسوح الشـاملة للـثقافة. ونحـن فـي حاجة إلى دراية ومعرفة أنماط فكر عصر المعلومـات مقرونة مع أنماط الفكر العربي السائد. وقد قام (نبيل علي)[70] بتجميع أنماط فكر عصر المعلومات مقرونة بعينه من أنماط الفكر العربي.

ومما لا شك فيه أن مهمة تجديد العقل العربي مهمة صعبة للغاية على جمـيع المسـتويات الأكاديمية، والإعلامية، التربوية الاجتماعية والتنويرية ولذلـك يجب التركيز على ضرورة استغلال تكنولوجيا المعلومات بوسائلها العديـدة لتعمـيق الفكر الثقافي واستغلال هذه الفكر كأداة لتوطين تكنولوجيا المعلومات في التربية العربية الإسلامية بمعناها الواسع.

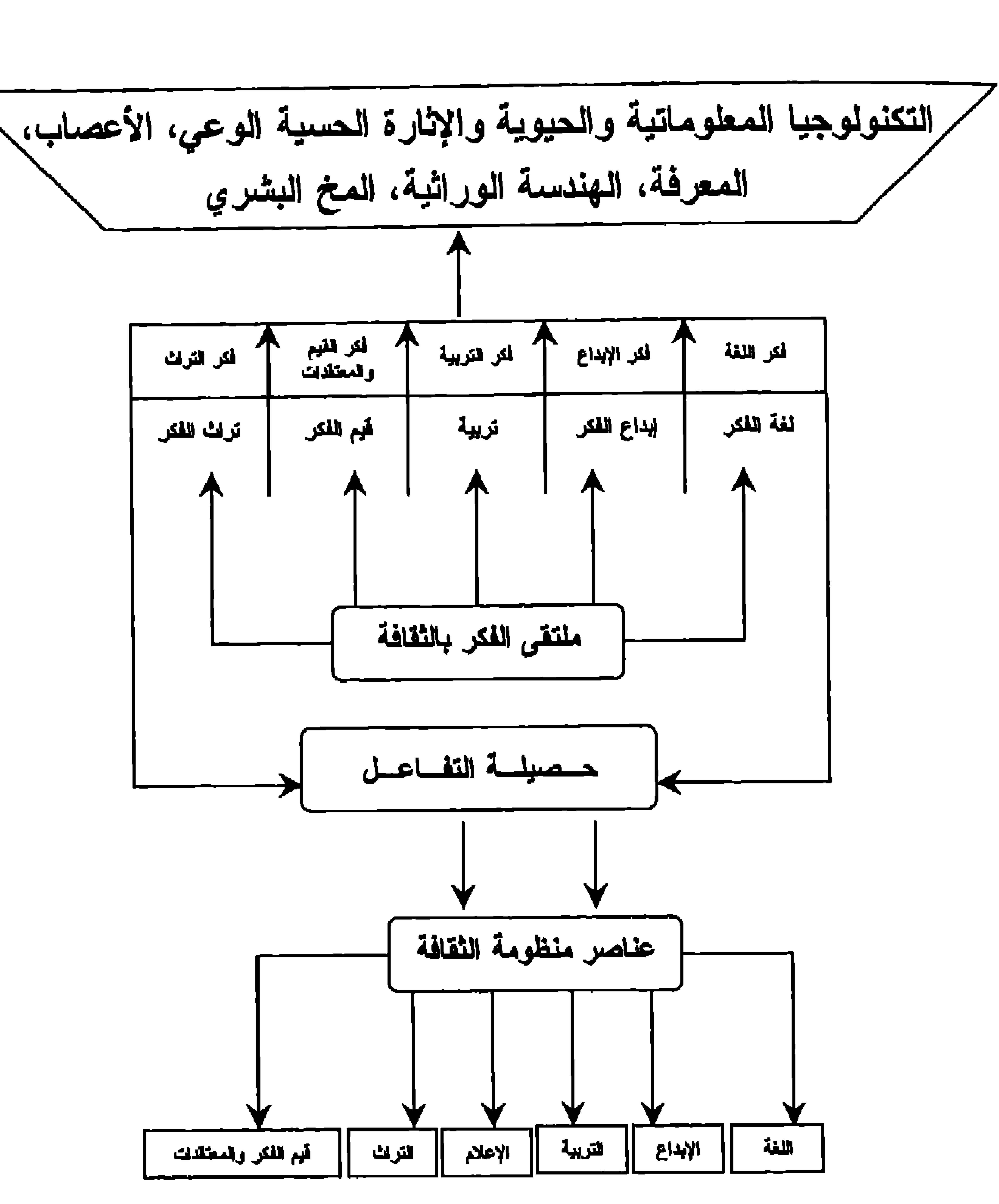
مـن خلال ما تم في الأشكال (12)، (13) كمداخل أساسية وبالإشارة إلـى توجهـات الفكر الثقافي عالميا وكذلك رصد الحاضر الحالي لواقع الثقافة العربـية. وكمـا تقـول (فريال غزولي) بتعددية المداخل النظرية وتجاورها وتفاعلها وتداخلها؛ مما يؤدي إلى إلغاء الحدود الفاصلة بينها. وهنا تظهر أهمية مـا تـم التأكيد عليه في غالبية توجهات الفكر الثقافي الحديث. "كثيفة اللسانيات

كثـيفة المعلومات. وقد أثبتت اللغة والمعلوماتية منفردتين أو متضامنتين- أنهما أداة فعالـة لإحـداث التفاعل والنماذج بين التوجهات المعرفية المختلفة ووسيلة السـيطرة على تعددها ومعول هدم للحدود الفاصلة بينها ويسري ذلك على النقد الأدبي، كما يسري على جميع مجالات العلوم والفنون".[71]

مع إيماننا بضرورة الحفاظ على الخصوصية يمكن أن تمتزج، وتندمج كـروافد تصـب في المسار الأشمل للثقافة وللحضـارة الإنسانية. ومع إيماننا أيضا أن هذا الزمن الذي نعيشه يجمع بين أزمنة متعددة، أو هو زمن تتقاطع فـيه الأزمـنة، وتتصادم دون أن يكون أقربها إلى القرن الحادي والعشرين أكـثرها تأثـيرا أو حضورا ، فهو زمن يجاور ما بين أقصى مظاهر التقدم وأقصـى درجات التخلف إنه زمن المتعارضات المتصادمة أفقيا ورأسيا من أبنـية الـثقافة والمجتمع والاقتصاد والدولة بكل مسمياتها في وطننا العربي. لعـل يكـون هدفـنا نحن العرب في هذا القرن هو التئام الهوية والتغير مع المتغيرات وتحويل الحقيقة العلمية إلى أسلوب إنتاج أو تقنية. وهذا ما نقصده بـتطويع التكنولوجـيا بالمعـنى الدقيق في المقترح أو نموذج الذات الفاعلة وعلاقـتها بالمجتمع والمتغير المعلوماتي" انظر الشكل (12) ، هادفين إلى الاقتراب أو التحول إلى مفهوم الثقافة والحضارة الكوكبية وآفاقها المستقبلية. ومـن أجـل الإنـتاج ينبغـي توافر حرية إبداع وحرية تفكير وخطة للعلم والتكنولوجيا؛ وعدم الانكفاء على الماضي واجتراره على حساب رحلة أمتنا إلى المستقبل.



شكل (12) يوضح الإطار العام لمنظومة ثقافة المعلومات المصدر، نبيل علي، 2001، 138 وتم تطويره ورسم شكل آخر معه لبيان التفاعل لمتغير المعلومات في تجديد الذات الفاعلة في الثقافة العربية.



شكل (13) يوضح ملتقى الفكر بالثقافة والتفاعل التبادلي في العلاقة بين تكنولوجيا المعلوماتية والحيوية والإثارة الحسية ونتاج التفاعل تتكون عناصر الثقافة اللازمة لتجديد العقل العربي لدخوله في عصر المعلومات

هوامش الفصل الرابع:

(1) محمد عمارة، مفهوم الحوار عند جارودي ، مجلة العربى ، العدد 462 ، مايو(1997) ، ص155.
(2) سيركارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل ، ترجمة ، أحمد مستجير، مجلة العربي ، العدد 462 (1997) ،ص 196.
(3) محمد عمارة ، مفهوم الحوار عند جارودي ، (مرجع سابق) ، ص 150.
(4) نفس المرجع السابق، ص 150.
(5) نفس المرجع السابق، ص 150.
(6) محمد عمارة، الأمام المنثور . والتجديد بالإسلام ، مجلة العرب ، العدد 454 ، (1996)،ص37.
(7) نفس المرجع السابق، ص 37.
(8) نفس المرجع السابق، ص 38.
(9) نفس المرجع السابق، ص 38.
(10) نفس المرجع السابق، ص 39.
(11) نفس المرجع السابق، ص 37.
(12) نفس المرجع السابق، ص 39.
(13) محمد جابر الانصاري، العلامة بن خلدون ، رحل منذ ستة قرون ومازال معاصرا ، مجلة العربى، العدد 561 ، أغسطس،(2005) ، ص 101.
(14) نفس المرجع السابق، ص 101 ــ 202.
(15) نفس المرجع السابق، ص 102.
(16) نفس المرجع السابق، ص 102.
(17) نفس المرجع السابق، ص 103.
(18) نفس المرجع السابق، ص 104 ــ 106.
(19) مقدمة ابن خلدون ، المجلد الأول، ط، الثالثة ، بيروت: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت (1967).
(20) نفس المرجع السابق.
(21) نفس المرجع السابق.
(22) تركي علي الربيعو، الخلدونية الجديدة في فكرنا المعاصر، مجلة العربي، العدد 561، أغسطس (2005)،ص 109.
(23) نفس المرجع السابق ، ص 109.
(24) سورة الإسراء، آية 9.
(25) سورة الذريات ، آية 20 ، 21.
(26) سورة الإسراء ، آية 36.

(27) إبراهيم صقر أبو عمشة، (مرجع سابق) ، ص 20.
(28) نفس المرجع السابق، ص 21.
(29) نفس المرجع السابق، ص 22.
(30) نفس المرجع السابق ، ص 35.
(31) برهان غليون، (مرجع سابق) ، ص 6.
(32) محمـد جابـر الأنصـاري، فـي اللحظة التاريخية الراهنة، ما يستطيع العرب فعله، مجلة العربى، العدد 451، يونيو(1996)،ص 76.
(33) سورة التوبة، آية 31.
(34) سورة محمد الآية 24.
(35) سورة الأعراف آية 176.
(36) مفتاح محمد عبد العزيز، القرآن ، وعلم النفس ، منشورات جامعة قاريونس ، (1997)، ص 132.
(37) صـلاح السـاير، دعوة صريحة لجلد الذات العربية، تسقط أو تسقط ، مجلة العربي، العدد 529 ، ديسمبر ، 2002 ، ص 54.
(38) سورة البقرة, آيات ، 11 ، 12 ، 13.
(39) مفتاح محمد عبد العزيز ، (مرجع سابق) ، ص 28.
(40) سورة النحل، آيات ، 75 ، 76.
(41) مفتاح محمد عبد العزيز ، (مرجع سابق) ، ص 58.
(42) محمـد جابـر الأنصاري، في اللحظة التاريخية الراهنة ما يستطيع العرب فعله ، (مرجع سابق) ، ص 78.
(43) نفس المرجع السابق، ص 79.
(44) مسـعود ضناهر، إشكالية توصيف الحداثة، وما بعدها ، مجلة العربي، العدد 462 ، ص 38 . مايو (1997) ، ص 41.
(45) سورة الصف ، آية 3.
(46) سورة الأنعام ،آية 104.
(47) مفتاح محمد عبد العزيز ، (مرجع سابق) ، ص 32.
(48) سليمان إبراهيم العسكري، الثقافة في زحام الإصلاح ، مجلة العربي، العدد 561 ، أغسطس (2005) ، ص 12 ــ 13.
(49) على حرب، فضائح الثقافة ومفارقتها ، مجلة العربى، العدد 468 ، نوفمبر (1997) ،ص 31.
(50) علي أسعد وطفه، إشكالية الزمن ومأزق الثقافة العربية ، مجلة العربي ، العدد 529، ديسمبر (2002) ، ص 19.
(51) نفس المرجع السابق، ص 19.
(52) نفس المرجع السابق، ص 19.
(53) نفس المرجع السابق ،ص 20.

(54) نفس المرجع السابق ، ص 20.
(55) نفس المرجع السابق ، ص 20.
(56) نفس المرجع السابق ، ص 20.
(57) نفس المرجع السابق ، ص 21.
(58) جابــر عصــفور، سؤال المستقبل ومستقبل الثقافة ، مجلة العربي، العدد (465) ، أغسطس (1997)، ص 80.
(59) صلاح الساير، (مرجع سابق)، ص 52.
(60) نجــم الثاقب خان، التجربة اليابانية ، عوض شوقي جلال، مجلة العربي، العدد 448، مارلز (1997) ،ص 202.
(61) نفس المرجع السابق، ص 203.
(62) مفــتاح محمــد عــبد العزيز ، الجامعات المنشودة للقرن الحادي والعشرين ، مجلة الآداب والعلوم ، جامعة قاريونس ، كلية الآداب والعلوم، المرج ، العدد الثاني، (1998) ،ص 344.
(63) نفس المرجع السابق، ص 344.
(64) جابر عصفور ، (مرجع سابق) ، ص 84.
(65) سورة فصلت , آية 53.
(66) نبيل على، الثقافة العربية وعصر المعلومات ، (مرجع سابق)، ص 135.
(67) نفس المرجع السابق، ص 137.
(68) نفس المرجع السابق، ص 147.
(69) عــاطف أحمد ، نقد العقل العربى ، قراءة فى التكوين والبنية في قضايا فكرية ، ص 62 ــ 88 ، قضايا فكرية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، يوليو (1995).
(70) نبيل على ، (مرجع سابق) ، ص 165.
(71) نفس المرجع السابق، ص 165.

الفصل الخامس

المستقبل من خلال القرن العشرين

تفاؤل أو تشاؤم:

في ثنايا هذا القرن المتقلب سواء في بدئه أو في منتصفه أو في منتهاه تضـــع المواعيد الألفية في الشعور البشري وتراثه وأساطير تحمل الكثير من الاحـــتمالات والتنبؤ والأمل، فقد ورد في بعض المأثورات أن موعد القيامة أي ســـاعة القـــيامة، ألفـــان لا يأتلفان "وكل" ألفية" لها تداعياتها التفاؤلية أو التشاؤمية في تراث الحضارات والثقافات للشعوب والأمم.

وها نحن الآن أمام الألفين وخمسة، هل ألفا أم ائتلفا؟! إنها سنوات ليست ســـهلة على العرب والمسلمين لقد دمرت أفغانستان والعراق وتفجيرات في كل مكان لقد مات من مات وسجن من سجن ومن الأرجح في هذه المنطقة العربية والإسلامية سوف يزيد اشتعال النار.

فهذا أوان الصمد أو "أوان الشد" تتحدث وتخطط للعوام 2010- 2015- 2025- 2050- وتـــربط هـــذه الأعوام المستقبلة -بعد الألفين- إما يتضاعف عدد السكان على الكوكب الأرضي المتعب، أو بظهور المجتمع الياباني كقوة عظمـــى، أو يتحول الاقتصاد الصيني إلى أضخم اقتصاد قومي في العالم. أو بارتفـــاع عدد الأجناس الملونين على عدد الأجناس البيض للمرة الأولى في تـــاريخ أمريكا بعد عام (2050) بما سيجعل من أمريكا عملاقا ملونا أقرب إلى أفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم الثالث وعالم الجنوب منه إلى أمة القارة الأوروبية البيضاء. هذا إذا ظل عملاقا حتى ذلك الحين، ربما سيظل مهزوما قبل ذلك الحين، ويصبح قزما تاريخيا.

مـــن الواضح جدا أن معظم هذه الاحتمالات أو التنبؤات هي من أجل صـــالح القوة الصفراء في آسيا، وبما نقول "القوة الصغيرة في كل شيء إلا

العقـــل" وهـــل يتمشى هذا مع بعض الأمثال التي تقول كل طويل عملاقا هل وكل قصيرا مكيدا- أعني صاحب "حكمة" أو تدبر؟! وهذه التنبؤات نذير شؤم للقـــوة البيضـــاء الغربـــية، عدا مستقبل "أوروبا الموحدة" التي قد تسمح لها ليبراليـــتها، وعقلانيـــتها، ونظمهـــا الديمقراطية المنقحة المرنة بالتغلب على مصاعب التراجع والتصدع والتفكك والانحلال في الحضارة الغربية وقيمها، ومجـــتمعاتها وقواهـــا بحيث تجد ذاتها وربما تصبح قوة أساسية، إذا لم يقوم ذلك العملاق بتذويبها أو ذلك القصير بتغريقها اقتصاديا.

هـــذا حديث وتنبؤات المستقبل وعلينا أن نرجع إلى الماضي منذ مطلع هـــذا القـــرن، لعـــل الماضي يعطي شرعية للحاضر، ولأن المجتمع العربي اعـــتمد علـــى الـــتراث بينما أوروبا اعتمدت على الشكل المتوازن للتاريخ والتراث. وفي نظرنا أن الماضي عندما يحضر في الحاضر يرسم ويساعدنا لرســـم صورة المستقبل. نحن الآن في حالة صدام[*] بين أوروبا في مواجهة العالم الأبيض في مواجهة الأصفر؟.

ألا يلاحظ أن القرن العشرون في نهايته وكأنه "ثورة الألوان" جميعا على اللون الأبيض في العنصر والحضارة والقوة والذوق وكل الأشياء، أنه قرن "الانقلاب" بامتياز، أنه قرن "انقلابي" الطابع والهوية"[1].

وإذا كان في الإسكان تحديد تنبؤات المستقبل من خلال القرن العشرين. علـيـــنا أن نتســـاءل مـــتى بدأ القرن العشرون لاحقا؟ في تقديرنا لم يبدأ القرن العشـــرون فـــي عـــام (1900) ولكنه تأخر إلى عام (1914) بقيام الحرب الكونـــية الأولى. أما الأعوام السابقة لبدء الحرب من هذا القرن فهي تنتمي في فكـــرها وروحها وامتددها العقلي والنفسي لزمن القرن التاسع عشر في أوروبا خاصة. حيث تقرر مصير القرون الأربعة الأخيرة من تاريخ العالم "منذ القرن الســـابع عشـــر، فقـــد ظل الاعتقاد المطلق بتواصل التقدم والعقلانية وتهذيب الطبـــيعة البشـــرية هـــي المسيطر إلى أن حدثت الحرب الكونية الأولى. وهذا

القرن "العشرون" لم ينتهي عام (2000) كما هو متوقع زمانيا، لقد انتهى عام (1989) أي سقوط الاتحاد السوفيتي، وانهيار جدار برلين. فالعمر الحقيقي "للقرن العشرين" ينحصر ما بين عام (1914) وعام (1989) هو بداية تمهيدية للقرن الحادي والعشرين. فهذا القادم الجديد ماذا سيكون لونه؟

إذا كان الماضي شاهد سقوط الإمبراطوريات الصينية، والعثمانية والهنغارية- النمساوية في بداياتها وسقوط الإمبراطورية السوفيتية والمعسكر الشيوعي والأيديولوجية الماركسية في لحظة النهاية.

قرن بدأ بسقوط الأباطرة الكلاسيكيين وانتهى بسقوط الأباطرة الراديكاليين- مرورا بسقوط "شمس الأربين".

إنه قرن "ماكر" وفي التاريخ مكر يتخطى كل الماكرين!"[(2)] قرن بدأ بأبشع وأفظع أنواع الألحادية والمادية وحشيتا، وانتهى بأشد أنواع العنف والتعصب والأصولية.

النظريات المسيطرة على الفكر والسلوك البشري:

بشكل تقريبي والاتجاه إلى المعالم الأساسية والانعطافات الكبرى الفكرية في القرن العشرين، رأينا عرض ثلاثة نظريات علمية ساهمت واحتلت المشهد الفكري والثقافي والحضاري في أوروبا، وتركت ذلك المشهد العالمي فريق منبهر ومعجب وفريق منطقي ونافر، وفريق يجمع بين هذا وذاك أن يرفض حينا ويقبل حينا أخرى. والنظريات الثلاثة هي:

1- النظرية الداروينية : في علوم الأحياء والتاريخ البيولوجي للكائنات الحية بما في ذلك تطور الكائن البشري ذاته، وهنا كان مؤشر خطرها والاصطدام الفكري والثقافي الذي أثارته بين الفريق القائل بالتطور الطبيعي المادي للكون والإنسان والفريق القائل بالخلق الإلهي الروحي كما أقرت وأجمعت على ذلك جميع الديانات السماوية والدعوات الروحية.

2- الماركسية في علوم الاجتماع والاقتصاد والتاريخ والسياسة وهي نظرية "مادية" أخرى أرجعت المجتمع الإنساني وتاريخه ومستقبله إلى جدلية مادية وتاريخية تقارب وتماثل في العلوم الاجتماعية حتمية" القوانين الطبيعية" في الفيزياء والأحياء والفلك وغيرها من علوم الطبيعية. ومن أجل المفارقة أن الماركسية "نظرية ثورية" تدعو إلى تغيير جذري. لكنها ترجع في الوقت ذاته إلى "حتمية" مقررة. وهنا ممكن الاصطدام "الرجعي" التحجري في هذه النظرية الذي لم ينكشف أو يتعرى إلا بعد منتصف القرن.

من خلال التناقض الواضح بين حتميتها وثوريتها انزرعت- فكريا- جذور سقوطها المدوى الذي شهدناه في نهاية القرن العشرون.

بعد أن تصور الكثيرون المعجبون والمنبهون بها الثلاثينيات ثم الخمسينات أنها على وشك أن تحسم حركة التاريخ في ثقافاته وحضاراته وتقذف بالقوى الرأسمالية في "سلة" بل في "مزبلة" التاريخ، حسب خطابها المتداول. أما ما حدث فكان على العكس من ذلك وكان مفاجأة الأيديولوجيا لذاتها مفاجأتها المفجعة وغير السارة.

3- التحليلية الفرويدية في علم النفس الإنساني : وهي نظرية تنظر إلى التكوين الداخليّ الاتي للكائن البشري وطبيعته الغريزية وهي كالداروينية والماركسية، تستند إلى مفهوم (جنسي) للفرد الإنساني في الأساس، وإن تعمقت (حفرت) في طبقات اللاوعي وتأثيراته الخفية (المظلمة) في السلوك البشري الذي أرجعته أو فسرته إلى الدافع الجنسي. أي إلى "البهيمي" الحيواني.

وانطلقت هذه النظريات في تكوين الإنسان وتفسير سلوكه وتطوره وتاريخ حياته (داروين) في تكوين الإنسان و(ماركس) في تطور المجتمع وطبيعة النفس الإنسانية (فرويد) كانت انطلاقه هذه النظريات من علوم

الفـــيزياء فـــي الطبيعة والفلك وهو علم تطور القرون السابقة للقرون العشرين وخـــاض الصـــدام ومعاركه الشهيرة ضد التصور الديني المسيحي في أوروبا بالاســـتناد إلى تحليل المادة الطبيعية تحليلا "علميا تجريبيا" اختباريا ومختبريا، لاســـتخراج خصائصـــها وقوانينها، كما هي على مستوى الطبيعة باستقلال أو حتى بتناقض مع المفاهيم الكنسية للمعتقدات المسيحية والغيبية (الميثافيزيقية) بعامـــة حيـــث تـــم الفصـــل أو العـــزل والبنـــيوية بين "الفيزياء" أي الطبيعة و"الميتافيزيقـــيا" أي ما وراء الطبيعة واقتصر تركيز البحث العلمي والفكري، وإمكانات اليقين المشترك بين العقول على المستويات الطبيعية وحدها.

وقد صارت الميتافيزيقيا والأفكار والتصورات الماورائية في المفهوم الأوروبي الحديث بعامة، قصرا على قناعات الإنسان الفردية وتجاربه الذاتية دون التقيد بمرجعية اعتقادية جمعية شاملة، ومن أهم كوامن القوة في هذه النزعة العلمية الحديثة واستمرارها قدرتها على تجاوز ذاتها باستمرار وتصحيح نظراتها واستعدادها لتقبل أي نقد يوجه إليها من خلال منهجها وكشوفها المتتابعة ذاتها، بما ميزها عن أي منظومة عقلية –فكرية– ذهنية أخرى في التاريخ البشري لا تملك القدرة على نقد الذات وتجاوزها.

هل نحن العرب نستطيع ذلك في قرننا هذا؟ ونجمع بين القرآن والاجتهاد والعقلانية المؤقتة: ففي آيات التدبر والتعقل والتفكر والنظر فقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ سورة النساء[3]الآية 83.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ سورة التوبة[4] الآية 122.

مـــن نعـــم الإســـلام على العقل أنه لم يحظر عليه الاجتهاد في ميدان يســـتطيع الاجتهاد فيه، فباستثناء الغيب وما لا يستطيع العقل أن يفقه كنهه أو

يستقل بإدراكه. فالاجتهاد ظل سنة مستمرة على مر تاريخنا الثقافي والحضاري، لم يخل منه عصر مثله في ذلك مثل التجديد الذي تحدث عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها".

من المطلق إلى النسبية في العلم : أم من العلمانية إلى الروح:

استطاع البرت اينشتاين، عالم القرن العشرين بامتياز المتوفى عام (1955) أن يصحح مفهومات أساسية في أفكار جاليليو، ونيوتن على الطبيعة والكون وذلك من خلال نظريته " النسبية" التي بها الثنائيات والتصديات العلمية الكلاسيكية بين المادة والطاقة وبين المكان والزمان. فقد أثبت بدلائل علمية جامعة تستند إلى تعددية "الأبعاد" المكانية وفي الزمان إمكانية التفاعل والتحول بين هذه الثنائيات العلمية – والفلسفية وصولا، عبر وحدة المعرفة إلى وحدة الكون والحقيقة سيبقى إنجاز اينشتاين هو عام (1905) من أهم الثورات العلمية والفكرية في القرن العشرين، سواء على الصعيد النظري أو التطبيقي. وإذا كانت نظرية اينشتاين قد أثبتت بالمقابل أن "التغيير" والصيرورة لا الثبات– هما أساس الوجود وكل الظواهر في هذا العالم. وستبقى فلسفة التغيير من أخطر معطيات القرن العشرين للخير أم للشر، أو للسلام أو الدمار.

هذه النزعة العلمية المادية حققت لأوروبا عبر الكشوف والتكنولوجيا والمخترعات الكثير من "التقدم" الاقتصادي والتعليمي والصحي والتطور العمراني الشامل بالإضافة إلى ما وفرته لها من قوة الهيمنة على العالم.

فإن هذه " العقيدة المادية" الجديدة –إن صح ذلك– تضمنت "معجزاتها" الأرضية الملموسة من داخلها إن صح التعبير أيضا– بما قدمته لأصحابها من منافع وقوة ومتعة، وأصبحت مصدر تفكيرهم ومبعث سلوكهم على

مختلف المستويات: الطبيعية، الاجتماعية، والنفسية، والاعتقادية، فأصبحت المعيار الذي يحكمون به على الكون والطبيعة بعامة. المادي وغير المادي، على السواء. ومن هذا التصادم أو الخلط والتضخيم والتجاوز لهذه النزعة "العلمية" المادية المتطرفة والثقة الأولية المطلقة الزائدة بها في الوعي الأوروبي -فيما يقع تحت مجهرها، وفيما لا يقع- ستتولد معظم الأزمات الفكرية والثقافية والروحية التي شهدها القرن العشرون تباعا، وسيصبح تاريخه الفكري عبارة عن تحفظات وتعديلات وتراجعات وصدمات في المشهد الأوروبي ذاته لهذه النزعة العلمية المادية المفرطة. خاصة في الميادين الروحية والاعتقادية والإنسانية الفضائية والأخلاقية القمية التي لم تقبل "الإندراج" أو"القبول" أو "الانضمام" في خانة العينات المختبرية والإحصائية البيولوجية والفيزيائية والكيميائية للمادة الملموسة والمحسوسة التي مثلت وحدها ميدان الانتصارات الحقيقة للعلم الحديث وأثبتت الشرعية الباهرة التكنولوجيا.

كل ما تم قوله في ميدان العلم يعبر عن "المحول والمتغير" أو "المعدل" أو"المصحح" أو "المستبدل" في التاريخ فسحب، أما "الثوابت" فلم تزدها حركة متغيرات القرن إلا قوة وصلابة تبث العلم وتثبت التقنية ومعها الفكر الحر، انتصرت الديمقراطية والليبرالية ومعهما مفهوم الاقتصاد الحر المنضبط بالمسؤولية الاجتماعية.

ثبتت الحقوق الإنسانية وانعقد الإجماع عليها. وثبت قبل كل شيء وبعده، الإيمان بالله وبالدين الحق في قيمه الجوهرية القائمة على الرحمة والمحبة والتسامح والغفران.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ

يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ سورة الأنعام[5] الآيات 26، 27، 28.

فالقرآن الكريم يصور بشكل رائع أثر القيمة الإدراكية في قصة سيدنا إبراهيم الذي أدرك بفطرته أن هناك إلها قادرا مسيرا، وأنه يحب أن يبحث عنه. فالقدرة الداخلية على تمييز الخير من الشر تعد أحد الأبعاد المهمة للفطرة في سيكولوجية الإنسان.

وقال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سورة الإسراء[6] الآية 85.

وهذا يؤكد الجانب الروحي في طبيعة الإنسان وتكوين شخصيته لما لهذا الجانب من أهمية عظمى في حياة الإنسان وفي حياة مجتمعه.

كتب بعض المفكرين ومنهم المفكر الوجودي المؤمن (بول تيليك Tillick) في سبعينات القرن العشرين : "في بداية حضارتنا الغربية اخترنا "العقل" بديلا وحيدا عن التقاليد والاعتقادات الموروثة. كان ذلك قرارا عظيما وشجاعا وقد أعطى الإنسان بالفعل كرامة جديدة.

لكننا باتخاذ ذلك القرار استبعدنا "الروح" مصدر طاقة الحياة وحيويتها.. لقد كبتنا قوة الروح الحبيسة لتدمر إسار العقل وتفقدنا الاتزان "ويقول أيضا لقد قررت الحضارة الغربية أن تبني لذاتها مجتمعا علمانيا، وكان ذلك عظيما وكنا بحاجة إليه، فقد أزال سلطان الكهانة المتحكمة باسم الدين ولكن هذا القرار ذاته حرمنا من أعمق ما يمنحه الدين: الشعور بالمعنى اللامتناهي بالحياة وامتلاك سر الوجود وجوهره، والآن في نهاية عصرنا العلماني نشعر بالاقتراب من الهاوية لافتقارنا إلى ذلك الإيمان المنقذ المخلص"[7].

ولقد كتب (أرنولد توينبي) فيلسوف التاريخ في عصرنا حيث قال:

"يبدو أن الخلاص الوحيد للإنسان في عصر الكمبيوتر هو الصفاء الروحي الداخلي. ذلك الصفاء الإيجابي المحب الذي لا يمكن تحقيقه بإدمان المخدرات أو الاستسلام للتعصب والعنف...".

ويقول(ف- هايولد) "شيء ما يحدث في العالم"، إن جميع المؤسسات وجميع أنظمة الفكر من علمانية ودينية قد وصلت درجة التمازج والانصهار، لقد اهتزت الأسس القديمة ولا يمكن أن تسع الدنان العتيقة الخمرة الروحية الجديدة، ونحن على وشك المرور بقفزة من تلك القفزات التطورية الهائلة التي تمر بحياة الإنسان العقلية والروحية"[8].

تلك "الثوابت" وهذه النظريات هي العدة أو القوة الإنسانية لخوض معارك القرن الحادي والعشرين. ولنا تساؤل هل في استطاعتنا نحن العرب والمسلمين ما دام هناك إيمان بأن الروح من أمر ربي وعلمنا قليل؛ في هذا القرن نقترب من العلم اقترابا نافعا ومفيدا ؛ أم نستسلم للتعصب والعنف والطائفية واليأس؟ لعل في هذا الطرح فائدة وعبرة.

الانتعاض العربي / الجيد بدل الرديء:

هذا الانتعاض للعقل العربي في هذا الوقت بالذات، ضروري لارتباطه بالحياة والقدرة على التمييز بين الأشياء. فالملاحظة أو المشاهدة إنه ما تراجع هذا العلم. الاختباري أو التجريبي المادي في المجالات الإنسانية والروحية المحض، بقدر ما اندفعت مسيرته المتصاعدة دون تراجع في مجال البحوث العلمية والكشوف والاختراعات والتطبيقات التكنولوجية وجوانب أخرى مثل "التنظيم" المؤسس والمجتمعي وكل ما له علاقة بالأدوات والوسائل والوسائط الملموسة. في حياة الإنسان والمجتمع. وهذا التعارض يجب تأكيده للعقل العربي المعاصر. وللأمة العربية في زماننا المعاصر الآن بالذات. وهذه دعوة "لثورة الذات على الذات" ، فإذا كان العلم المعاصر

وتقنياته ومنظوماته قاصرا في المجال الروحي والأخلاقي، وليس من الصواب أو الحق تحكيمه فيها، أو اعتماده مرجعية لها، فإن هذا العلم لا يمكن الاستغناء عنه في مجالات الحياة التنظيمية والعقلية والعلمية كافة. ولن تقوى أو تحافظ أية أمة على وجودها أو إثبات ذاتها إذا لم تمتلك مقوماته ومنطقه العقلي التحليلي والنقدي في مجالاته المنطقية المشروعة. ويشكل التقدم الكبير في علوم في مجالاته الكمبيوتر والحاسوب والروبوت بالثورة المعلوماتية المنبثقة عن ذلك، فضلا عن ثورة الاتصالات الفضائية وآفاقها وكذلك الهندسة الجيناتية الوراثية، يشكل هذا كله شواهد دافعة ومتجددة على أن العلم المعاصر والتكنولوجيا ظهرا ليبقيا ويتقدما بإطراد وبلا توقف، وذلك بعد أن تخلصا من إدعاءات اليقين الفلسفي والاعتقاد المطلق الذي ارتبط ببداية الانطلاقة الأولى لظاهرة العلم المعاصر الحديث.

فقد شهد القرن العشرون مختلف أنواع التراجعات والانعكاسات على مستوى السياسة والفلسفة، ففي السياسة، شاهد القرن العشرون انهيار- الإمبراطورية القديمة والايديولوجيات الحديثة. وفي الفلسفة انهيار المثل والأخلاق والمبادئ. لكن هناك شيئا واحدا ظل ثابتا وراسخا وقويا ومؤكدا خط سيره. ويبدوا أنه سيظل ثابتا ومؤكدا أيا كانت مستجدات القرن المقبل أو مفاجأته.

إنه تقدم العلم والتكنولوجيا. في مجالاتها المشروعة، بلا توقف وبلا تراجع. وهذا الاتعاض يعتبر الدرس أو التجربة الثمينة لمن يريد استخراج العبر من فلسفة التاريخ. ويقترح (محمد الرميحي)[(9)] أن مواجهة الطفرة الساحقة للحضارة الغربية والصعود المتنامي لبعض الحضارات الأخرى الكلاسيكية يفرضان ثلاثة أمور مركزية :

الأول، مراجعة المنجزات التاريخية، أو منجزات حضارة التراث.

والثاني، تحديد وضع حضارة التراث هذه بإزاء حضارة الغرب.

والثالـــث، بـــيان موقع حضارة التراث من جميع الحضارات الكبرى واقتراح صيغة مجدية للتعايش معها.

عندما نحلل عناصر أية ظاهرة، حيث يتداخل الحي مع الميت والنهار مـــع الليل يجب ألا يفوتنا التمييز والفرز بين أي "توأم" وآخر في أية "ولادة" تاريخية. فعندما تأتي حركة تاريخية ما، في كل حقبة من حقب التاريخ، تبدو للعيان وخاصة الوهلة الأولى متداخلة لا انفصام بينها. ثم يبدأ الفرز التاريخي علـــى أرضـــية الواقع عبر الدرس أو التجربة التاريخية البشرية. فإذا التوائم المكونـــة لتلك الحركة –عناصر الظاهرة– ولو كانت توأم سامية – عناصر سامية – تنفصل عن بعضها تدريجيا إلى أن تتباعد ويموت من يموت، ويحيا مـــن حي عن بينه، ويذهب الزبد جفاء أما ما ينفع الناس فيبقى في الأرض. فقـــد بقـــي العلـــم والتكنولوجيا وانتكست وانهارت الفلسفات المادية الملحدة المـــتطرفة التي بدأت في البدء وكأنها جزء أي "توأم" أي عنصر "لا ينفصم عـــنها وتلـــك "آلـــية" تاريخية لا بد منها، وهي فكرة الجدل الديالكتيكي التي أورثهـــا القرن السابع عشر (هيجل) للقرن العشرين، والتي تحتوي انشقاق أو انفصـــال الكائـــنات التاريخـــية عن أصولها الواحدة لتصبح خلقا جديدا، تتصـــادم أو تتصـــارع – تفـــاعلا – فيما بينها إلى أن يبقى المفيد والأصلح وينتشر ثم يتولد منه نقيض فيبدأ جدل جديد. وهكذا سنة الله في خلقه ﴿ تُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ ، وقـــال حســـن العطار (1766 – 1853) قولته : "إن بلادنا لابد أن تتغير أصولها ويتجدد فيها من المعارف ما ليس فيها"(10).وتابع ذلك رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي ومن تبعهما من الإصلاحيين العرب المحدثين.

وعلـــيه فإن فكرة الجدل الديكالكتيكي يجب ألا يتخوف منها العقل المسلم إذا جردت من مدلولها ومعناها المادي المسرف المتطرف الضيق الذي حبستها فـــيه الماركســـية المادية وعادت إلى فضائها الفكري الطليق كما طرحها العقل

الإنسـاني المؤمـن. كما في فلسفة هيجل مثلا. فالماركسية أساءت إلى الفلسفة بعامـة. مثلما أساءت بشكل متطرف إلى العلم ذاته بأفكارها الإلحادية المادية. ويتطلـب مـن العقل العربي الإسلامي في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحالـي مـن نظرة عميقة تمييزية بين الأشياء كي لا يفوته الجيد منها مظنه الردئ أو السيئ.

العقل أو الغريزة / البناء أو الدمار:

عـند انتهاء الحرب العالمية الأولى وبدء مرحلة ما عرف بفترة ما بين الحربيـن أصـبحت أوروبا كائنا آخر، فقد أطلق على فترة "ما بين الحربين" مرحلة "الوهم الكبير" في تاريخ القرن العشرين حيث أختلطت الرؤية وانقسمت أوروبا على نفسها، ليس في الحدود والسياسة فحسب بل في الأعماق النفسية، والضميرية والأخلاقية كذلك.

فقـد كانت أوروبا بعد الحرب الأولى أمتين : أوروبا المنتصر وتمثلها دول الحلفـاء، وأوروبـا المنهزمة وتمثلها ألمانيا وتوابعها. وفي فترة ما بين الحربيـن (1929) قـبل عودة الأمتين إلى حرب جديدة بعشر سنين رئيس الـوزراء الفرنسـي فـي حينه –أرستيد بريان BRIAND– ليدعو إلى قيام "الولايـات المـتحدة الأوروبـية" وذلك في عصبة الأمم بجنيف، وبرغم أن دعوتـه فـي ذلك الحين قوبلت ببرود شديد ووصف دبلوماسي أوروبي تلك الجلسة بأنها: "مراسم دفن من الدرجة الأولى".

ففـي فـترة ما بين الحربين أظهرت الطبيعة الإنسانية "المتحضرة" في أوروبـا من فظائع ونكوص في تلك الحرب اتضح أن فكرة التقدم في السلوك الإنسـاني المتحضـر فـي جميع أبعادها ليست مسألة مفروغا منها كما شاع الاعتقاد حتى عام (1914). وأن العقل البشري مهما أوتي من علم لن يتحكم أو يصـب المشـاعر والأحاسـيس والعواطف، ولن يجدد الغايات، وأن أبدع

بعلومـــه التكنولوجـــية الوسائل، والاختبارات والمقاييس والأدوات. فقط ظهر "وحش" الكهوف الحجرية من جديد في إهاب الرجل الأوروبي وتحولت المدن الحضارية المادية إلى :

"تنيـــن مـــتمدد يشـــرب البحر ويبتلع البردون أن يشبع" ، كما وصف ميخائيل نعيمة مدينة نيويورك.

ولقـــد أصدر فيلسوف التاريخ سبنجلر الألماني كتابه عام (1918) وهو عام سكوت المدافع بعنوان (انحدار الغرب) The Decline of West.

وكـــان مغـــزى هذا الكتاب واضحا، والكتاب يقرأ من عنوانه. وبعدها بـــأربع سنوات (1922) أصدر (ت. س. اليوت) الشاعر الإنجليزي الكبير مرثيـــته الشهيرة للحضارة المادية الجديدة وإنسانها بعنوان: الأرض اليباب أو الخـــراب The Wastes Land والديوان يقرأ من عنوانه أيضا. من جانب آخر لقد حاول بيرجسون الفيلسوف الفرنسي؛ تبني إدخال "دفعة" روحية في مجرى الـــتطورية الداروينـــية المادية بنظريته، في "الدافع الحيوي" Elan Vital الذي استقبلته الأوساط الإيمانية والدينية في الغرب (وكذلك في الشرق الإسلامي) بارتياح كبير لأنه أعطى بعدا إيمانيا متعاليا لعملية التطور ونكرته، ربما يبعدها عن الحتمية الإلحادية المادية التي ارتبطت بها في البداية.

أمـــا علـــى صـــعيد علم النفس التحليلي فقد أعلن جوستاف يونج عبر دراسات مطولة– أن "اللاشعور" المؤثر في الإنسان وسلوكه ونفسانيته مردة إلى الجنسي والشبقي والشهواني كما ذهب فرويد. وإن "كبت" أو كبح الحاجة الدينية في أعماق الإنسان الحديث هو أساس "عصابة" النفسي وعقدة الأخرى، ولـــيس مـــرده إلـــى الحاجات الجنسية التي وصلت إلى حد الثورة الجنسية الإباحـــية الكاملـــة في ستينات القرن العشرين ، تلك الإباحة التي لا تعرف الحـــدود والعلاقـــات. هكذا كانت محاولات العودة الإيمانية في أواسط القرن واضحة على أكثر من صعيد، ولدى العقول والنفوس الكبيرة ذاتها التي نشأت

في مطلع نشأة علمانية مادية. في توجهاتها الأساسية.

كمـــا حاول أبرز المفكرين الداروينيين في القرن العشرين، وهو أدولس هكسلي، إعطاء الفلسفة التطورية بعدا أخلاقيا يتسامى نحو "روحانية" جديدة في العالم الجديد الشجاع The New Brave World محاولا بهذه الحماسة المتجددة، احـــتواء نزعة التشاؤم في أوروبا القرن العشرين. وكانت محاولته عبثا، حيث أصـــبح العبـــث في الفلسفة الوجودية والأدب الوجودي لسارتر ولكامو- بناء فلســـفي ونفســـاني وأخلاقـــي متكامل. وجاءت تجربة الحرب العالمية الثانية (1939-1945) لـــتزرع فظائعهـــا ولتعمق هذا الشعور العبثي The Absurd وتجعـــل منه فلسفة أجيال بأكملها وصار جمهور المسرح الأوروبي في ليالي الثلوج والصقيع الروحي معلقا ومجمدا "في انتظار غودو" الذي يأتي ولا يأتي!

ويجـــب ألا تفوتنا المفارقة التاريخية الساخرة التي جاء بها تاريخ القرن العشرين: فالمجتمعات الشيوعية التي لم يكن مباحا في فكرها وأدبها غير التعبير عن "التفاؤل" بانتصار الواقعة الاشتراكية العتيدة، انتهت بالتصدع والانهيار، أما التجمعات الليبرالية التي بالغ مثقفوها في التعبير عن قلقهم وضياعهم ونفسوا عن مكـــبوتهم كلـــه، فقد استطاعت بناء نفسها، وتحقيق خيار تاريخي بالتدرج نحو وحدة أوروبية شاملة. ذلك درس من دروس القرن العشرين جدير بالتأمل أيضا، وذلك مظهر آخر للجدل الديالكتيكي الحقيقي. لا الجدل المزعوم الذي تتفاعل فيه عناصر السلب والإيجاب ليتحقق البقاء للأصلح.

ويمكـــن أن نصل إلى بعض الحقائق في القرن العشرين والتي لابد أن ننتبه إليها:

1. يلاحظ أن القرن العشرين لم يشاهد حروب أو صراعات بين الرأسمالية والشـــيوعية وكـــل الحروب الكبرى كانت بين الرأسمالية ذاتها من أجل أسواق العالم.

2. وجــود القوى الرأسمالية وحدها في المشهد العالمي، لا يعني بالضرورة نهايــة الــتاريخ كمــا تنــبأ فوكاياما، فالصدام يمكن أن يستمر بين هذه الرأسمالية ذات الطبيعة التنافسية حتى الصعيد الأيديولوجي بحيث تطور كــل الرأســمالية أيديولوجيتها الخاصة بها لتميز ذاتها. أما تصادمها أو صراعها في مجال الاقتصاد والمصالح فمسألة لا تحتاج إلى أدلة.

3. أن رأســماليات الحاضر والمستقبل يفصل بينها وللمرة الأولى في تاريخ العالم، فاصل ثقافي حضاري وعنصري خطير.

فالرأسماليات الثقافية– والحضارية الأوروبية والأمريكية تنتمي إلى الثقافة والحضارة أي إلى الديانة المسيحية الغربية والجنس الأبيض. أي اللون الأبيض. أما الرأسمالية الثقافية– والحضارية اليابانية الأسيوية الأخرى البارزة والصاعدة فتنتمــي إلــى الثقافة– والحضارة الشرقية البوذية أي العقيدة البوذية– والجنس الأصــفر. إذن يمكــن القــول وللمرة الأولى في تاريخ العالم البشري ستكون الصــدامات والمواجهات الرأسمالية غير منحصرة في التنافس الاقتصادي. بل ستشمل التنافس عناصر أخرى ثقافية، حضارية، دينية، عنصرية، مما قد يشكل صــدام أشد وأقوى من ذي قبل. فهل هذا هو نهاية التاريخ أم بداية جدلية جديدة لحركة التاريخ من نوع آخر أكثر مدة وجدة وربما أكثر تطرفا؟

هــذه الفكرة عبر عنها بروفيسورها رفرد الأمريكي، ديفيد هنتجستون، عام (1993) تحت عنوان (صراع الحضارات) ثم تسويق هذه الفكرة في الإعــلام الغربــي علــى أنها فتح فكري مبين! وذلك خاصية من خصائص الاختلال الفكري الثقافي في القرن العشرين.

توقعات القرن الحادي والعشرين:

لقــد كانــت هناك ثلاثة محاور أساسية للعلم في القرن العشرين هي: الــذرة والكمبــيوتر والجيــنات. وقد يكون التنبؤ في غاية الصعوبة وخاصة

عندما يكون الحديث حول المستقبل. وبحلول نهاية القرن العشرين كان العلم قد وصل إلى نهاية حقبة تاريخية. كاشفا أسرار الذرة وجزئ الحياة ومخترعا الكمبيوتر الإلكتروني، وبهذه الاكتشافات الثلاثة الأساسية التي انطلقت بتأثير ثـورة الكم quantum وثورة الـ DNA وثورة الكمبيوتر، ثم أخيرا التوصل إلى القوانين الأساسية للمادة والحياة والحوسبة.

فالإنسان اليوم يبدو على عتبة ثورة أخرى، فالمعرفة البشرية تتضاعف مـرة كل عشر سنوات وقد خلف العقد الماضي معرفة علمية أكثر مما خلفه الـتاريخ البشري بأكمله. وتتضاعف قدرة الكمبيوتر كل ثمانية عشر شهرا ، أما قدرة الإنترنت فهي تتضاعف مرة كل عام وتتضاعف سلاسل الـ DNA التي يمكن تحليلها مرة كل عامين.

ففـي كـل يـوم يبشـرنا "الإعلام" بمعناه الواسع بتطورات جديد في مجـالات الكمبـيوتر والاتصـالات والتكنولوجـيا، واستكشاف الفضاء أي (الحضـارة الماديـة). وفي أعقاب هذه الثورة التكنولوجية تنقلت صناعات وأسـاليب حياة (الثقافة) بكاملها رأسا على عقب لتؤدي إلى نشوء أو صدام آخـر. غـير هـذه التغيرات السريعة والمدهشة ليست كمية فقط ، إنها آلام المخاض أو الصدام لمولد عصر جديد ثقافيا وحضاريا.

الإنسـانية اليوم (مرة أخرى) مثل أطفال يمشون على الشاطئ، ولكن المحـيط الـذي عرفه نيوتن صبيا قد اختفى إلى حد كبير، فأمام الإنسانية يمتد محـيط جديـد، ليس مثله الذي عرفه نيوتن، إنه محيط الإمكانات والتطبيقات العلمية غير المحدودة معطيا الإنسانية الإمكان لأول مرة أن تسيطر على قوى الطبـيعة وأن تصـوغها إلـى حد ما حسب رغباتها. بتشكيل وصياغة ثقافة وحضـارة جديدة. لقد ظلت الإنسانية خلال معظم التاريخ الإنساني تقف موقف المـتفرج على رقص الطبيعة الجميل، ولكن الإنسانية اليوم على أعتاب عصر جديـد لا نعـود فيه متفرجين سلبين على رقص الطبيعة، بل نشارك فيه بذلك

الحس العام ألا وهو "الحياة" الحياة بشكلها الإيجابي في تصميم رقصاتها. وبأن هــذه الفكرة (فكرة الحس المشترك الحياة) هي التي سوف ومن خلالها علينا تعلــيم أطفالــنا زرع الزهور بدلا من قطفها وستسمح لنا بأن نقطف ثمار ألفي عــام من العلم إن عصر الإبداع، الاكتشاف التفكير الخارق، التفوق بامتياز في العلــم يقــترب من نهايته ليفتح فكرا وثقافة وحضارة لعصر جديد هو عصر السيطرة على الطبيعة.

فالحاجــة إلــى العلم والمعرفة والقيم والحاجات الفكرية والعقلية التي تتطلبها الحياة الإنسانية أكدها "الدين" فهو لا يحطم هذه الحاجات عند الإنسان وإنمــا يقومها ويزيدها تهذيبا ويمنحها أكثر قوة وقبولا لدى الإنسانية لما فيها من فائدة وإصلاح.

فــي الــثقافة والحضارة قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ سورة طه الآية144 [11] .

وقال : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سورة الإسراء،85[12].

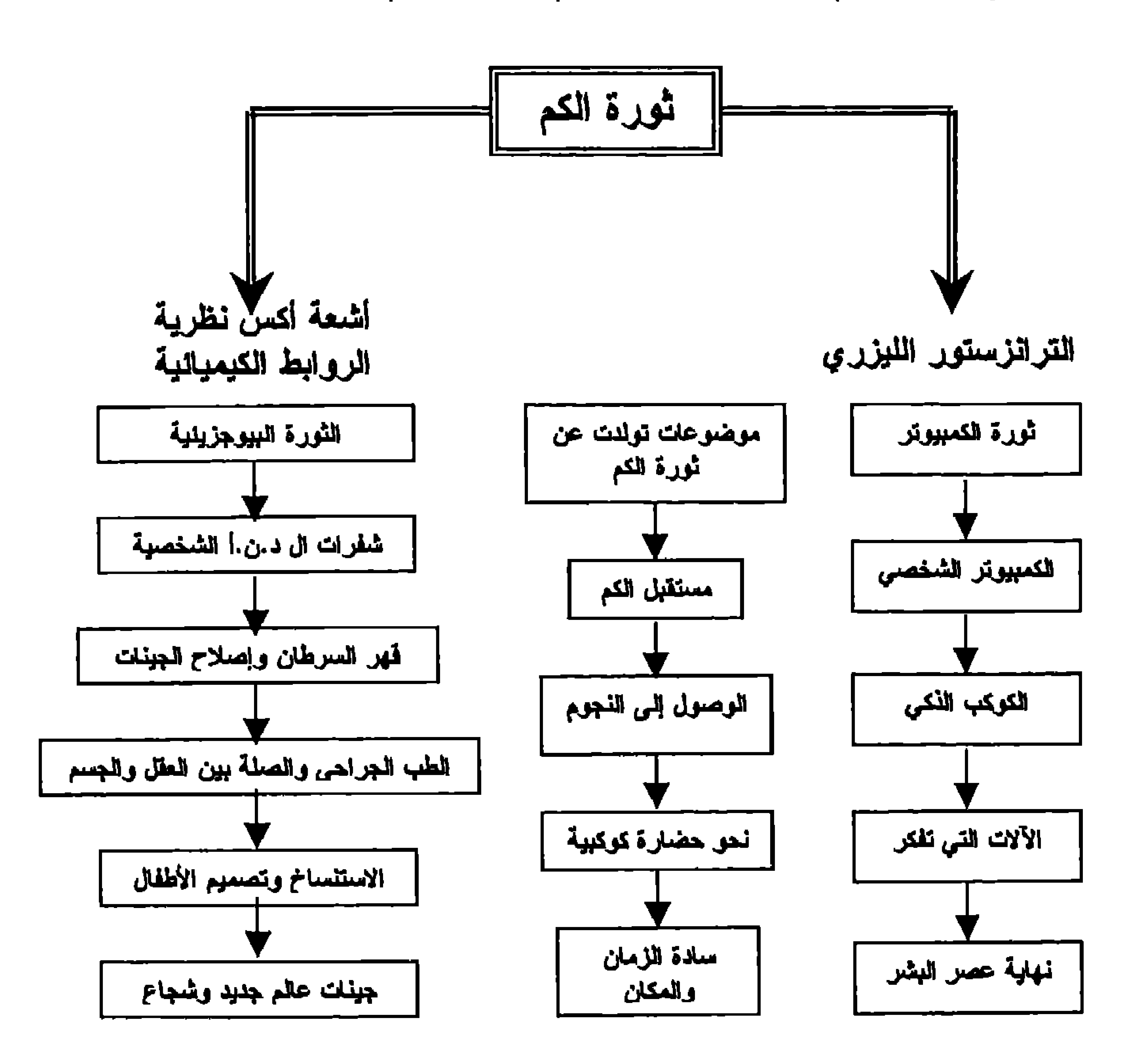
فهذه الآيات تؤكد على أن الحاجات العقلية كالفهم والمعرفة والحاجات المعرفية والعلوم في حالة تصاعد لا ينتهي.

ومــن هنا نتساءل كيف سيبدو المستقبل؟ هناك تنبؤات خيالية ضخمة حــول العقــود القادمة وهناك كتب قدمت الخيال العلمي حول القرن الحادي والعشــرين. هــذه التنبؤات حول المستقبل هي الوجهة المطروحة من خلال علمــاء محترفون أقرب إلى تبني بشكل أكبر على وقائع المعرفة العلمية من تلك التي يقول بها نقاد اجتماعيون أو حتى علماء من الماضي أبدوا تنبؤاتهم قبل أن تصبح القوانين العلمية الأساسية معروفة بالكامل.

والواقــع أن هــناك إجماعا شبه تام بدأ يظهر بين أولئك المشتغلين بالبحــث العلمــي حول كيفية تطور المستقبل أو كيف يبدو؟ ولأن القوانين

نظـريات الكم والكمبيوتر والبيولوجيا الجزيئية قد أنجزت بشكل جديد فمن الممكـن للعلمـاء أن يتنبأوا بشكل عام بطرق التقدم العلمي في المستقبل. (لهذا السبب الأساسي في أن التنبؤات التي قدمت هنا هي -على ما اعتقد- أكثر دقة من تلك التي تمت في الماضي[13].

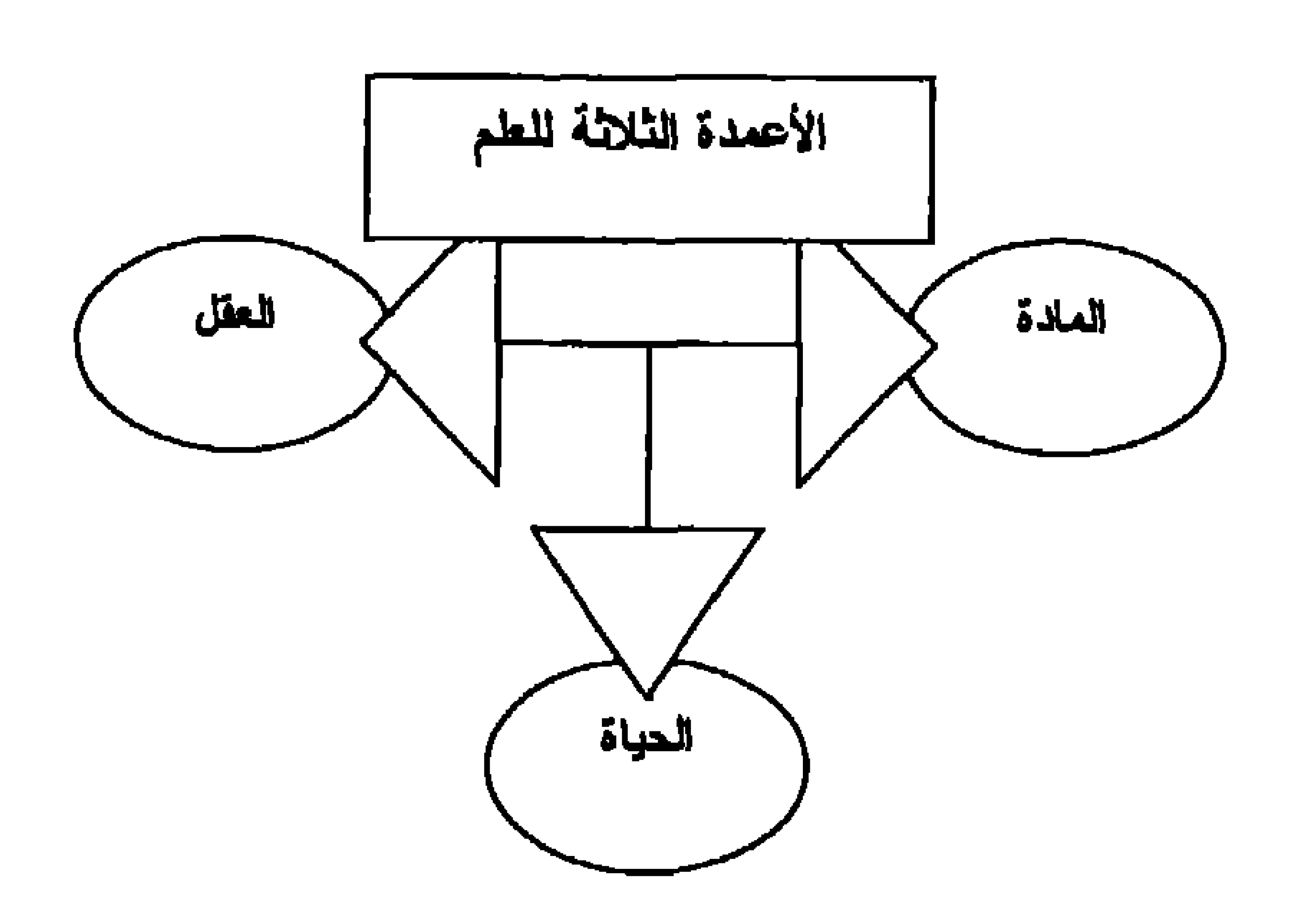
إن أي شخص لم تصدمه نظرية الكم، لابد أنه لم يفهمها"[14].



شكل (14) يوضح انبثاق الثورتين (الكمبيوتر، البيوجزئيية) من ثورة الكم والموضوعات التي تولدت عن الثورات الثلاثية.

لقد كانت ثورة الكم أولى ثورات القرن العشرين، وأكثرها أساسية وهي التي ساعدت ذات زرع بذور الثورثين العلميتين الكبيرتين الأخريتين وهما الثورة البيوجزيئية وثورة الكمبيوتر، كما هو واضح في الشكل السابق.

وشكلت المادة والحياة والعقل عناصر أساسية للعلم الحديث على الأرجح سيسجل المؤرخون أن قمة الإنجاز العلمي في القرن العشرين كان الكشف عن العناصر الأساسية التي تعتمد عليها هذه الأعمدة الثلاثة والتي تمثلت في تحطيم ثورة الذرة وفك شفرة نواة الخلية وتطوير الكمبيوتر الإلكتروني، وبإتمام فهمنا الأساسي للمادة والحياة تقريبا فإننا نشهد إغلاق أحد الفصول الكبرى في تاريخ العلم. "ولا يعني هذا أن كل القوانين لهذه الأعمدة الثلاثة معروفة بالكل وإنما الأكثر منها فقط، وعلى سبيل المثال فرغم أن قوانين الكمبيوتر الإلكتروني معروفة إلا أن بعض القوانين الأساسية للذكاء الاصطناعي والعقل هو التي تعرفها فحسب"(15).



شكل (15) يوضح الأعمدة الثلاثة للعلم

منذ زمن قديم تساءل الناس عن طبيعة المادة التي صنع فيها العالم، وقد اعتقد اليونان أن الكون صنع من عناصر أربعة هي:

الماء والهواء والتراب والنار. واعتقد الفيلسوف ديموقريطس أنه من

الممكن تحطيم هذه العناصر الأربعة إلى أجزاء أصغر دعاها "الذرات" ولكن المحاولات الساعية لشرح كيف تمكنت الذرات من خلق هذه التنوع الكبير والمدهش للمادة الذي نراه في الطبيعة فشلت دوما. وحتى نيوتن الذي اكتشف القوانين الكونية التي فسرت الكواكب والأقمار احتار في شرح الطبيعة المحيرة للمادة [16].

لقد تغير كل هذا مع ميلاد نظرية الكم Quantum Theory عام (1825) والتي أطلقت موجة مضخمة من الاكتشافات العلمية استمرت في الارتفاع دون توقف إلى الآن. لقد زودتنا ثورة الكم الآن بوصف كامل تقريبا للمادة- وبأن نصف هذا التعدد الظاهري اللامتناهي للمادة الذي نراه معروضا حولنا. ولقد أرجعت نظرية الكم والتي توصل إليها (أرفين شرودنجر) و(فيرنرها يزنبرج) وآخرون سر المادة إلى بضع مسلمات: أولاها أن الطاقة ليست مستمرة كما اعتقد القدماء، وثانيهما: أن للجسيمات تحت الذرة صفات الجسيمات والموجات في آل معا. وفي القرن العشرين مكنتنا نظرية الكم من فهم المادة التي نراها حولنا أما في القرن الحادي والعشرين فقد انفتح أمامنا الباب إلى خطوة وهي: القدرة على التحكم في المادة وتصميم أشكال جديدة منها حسب رغبتنا تقريبا.

أما ثورة الحاسوب والتي تحولت بحدث عام (1948) عندما اكتشف علماء مختبرات شركة "بيل" الترانزستور الذي هو الحاسوب الحديث ممكنا، حيث ترى اليوم حشر عشرات الملايين من الترانزستورات في مساحة بحجم ظفر الإصبع، وستتغير أنماط حياتنا في المستقبل بشكل دائم عندما تتوافر الشرائح الدقيقة بكثرة، بحيث توزع الأنظمة الذكية، بالملايين في كل الأنحاء المحيطة بنا، في الماضي لم يكن بإمكاننا سوى التعجب لظاهرة الذكاء النادرة أما في المستقبل فسنكون قادرين على التحكم فيها حسب رغباتنا.

ولقد زودتنا الثورة البيولوجزيئية من خلال تأثر العديد من البيولوجيين

بنظرية (الحيوية) أن هناك (قوة خفية أو جوهرا يكسب بالحياة للأشياء الحية) ولقد استطاع (شرودنجر) في كتابه عام (1944) تحدي ماهي الحياة؟ وتجرأ بتفسير الحياة بشفرة وراثية مكتوبة على جزيئات في الخلية، لقد كانت فكرة تفسير البيولوجيا الجزئيية أن نقرأ الشفرة الوراثية للحياة، كما لو كنا نقرأ كتابا. ولقد فكت شفرة ال(د.ن.أ) بكامل الكائنات حية عدة كالفيروسات والبكتريا وحيدة الخلية والخمائر جزئيا فجزئيا. وستحل شفرة الجينوم البشري كاملا بحدود عام (2005) معطية إيانا (دليل تشغيل) للكائن البشري. وسيجهز هذا المسرح للطب والعلم في القرن الحادي والعشرين. وبدلا من مراقبة رقص الحياة ستعطينا الثورة البيوجزيئية في النهاية قدرة خارقة على التحكم في الحياة حسب إرادتنا تقريبا. وسيشهد القرن الحادي والعشرون ثورة علمية أبعد تأثيرا بكثير حين يقوم الإنسان بالتحول من كشف أسرار الطبيعة ليصبح سيدها.

فالقرن الحادي والعشرين – خلافا للقرون الماضية–سيتميز بالتضافر والتلاقح والتفاعل بين الحقول الثلاثة، مما يعد إيذانا بنقطة تحول مهمة، في تاريخ تطور العلم وسيتسارع هذا التلاقح بين الثورات الثلاث بشدة مما سيغني تطور العلم معطيا إيانا قدرة لا سابق لها على التحكم في المادة والحياة والذكاء.

فالعلاقة بين الثورات الثلاث علاقة تفاعلية بالغة الديناميكية.

وفي القرن الحادي والعشرين ستزدهر دول عدة تقتصر إلى المصادر الطبيعية لأنها وضعت أولوياتها في التكنولوجيا التي يمكن أن تعطيها ميزة تنافسية في السوق العالمية ويؤكد (ثورو) "أن المعاني والمهارات تقف اليوم وحدها كمصدر وحيد أفضلية المقارنة" (17) أي (الثقافة) التي تعني المعارف والمهارات.

ولذلك وضعت بعض الأمم لوائح بالتكنولوجيا الأساسية التي تستخدم

كمحركات للثروة والازدهار في القرن القادم. وقد ألقت لائحة اليابان عام (1990) والتي وضعتها وزارة الصناعة والتجارة العالمية قائمة تحتوي على:

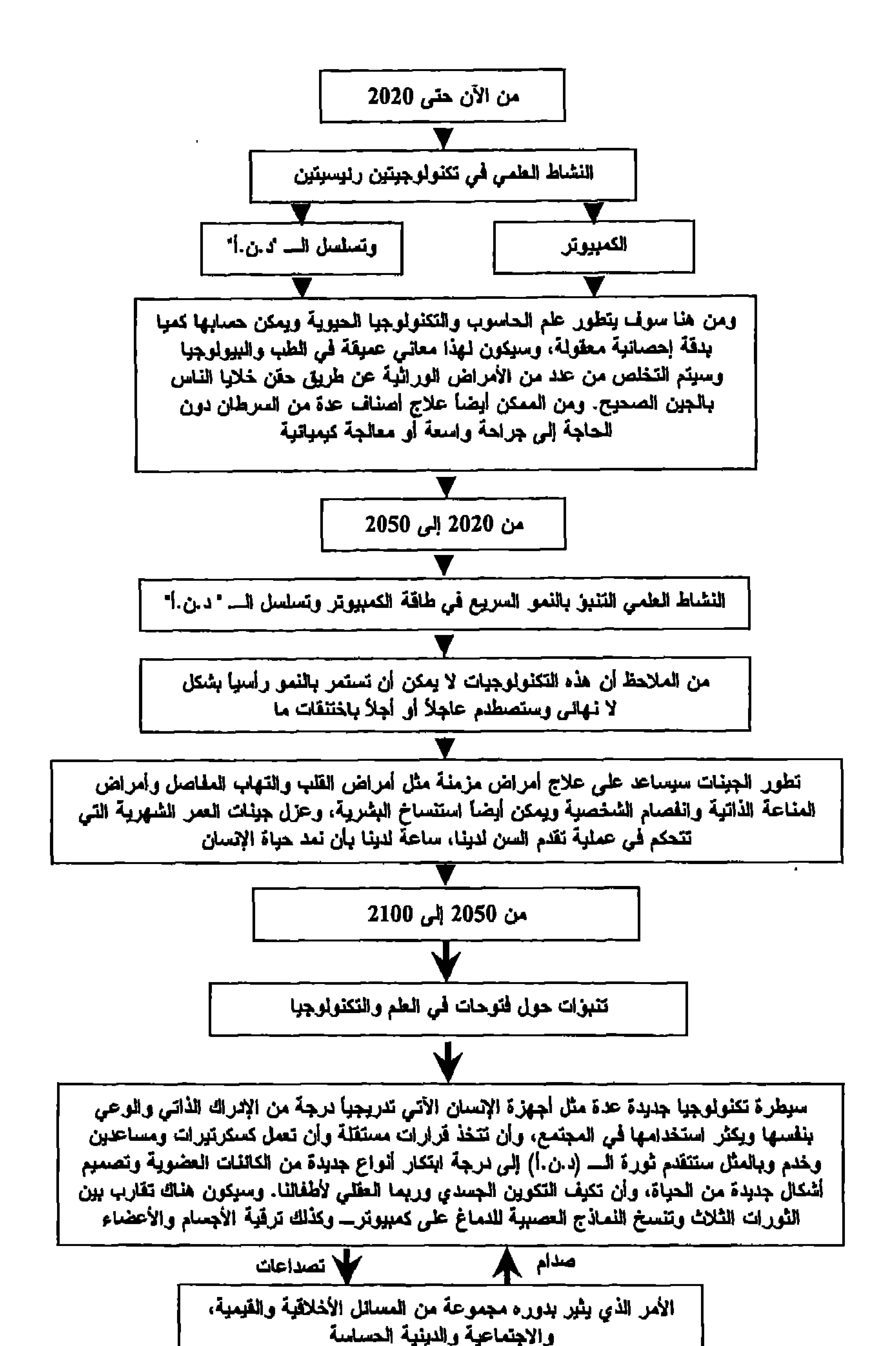
الإلكترونات الدقيقة -التكنولوجيا الحيوية- صناعة علم المواد الحديثة. والاتصالات وصناعة الطائرات المدنية ـ الإنساق الآلي والماكينات التي تدار ذاتيا- الكمبيوتر (البرمجيات والتجهيزات) ومن دون أي استثناء فإن لكل واحد من التكنولوجيات المذكورة التي ستقود القرن الحادي والعشرين جذورا عميقة في ثورات الكم والكمبيوتر وجزئ الـ" د.ن.أ".

ملحظ مهم هنا أن هذه الثورات العلمية الثلاثة ليست فقط المفتاح إلى التقدم العلمي في القرن الحادي والعشرين، وإنما هي أيضا المحركات الديناميكية للثروة والازدهار فقد تصعد مجتمعات أو تهبط نتيجة لقدرتها على السيطرة على هذه الثورات الثلاث. وفي أي نشاط هناك خاسرون ورابحون، وسيكون الرابحون هم الأمم أو الشعوب التي تعي كاملا الأهمية الحيوية لهذه الثورات العلمية الثلاث.

أما أولئك الذين يهزأون بقدرة هذه الثورات فقد يجدون أنفسهم مهمشين في السوق العالمية، وربما أيضا في أهمية الحياة نفسها للقرن الحادي والعشرين.

المستقبليات:

ويمكن أن نضع توصيفا لتقدم الثقافة العلمية والحضارية من خلال الأطر الزمنية للمستقبل وليست هذه الأطر الزمنية مطلقة ولكنها تمثل فترة عامة تصل من خلالها علوم معينة والتكنولوجيا إلى مرحلة النضج.



شكل (16) يوضح الأطر الزمنية للمستقبليات وموضوعات التصدعات والصدام

توصيف الثقافات والحضارات (صدام، تفاعل، انتقال) والشكل (17) يوضح ذلك.

من خلال الوضع الحالي يمكن القول أن رحلتنا المتجهة نحو العلم والتكنولوجيات ربما ستقودنا إلى أن نتطور نحو ثقافة وحضارة حقيقية من النوع الأول وهي حضارة كوكبية تبسط سيطرتها على قوى كوكبنا (الأرضي) والتقدم نحو حضارة كونية سيكون بطيئاً وسيتم على مراحل وسيكون زاخراً بدون شك بتراجعات، وصدمات وانحرافات وربما احتمالات الحرب النووية أو انتشار مرض مميت أو انهيار البيئة في خلفية أوضاعنا، وإذا لم يحدث مثل هذه الأحداث أعتقد أنه في إمكان حضارة (الصفر) تنتقل إلى حضارة من النوع الأول وهي الحضارة (الكوكبية) حيث أن العلم والتكنولوجيات سوف يستطيع نقل الجنس البشري إلى هذه الحضارة من النوع الأول.

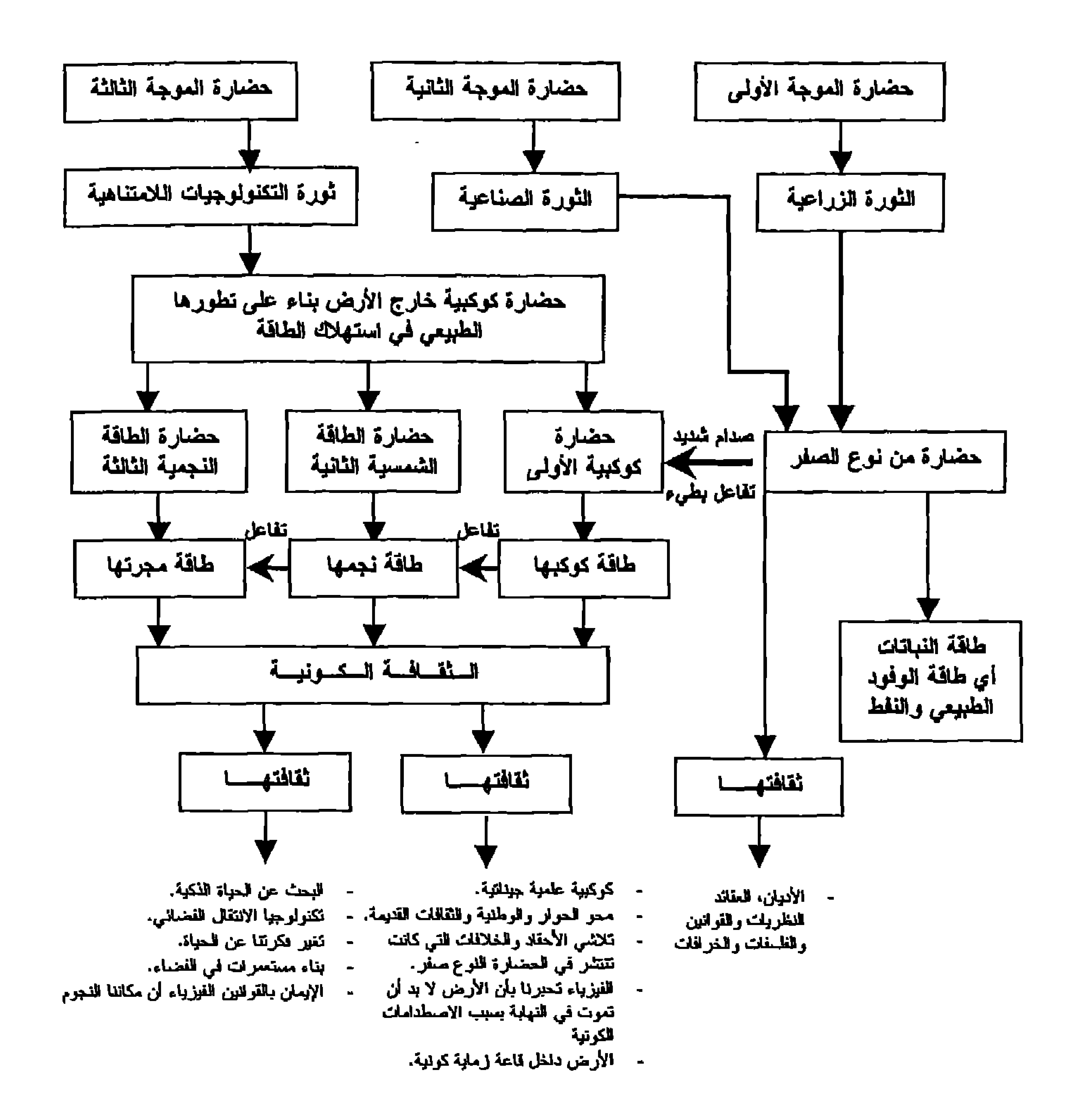
وهـذا الانهيار للتوازن القديم، سواء كان بفعل تقلبات داخلية أو قوى خارجـية، لا ينتج غالباً الفوضى أو الانهيار، بل يكون بداية بنية جديدة ذات مسـتوى عال، هذه البنية الجديدة قد تكون أكثر اختلافاً عن القديمة ومتفاعلة داخلـياً بصورة أكثر تعقيداً عن السابقة، تحتاج إلى مزيد من الطاقة والمادة وكذلك المعلومات والمصادر لتغذي وتساند نفسها. حيث يدعو بريغوغين هذه "الـنظم الجديـدة الأكـثر تعقـيداً بالتركيب أو البنى التبددية Dissipative Structures بعـد مـا لفـت انتـباهه التناظرات الاجتماعية معها بعيداً عن الـتفاعلات الكيمائية والفيزيائية، والخ أيضاً أنه بالإمكان رؤية التطور على أنـه عملـية تقود إلى وحدات عضوية متنوعة بيولوجية واجتماعياً ومعقدة تصاعدياً، من خلال انبثاق البنى التبددية الجديدة العالية التراتب"[18].

إن هذه الثقافة الجديدة الموجهة نحو التغيير والتنوع المتنامي ستحاول دمج الأفكار الجديدة حول الطبيعة والتطور والتقدم والمفاهيم الجديدة الأكثر

رقياً حول الزمان والمكان وانصهار الإنقاصية مع الكلانية بالسببية الجديدة. والواقعية الصناعية التي بدت مرة قوية كاملة تطوق الكون بتفاسيرها عن انسجام الكون وعناصره يتم التخلص من فضلاتها الآن وتبددت إدعاءاتها حول الشمولية. يقول (آلفن توفلر) "سوف يرى كيف كانت الإيديولوجية العظمى للموجة (الحضارة) الثانية إقليمية بقدر ما تخدم ذاتها. وما اندثار الموجة الثانية الفكري إلا سبباً هاماً في أعناق ملايين الناس لأي شيء من الطاوية حتى التكساسية إلى الصوفية السويدية، ومن معالجة الإيمان في الفلبين حتى مهنة السحر الويلزية، فبدلاً من بناء ثقافة جديدة تلائم عالماً جديداً تراهم يحاولون تصدير أو استزراع أفكار قديمة كانت ملائمة لأوقات معينة وأماكن أخرى، أو إحياء المعتقدات التعصبية التي كانت تلائم ظروف أسلافهم المختلفة عن ظروفنا" (19).

إن الذي أورده (توفلر) بالضبط هو انهيار بنية العقل، عقل الحقبة الصناعية وعدم وجود علاقة متزايدة للعقل مع الحقائق الاجتماعية والتقنية والسياسية الجديدة، التي أدت إلى دراسة بحثية آنية لإجابات قديمة واستمرار تيار البدع الفكرية الزائفة التي تتفجر ثم تستهلك ذاتها بسرعة كبيرة وسط السوق الروحي هذا كل ضحية الحماسي ودجله الغيبي.

في المقابل هناك ثقافة إيجابية جديدة، ملائمة لزماننا ومكاننا فبدأت تبصرات دمجية جديدة وقوية تفهم الواقع بعد استكشافه وتلمح من البدايات تماسكا وأناقة أمام طلال الثقافة الصناعية التي بدأ يكنسها بل يجرفها تاريخ التغيرات للموجة الثالثة (الحضارة).



شكل (17) يوضح توصيف الثقافات والحضارات من حيث الصدام والتفاعل

نظراً لأحداث ثورة علمية وتكنولوجية بهذا الحجم المذهل يصرح بعض العلماء بأننا ذهبنا بعيداً جداً وسريعاً جداً، وأن عواقب اجتماعية وأخلاقية غير منظورة ستنجم عن هذه الثورات العلمية.

ولنا أن نتساءل إلى أين سيقودنا هذا كله؟ وهذا هو السؤال الذي يردده علماء الفيزياء الفلكية الذي يبحثون ويمسحون السماء بحثاً عن دلائل

لحضارات غير أرضية قد تكون أكثر تقدما من حضارتنا بكثير. ولقد ركزوا جهودهم على وضع تصور نظري عن خصائص ومميزات استخدام الطاقة في الحضارات المتقدمة يقرون أو بآلاف السنين عن حضارتنا. وبتطبيق قوانين الطاقة والثرمودنياميك استطاع علماء الفيزياء الفلكية أن يصنفوا الحضارات غير الأرضية المفترضة إلى أصناف ثلاثة بحسب الطريقة التي تستخدم فيها الطاقة وقد دعاها عالم الفلك الروسي (نيكولاي كارداشيف)، والفيزيائي (برنسيتون فريمان دايسون) حضارات النوع الأول والثاني والثالث [20].

فحضارة النوع الأول هي حضارة سيطرة على كل أشكال الطاقة الأرضية ويمكن لهذه أن تعدل الطقس وتستخرج المعادن من المحيطات وتستخلص الطاقة من مركزها الكوكبي، إن احتياجاتها من الطاقة كبيرا جدا، بحيث تستطيع استغلال الموارد الممكنة للكوكب بأكمله. واستغلال وإدارة الموارد على هذا المستوى يتطلب درجة متطورة من الإدارة والتعاون بين سكان هذه الحضارة وكذلك وسائل اتصال كوكبية حقيقية. وهي حضارة تركب جانبا معظم الصراعات الدينية والطائفية والقومية والوطنية والمذهبية التي تميز أصلها.

أما الحضارة من النوع الثاني فهي حضارة تتمكن من السيطرة على الطاقة الشمسية، فاحتياجات سكانها من الطاقة كبيرة جدا بحيث أنهم يكونون قد استهلكوا مواردها في كواكبهم، وعليهم أن يستخدموا طاقة شمسهم لتحريك آلاتهم. كما أن سكان هذه الحضارة سيكونون قد بدأوا باكتشاف أنظمة النجوم المجاورة وربما باستعمارها.

أما حضارة النوع الثالث فإنها حضارة انتهى سكانها من استهلاك الطاقة الناتجة من نجمهم، لنجم أو عدة نجوم مجاورة، والتطور في النهاية إلى حضارة مجرة وبذلك يحصلون على طاقتهم عن طريق استغلال مجموعات من أنظمة النجوم في المجرة.

إن هذا النظام في تصنيف الحضارات معقول لأنه يعتمد على المصدر المتاح للطاقة. وفي النهاية ستجد أي حضارة متقدمة في الفضاء ثلاثة مصادر للطاقة تحت تصرفها: طاقة كوكبها، وطاقة نجمها وطاقة مجرتها فليس هناك خيار آخر.

ونتساءل أين نحن الآن؟ في الوقت الحاضر الآن -هنا- في حضارة من النوع صفر، فنحن نستخدم أساسا النباتات الميتة (الفحم الحجري والنفط) لتزويد آلاتنا بخطواتنا الأولى الثقيلة والمترددة أحيانا ، فنحن مثل أطفال نقوم بخطواتنا الأولى الثقيلة والمترددة أحيانا كثيرة في المكان، ولكن مع نهاية القرن الحادي والعشرين فإن الطاقة المجردة للتورات العلمية الثلاث ستجبر العالم والشعوب في الأرض على التعاون على مستوى لم يروه من قبل في تاريخهم الإنساني. وبحلول القرن الثاني والعشرين سنضع الأساس لحضارة النوع الأول ، وستأخذ البشرية خطواتها الأولى نحو النجوم أو حضارة النجوم، غير أن من الملاحظ سيكون التقدم نحو حضارة كونية سيكون بطيئا وسيتم على مراحل ويكون مليئا بتراجعات واحتمالات حروب أو اندلاع أمراض مميتة أو انهيارات في البيئة، وربما تصبح البشرية سادة للزمان والمكان في المستقبل البعيد ما لم تحدث كارثة.

هوامش الفصل الخامس:

(*) مـــا كتب ورسم تشويها لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، تجعل الدين الإسلامي في حالة صدام ثقافي.

(1) محمـــد جابـــر الأنصاري، قرننا المرتحل بين بداية ونهاية ، نظرة طائرة على فضاء الفكر ، مجلة العربى، العدد 446 ، يناير (1996)،ص6.

(2) نفس المرجع السابق، ص 93.

(3) سورة النساء، آية 83.

(4) سورة التوبة، آية 122.

(5) سورة الأنعام ، آيات 26 ، 27 ، 28.

(6) سورة الإسراء، آية85.

(7) محمد جابر الأنصاري، (نفس المرجع السابق)،ص93.

(8) نفس المرجع السابق، ص 93.

(9) محمد الرميحى ، الطريق إلى المستقبل ، هل يمكن اكتشاف القوى الكامنة في التخلف العربي، مجلة العربى ، العدد 459، فبراير(1997) ، ص 23.

(10) نفس المرجع السابق، ص 24.

(11) سورة طه الآية 144,

(12) سورة الإسراء الآية 85.

(13) ميتشـــوكاكو ، رؤى مســـتقبلية ، ترجمة سعد الدين خرقان، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت (1995)، ص 15.

(14) نفس المرجع السابق،ص 34.

(15) نفس المرجع السابق، ص 164.

(16) نفس المرجع السابق، ص 64.

(17) نفس المرجع السابق، ص 23.

(18) آلفـــن توفلـــر ، حضارة الموجة الثالثة ، ترجمة عصام الشيخ قاسم، الدار الجماهيرية للنشر (1995) ،ص 38.

(19) نفس المرجع السابق،ص 340.

(20) ميتشيوكاكو ، (مرجع سابق) ،ص 30.

الفصل السادس

التفاعل والتغيرات النفسية والفكرية الجديدة

التقاء التفاعل بين الثقافات والحضارات الكونية:

إن السببية في الموجة الثالثة تصور عالما من القوى المتفاعلة المتبادلة عـــالم زاخـــر بالمدهش، بمضخمات التغير ومقلصاته وعناصر عديدة أخرى وليس مجرد كرات بلياردو تضرب بعضها على نحو متوقع مسبقا وبصورة لا نهائـــية على طاولة المراهنة الكونية، إنه عالم أكثر غرابة من آلية الموجة الثانية البسيطة التي أشير إليها. هل كل شيء قابل للتنبؤ به حسب هذا المبدأ كما تضمنت ذلك سببية الموجة الثانية الآلية؟ أم أن الأشياء لا يمكن التنبؤ بها فطـــريا ولا يمكـــن تجنـــب حدوثها، عما ألح نقاد الآلية على ذلك؟ هل نحن محكومون بالصدفة أم بالضرورة؟ لقد جلبت الموجة الثالثة أشياء جديدة لتقال حـــول هـــذه التناقض القديم أيضا. وفي الواقع أنها تساعدنا على التهرب من كلـــيهما أو الوقـــوع في الشرك الذي طال لزمن طويل القائلين بالحتمية ضد المعارضـــين لهـــا. الضـــرورة الصـــدفة ربما يكون هذا من أكثر الفتوحات الفلسفية أهمية"(1).

العلمـــاء والمتخصصـــون في كافة أنحاء العالم ينسجون فكرة جديدة عن التغير والسببية تماشيا مع الأفكار المتغيرة عن الطبيعة والتطور والتقدم والزمان والمكان والمادة. فالعالم الابستمولوجي ما غورو ماروياما Maruyama الياباني المولـــد والعالم الاجتماعي الفرنسي أدجار مورين Morin ومنظرو المعلوماتية مـــثل ســـتافورو بير Beer وهنري لا بوريت Laborlt وآخرون، كلهم يقدمون مفاتـــيح الحلـــول عن كيفية عمل السببية في النظم اللاميكانيكية التي تولد وتحيا وتمـــوت وتتعرض للتطور والثورة وكذلك يذكر البلجيكي نوبل أيليا بريغوغين

Prigogine تركيبة الأفكار عن النظام والفوضى، الصدفة والضرورة وكيف ترتبط كلها بالسببية جزئيا أينشأ مبدأ السببية للموجة الثالثة من مفهوم أساسي لنظرية النظم أي فكرة التغذية الاسترجاعية.

إن عملية التغذية الاسترجاعية تصون التوازن وتضبط التغير عندما يهدد بتجاوز مستوى معين، وهي تسمى التغذية الاسترجاعية السلبية Negative Feedback ووظيفتها المحافظة على الاستقرار، أما التغذية الاسترجاعية الإيجابية تحطم الاستقرارية وتتغذى على نفسها يساعد هذا على فهم الدوائر المفرغة Vicious Circles والدوائر الفاضلة Virtuous Circles. فالتغذية الاسترجاعية الإيجابية تساعد على تغيير أية عملية ذاتية الاستثارة ـ مثل سباق التسلح مثلا، ففي كل مرة ينتج فيها الاتحاد السوفيتي سلاحا جديدا، تسعى أمريكا لإنتاج سلاح أكبر، وهذا ما يثير الاتحاد السوفيتي لبناء سلاح أكبر منه حتى درجة الجنون العالمي (2).

وعندما نضم التغذية الاسترجاعية السلبية والإيجابية معا يلاحظ المدى الفني الذي تتفاعل فيه هاتين العمليتين المختلفتين في عملية عضوية معقدة – من العقل البشري حتى التقاصد- سرعان ما تنبثق رؤى مريعة. فما أن ندرك أننا كحضارة أو كأي نظام حقيقي معقد سواء وحدة عضوية بيولوجية أو نسقا سياسيا عالميا تنزع فينا مضخمات التغير ومقلصاته، أي التغذية الاسترجاعية الإيجابية والسلبية وتتفاعل، حتى تبدأ في رؤية مستوى جديد من التعقيد في العالم الذي نتعامل معه، إن تفهمنا للسببية في تقدم ويزداد تقدما عندما ندرك أن مقلصات التغير ومضخماته هذه لم تكن مزروعة في النظم البيولوجية أو الاجتماعية منذ البداية فلربما لم تكن أبدا حتى وجدت كنتيجة تعزى إلى الصدفة " وحيث لا تظهر أية نظرية من العالم العالي التقنية، الرأسمالي، والماركسي على السواء، تعالج مشاكل العالم النامي، وحيث لا يوجد نماذج قابلة للتحويل بمعظمها، تنبت علاقة غريبة بين

مجـتمعات الموجة الأولى وحضارة الموجة الثالثة الناشئة، لقد شاهدنا أكثر مـن مرة محاولات ساذجة لتطوير غير بلد من بلدان الموجة الأولى بإدخال أشـكال الموجة الثانية المتنافرة -الإنتاج الجملي- وسائل الإعلام الجماهيرية التعلـيم المصنعي الأسلوب، حكومة برلمانية شبيهة بنموذج (ويستمنستر)، والدولـة القومـية وغـيرها كثير- دون إدراك أن نجاح هذا يعتمد بصورة رئيسـية علـى تحطـيم شكل الأسرة التقليدي وعادات الزواج والدين وبنية الأدوار، وعلى اقتلاع الثقافة من جذورها[3]. وطالما أن التطور يحمل معنى تركيب ثقافة أجنبية مع ثقافة محلية قائمة وطالما أن الاصلاحات الفعلية تبدو مسـتحيلة التحقـيق فهنالك كل سبب ممكن ليتعلق المرء بالشيء الذي يملكه مهما كان ضئيلا.

ولأن مظاهـر الموجة الثالثة تتناغم ومظاهر الموجة الأولى سواء في الصـين أو إيـران هـذا يوحـي بأن التغيير لن يكون تمزيقيا، وأن صدمة المسـتقبل سـتكون أقـل إيلامـا. بالتالـي فهي قد تضرب أسس اللادافعية Demotlvation ، وستجلب معها احتمالية التغيير الثوري في العقل والسلوك الفردي، وليس فقط في حقل الطاقة والتكنولوجيات والزراعة والاقتصاد"[4].

فحضـارة الموجـة الثالـثة الناشئة لاتزودنا بنموذج جاهز لمضاهاته وحسـب فهـي ليست مشكلة أبدا. أنها تفتح للفقراء والأغنياء فرصا غريبة وربمـا محررة لأسرهم أيضا، وهي لا تنبه إلى ضعف عالم الموجة الأولى (الحضـارة الزراعـية) وبؤسـه وفقره، بل إلى بعض من قواه المتأصلة؛ فمظاهـر الحضـارة القديمـة التي تبدو متخلفة جدا مقابل مظاهر حضارة الموجـة الثانـية، هـي مفيدة جدا عند قياسها بقالب حضارة الموجة الثالثة المـتطورة، وانسـجام هاتيـن الحضارتين التي ستظهر نتائجه في المستقبل القريـب ينبغي أن يغير أسلوب تفكيرنا بالعلاقات بين أغنياء العالم وفقرائه. فالحضـارة الثالثة تحاول أن تجعل الفقراء إلى جانب الأغنياء يربضون عند

خطّ البداية استعدادا لسباق جديد ومروع إلى المستقبل- فلكل حضارة مجالها وتـتأثر فـي المجال الحيوي البيولوجي وتؤثر فيه، وتعكس تفاعل وتمازج السكان والمصادر أو تحوله، ولكل حضارة مجال، التكنولوجي مميز. قاعدة للطاقـة ترتبط بنظام إنتاجي يرتبط بدوره بنظام استهلاكي أو توزيعي ولكل حضـارة مجالهـا الإعلامـي مـن (قنوات اتصال تفيض منها المعلومات الضرورية، وأيضا لكل حضارة لها مجالها السلطوي الخاص بها.

إضافة إلى ذلك كل حضارة لها مجموعة من العلاقات الخصوصية في المجـال الخارجـيّ – سـواء استغلالية تكافلية – حربية – أو سلمية ولكل حضـارة عقائدهـا ومجموعـة من الفرضيات الثقافية التي توحد أراءها مع الواقع وتبرر عملياتها. فحضارة الموجة الثالثة كظاهرة. "تجلب معها تغيرات جذريـة معززة ذاتيا في كل هذه المستويات المختلفة في آن واحد. والنتيجة ليسـت مجرد إنحلال المجتمع القديم، بل إنها خلق مؤسسات للمجتمع الجديد. ونحن لا نرى إلا الانحطاط والذبول والانهيار من حولنا، فمؤسسات الموجة الثانـية (الـثورة الصـناعية) تـتحطم فوق الرؤوس، والجريمة تتصاعد، والعائلـة النووية تنقسم على ذاتها وتتجزأ، والبيروقراطيات تسيء للوظيفة، وتصدع نظم الخدمات الصحية وتذبذب الاقتصاد الصناعي على نحو خطير، مـع هـذا فـإن الحقـل الاجتماعي هو التربة الخصبة للحضارة الجديدة[5]. ويمكن إدراك تفاعل العلاقات الحضارية (المادية) التبادلية في حقول الطاقة والتكنولوجـيا والبنية الأسرية والثقافية وغيرها. وإن حضارة الموجة الثالثة البيولوجـية الجينية بالمجالين البيئي والاقتصادي ليست متماسكة وحسب لكن التصميم سيجعلها أكثر احترما وديمقراطية وفي الفترة الانتقالية التي نلاحظها الآن" سـوف تتسم بفرط التمزق الاجتماعي فضلا عن المصاعب الاقتصادية الجمـة والتصادمات القطاعية والمحاولات الانفصالية والكوارث التكنولوجية والشغب السياسي والعنف والحروب وتهديدات الحرب.

وفي ظل هذا المناخ الذي تسود فيه المؤسسات المنحلة والقيم المتفسخة سوف تبرز الحركات الفاشيستية وزعماؤها يسعون وراء السلطة وقد تحصلون عليها، وما من واحد منا يجهل نتائج وعثرات هذا، إن تصادم الحضارتين (أي تصادم الثقافتين) يفرز مخاطر هائلة، لكن الشذوذات لا تكمن بالتدمير بل بالبقاء المطلق" (6). وفي هذه الأثناء سوف يتبنى أناس (جماهير) الموجة الأولى (الثورة الزراعية) فرضيات جديدة عن الطبيعة والتقدم والتطور والزمان والمكان والسببية، والمادة وتفكيرهم سيكون أقل تأثرا بالقياس على الآلة. وسيتأطر هذا التفكير بمفاهيم مثل المعالجة Processing والتغذية الاسترجاعية واللاتوازن Discquilibrium، وسيكونون هم أكثر وعيا بالمنقطعات Discontinuities المتدفقة مباشرة من المستمرات Continuities وسينشأ جديد من المعتقدات والمفاهيم العلمية والتصورات الجديدة عن الطبيعة البشرية.

هذه التنوعية الثقافية الناشئة سيخرقها الاضطراب حتى يتم تطوير أشكال جديدة من حلول الصدام الجماعي، فالنظم القانونية الحالية تفتقر للخيال الوافي والملائم لمجتمع مرتفع التنوعية"(7).

ونتساءل هنا، لم يحدث هذا كله؟ لم تصبح حضارتنا الموجة الأولى والثانية عقيمتين فجأة؟ لم هذا الاندفاع الحضاري الجديد إلى الصدام مع القديم؟ لا أحد يعرف حتى الآن وبعد مرور المئات من السنين (ثلاثمائة) عام تقريبا على الحقيقة يعجز المفكرون والمؤرخون والباحثون عن معرفة سبب وقوع الثورة -الزراعية- الصناعية- فكل أكاديمية أو مدرسة فلسفية تفسيراتها وتحليلاتها المفضلة فالحتميون التقنيون يشيرون إلى المحرك البخاري في تفسير (الثورة الصناعية) ، والبيئيون يشيرون إلى تدمير الغابات البريطانية، والاقتصاديون إلى تقلبات أسعار الصرف ويؤكد آخرون التغيرات الدينية أو الثقافية كحركة الإصلاح البروتستاني Reformation

وعصر التنوير وما شابه.

تستطيع في عالم اليوم تمييز قوى سببية متفاعلة متبادلة إذ يشير الخبر إلى زيادة معدلات السكان المتضاعفة في العالم وشدة الطلب على احتياجات الموارد النفطية الآخذة بالنقص وأيضا التهديد المتصاعد للتلوث البيئي العالمي على أنها جميعها قوى فاعلة في التغيير البنيوي على الصعيد العالمي. وآخرون يشير إلى التطورات اللامعقولة في ميادين العلم والتكنولوجيا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية والتغيرات السياسية والاجتماعية المصاحبة لتلك التطورات. وآخرون يؤكدون على صحوة العالم اللاصناعي والاضطرابات السياسية التالية لها التي تهدد خطوط الطاقة الرخيصة والمواد الخام الضرورية لحياة الغرب. ويمكن الإشارة أيضا إلى تغيير القيم المذهل مثل الثورة الجنسية والاضطرابات الشبابية في الستينات في القرن العشرين والمواقف المتحولة نحو العمل. وربما هناك من يشير إلى سباق التسلح النووي فقط الذي سرع من تغيرات تكنولوجية معينة. وربما قد يرى اختياريا مسببات حضارة الموجة الثالثة في التحولات الثقافية والابستمولوجية في عصرنا التي تعادل في عمقها التحولات التي أنجزها عصر الإصلاح الديني وعصر التنوير مجتمعين أو متحدين.

والخلاصة يمكن القول هناك عشرات المؤشرات بل مئات تيارات التغيير التي تغذي المركز الكبير، وترتبط كلها مع بعضها البعض بصورة تفاعلية تبادلية وطرق سببية مشتركة. وقد يعثر على تغذية استرجاعية إيجابية مذهلة تعمل في النظام الثقافي والاجتماعي فتسرع تحولات أو انتقالات معينة وتضخمها، بالإضافة إلى تغذية استرجاعية سلبية تخمد تغيرات أخرى.

التغيرات النفسية الجديدة:

هــناك العديــد من التساؤلات تتبادر إلى أذهاننا حول الجوانب النفسية والفكرية في حضارة الموجة الثالثة الناشئة. ومن هذه التساؤلات أين نحن من هــذه الحضـــارة الناشـــئة الجديدة؟ ألا يعني أن هذه الاندفاعات الاجتماعية والـــتحولات التكنولوجــية الجديدة ربما نهاية عهود الحب والدفء والصداقة والالـــتزام والـــرعاية والصلات الاجتماعية؟ ألن تكون عجائب الإلكترونات والاتصـــالات المستقبلية خطرا على العلاقات الإنسانية فتحولها أو تنقلها إلى علاقة فارغة اعتمادية أكثر مما هي اليوم؟.

إنهـــا أســئلة لها صفة المشروعية وناتجة عن مخاوف منطقية ودلائل علمية لهذه المخاوف تشاهد في الانهيار النفسي- المنطقي Psycho- Logical الـــذي لـــه وقع الوباء أو القنبلة في المجال السيكولوجي المشاع، وفي الواقع أن الإنسانية تمر في مرحلة تحطم مجالات الموجة الثانية "من تقنية وإعلامية واجتماعـــية ونفســـية أيضـــا، فتسمح عبر كل بلدانها أسطوانة مألوفة جدا: معـــدلات مرتفعة من انتحار اليافعين والأحداث، ومن الإدمان على الكحول و(المخـــدرات) والإحـــباط النفســـي الواســـع والجريمة والتخريب المتعمد للممـــتلكات العامـــة. وفي أمريكا تكتظ غرف الطوارئ بالمحششين وضحايا القيادة المتهورة ومستنشقي الكوكائين، ومدمني الهيروين، ناهيك عن ضحايا الانهـــيارات العصـــبية"[8]. وتتقدم مهن العمل الاجتماعي والنفسي والصحة النفســـية فـــي كل مكان ، ففي مدينة واشنطن أعلنت اللجنة الرئاسية للصحة النفسية أن ربع سكان أمريكا يعانون ويواجهون من شكل معين من الضغوط العاطفية الحادة، وصرح أحد علماء النفس من المعهد القومي للصحة النفسية أنه لا توجد أسرة إلا وتعاني من أحد أشكال الاضطراب النفسي وأن "التمرد النفســـي – المنطقـــي منتشر في المجتمع الأمريكي المضطرب والقلق على مستقبله والمنقسم على نفسه.

صـــحيح أن المجــتمعات الأولـــى أصيبت وعانت من شتى الأمراض النفســية ولــم تكــن نموذجــا يحتذى به، وصحيح أيضا الاحصائيات لهذه الانحـــرافات لا يعــتمد عليها، وهذه التعاريف المرنة تجعل هذه الأجيال في حــيرة من أمرها. لكن هناك شيء في حياتنا الآن غير طبيعي يجري حاليا. فالحــياة اليوم يتنازعها ماضي كحد السيف يرهقها ويثير الأعصاب ويجعل أمزجتها السلوكية خاصة لسيطرة ضعيفة هشة.

لقد زادت الضغوط النفسية – الاجتماعية وطفح الكيل عند ملايين من الجماهير. وخاصة الشباب، وفوق ذلك يعبئهم جيش متضخم ظاهريا من فرق وجماعـــات الكوكس Kooks والفلاكس Flakes والمعتوهين وغريبي الأطوار فـــي الملبس والمسلك والذي يفتن سلوكهم النفسي والاجتماعي باستمرار في وســائل الإعـــلام المخــتلفة. "فإن كان الكرب النفسي والروحي والانحلال واضـــحين بصورة مذهلة في أمريكا وخاصة كاليفورنيا، فهذا دليل على أن الموجـــة الثالـــثة قد وصلتها قبل وصولها إلى أي مكان آخر فتركت تداعي وانهيار البنى الاجتماعية يقع في وقت باكر جدا. حقا فقد تستقر في العديد من المجــتمعات نوع من البارانويا Paranoia وليس أمريكا فقط فترى الإرهابيين في شوارع روما وتورنيو يمشون شم الأنوف وتزداد في باريس ولندن اللتين زال الهــدوء عـــنهما حوادث السرقات المسلحة وتخريب الممتلكات المتعمد. ويخشـــى المسنون في شيكاغو التجول في الشوارع بعد هبوط الظلام، وفي كاليفورنيا تقدم إحدى المجلات لقرائها دليلا عمليا عن المسدسات ودروس في إطـــلاق الـــنار. وكـــلاب مدربة وأجهزة إنذار ضد السرقة وأجهزة السلامة الشخصية ودروس في فن الدفاع عن النفس وأنظمة الأمن الإلكترونية"(9). قد يقـــال هناك روائح عفنة في الهواء إنها رائحة انهيار حضارة الموجة الثانية والبدء في حضارة جديدة.

يـــرى (توفلـــر) لخلـــق حياة عاطفية تتميز بالرضا والمحيط النفسي

السليم لحضارة المستقبل (حضارة الموجة الثالثة) الناشئة ينبغي تحديد ثلاثة متطلبات أساسية للفرد: "الحاجة إلى مجتمع Community والحاجة إلى بنية، والحاجــة إلـــى معنى" [10] فمن خلال تحليل وفهم واستيعاب الأسلوب الذي فــوض هذه المتطلبات الثلاثة لمجتمع الموجة الثانية، يوحي لنا بالكيفية التي تستطيع بها تصميم محيط نفسي أكثر صحة لنا ولأطفالنا في المستقبل. فأول تلــك المتطلــبات أن يولد أي مجتمع متحضر شعور بالجماعة تعويضا عن العــزلة والشعور بالوحدة، حيث التوحد يعطي الناس شعورا حيويا بالانتماء. مع ذلك فإن المؤسسات القائمة الآن التي يعتمد عليها المجتمع تتقوض جميعا فـــي المجـــتمعات التكنولوجية، والنتيجة هي وباء منتشر من التوحد والعزلة يمـــتد من لوس انجلوس حتى ليتغراد يصيب اليافع والأزواج التعساء والكهل والعامل العادي بالعزلة الاجتماعية.

ويعـــترف الآبـــاء بأن أولادهم ينشغلون عنهم وعن زيارتهم أو حتى مكالمتهم هاتفيا.

ويطلـــق أحـــد علمـــاء الاجتماع على الغرباء المنعزلين في الحانات ومحـــلات غسل الملابس آليا شأنها رمز "للأسرار الحزينة اللامتناهية" بينما تمثل نوادي ومراقص المنفردين Singles المرتع لحالات الطلاق البائسة. إن الشـــعور بـــالوحدة يفسر الكثير من أسفارنا وشؤون لهونا ويسهم في تعاطي المخـــدرات والشـــعور بالإحباط وتدني الإنتاجية، ويوجد صناعة مربحة في حقـــل" القلوب الموحشة " Lonelyhearts، التي تساعد على تحديد واصطياد المـــرأة أو الرجل المنفرد والوحيد"[11]. وبعد أن رأينا ألم العزلة الاجتماعية، وإذا لـــم يكـــن مجتمع حضارة الموجة الثالثة الناشئ، معدني القلب، فعليه أن يواجـــه تلـــك المشـــكلة مباشرة. ويعمل ويصلح المجتمع. فالعزلة والشعور بالوحدة النفسية مشكلة جماعية أوجدها تفسخ مؤسسات الموجة الثانية وليست مشكلة شخصية.

المجـتمع عـادة يـبدأ بالأسـرة وذلك بتوسيع وظائفها التي كانت قد تقلصت، فإن تقديم حوافز للأسرة بما فيها الأسرة النووية وغير التقليدية التي تعاني بكهولها بدلا من توكيل بيوت المسنين المجردة عن المشاعر؛ ومكافئة الذين يحافظون على الروابط الأسرية، وتشجيع الأسرة على اتخاذ دور كبير لا ضئيل في تعليم صغارها ، وكذلك تشجيع المدارس على اتخاذ دور وتقديم العون اللازم للأباء الراغبين في تعليم أولادهم في المنازل وعدم اعتبار هذا خـرقا للقانون وتشجيع المدارس والأسر والشركات الصغيرة لاتخاذ أدوارها ولـتعزيز المعنويات والإحساس بالانتماء فالإدارة الذاتية قد لا يطلق طاقات جديـدة وحسب بل يبني المجتمع من جديد، فالانتقال إلى مجتمع عن بعد كما يؤكـد (توفلـر) علـى مستوى السياسة الاجتماعية طويلة المدى لابد من الانـتقال بسـرعة إلى "المجتمع عن بعد" Telecomm Unity " ، أما هؤلاء الذيـن يتمنون ترميم المجتمع وإصلاحه فيجب عليهم أن يركزوا على تأثير التقسـيم الاجتماعـي علـى تنقلات العمل والتقنية العالية، فإحدى الخطوات الأساسـية التي قد تتخذ لبناء وشعور الجماعة في الموجة الثالثة هي استبدال وسـائل التـنقل بالاتصـالات الاصطناعية. أما الخوف العام من الحواسب الإلكترونية ووسائل الاتصال عن بعد يجردنا من الاحتكاك المباشر، ويجعل العلاقـات البشرية أكثر إشكالية وهذه نتيجة ساذجة وغافلة. وفي الواقع فإن العكـس قـد يكـون صـحيحا، أجل ستضعف بعض العلاقات في المصنع والمكتب، ولكن مقابل هذا ستتعزز وتتوطد الروابط في البيت والمجتمع بهذه التكنولوجيا الجديدة.

إن العقـول الإلكترونـية ووسائل الاتصال عن بعد تساعد على إيجاد مجـتمع، وعلـى الأقل تحرر الكثير من الناس من التنقل اليومي بين البيت ومكـاف العمـل-وهـو القوة النابذة التي تقذف بنان كل الاتجاهات عند كل صباح، وتقودنا إلى علاقات العمل السطحية وتضعف من الروابط الاجتماعية

الأهم في البيت والمجتمع"[12].

فهـذه التكنولوجيات الجديدة عندما تكون متوفرة للأسرة وللناس جميعا فـي العمل والبيت ستكون لصالح الأسرة في جعلها مترابطة وتتميز بعلاقات الدفء والاقتراب والمزاجية والرقي. وقد يصبح الكوخ الإلكتروني في مكان العمـل المميـز للأم والأب في المستقبل. وقد يقودنا إلى وحدة عمل أسرية جماعية جديدة تضم الأطفال وأحيانا الأقرباء أيضا.

إن إعـادة بناء المجتمع هي جزء من عملية أكبر وأشمل، وأفراد هذا المجـتمع يحـتاجون إلـى بنية حياتية بعد أن تطعمت ببيئة الحياة ومعانيها بانهيار مؤسسات الموجة الثانية -فالحياة التي تفتقر إلى بنية مفهومة ومدركة هي حطام لا هدفي، وغيابها يغذي ذلك الانهيار. أما وجودها فيزود المجتمع بنقاط مرجعية ثابتة نسبيا وضرورية، لهذا السبب يعتبر الكثير من الناس أن العمـل بنية حاسمة نفسيا، وأنه فوق الأجر وأعلى منه وما مطالب هؤلاء الناس بأمور معينة في وقتهم وطاقتهم إلا دليلا على انتظام حياتهم حول عنصر البنية الشـاملة ذاك. فالواجبات الموكلة للآباء لتربية الأطفال ومسؤولية رعاية العجزة والانضـباط الصـارم مـن العضو في هيئة دينية أو سياسية هي بنية بسيطة مفروضـة على الحياة ولكن بعض الشباب يلجؤون إلى تعاطي المخدرات لخلق بنـية مرئـية غائبة عنهم ويقول العالم النفسي (رولوماي May) : "إن إدمان تعاطي الهيروين يشق طريقا إلى الحياة بالنسبة للشباب المدمن، ولأنه قد عانى من اللاهوية الدائمة فإن بنيته تتألف الآن من كيفية هروبه من الشرطة وكيف يحصـل علـى المـال وأين يمارس عادته وكل هذا يعطيه نسيجا جديدا من الطاقة بدلا من العالم اللابنيوي"[13].

فالأسرة النووية والبرامج المفروضة اجتماعيا والأدوار الشديدة التمييز والميزات المرئية في المرتبة والظرف وخطوط السلطة المفهومة كلها عوامل أوجـدت بنـية حياتـية كافـية لمعظم الناس خلال حضارة الموجة الثانية،

وانهيارها حاليا بتفكك هذه البنية في العديد من أوجه الحياة الشخصية، وذلك قبل أن تظهر مؤسسات الموجة الثالثة المستقبلية لتلك البنية. ولهذا السبب وليس مجرد بعض الفشل الشخصي، يشعر الملايين حاليا باحتقار الحياة ولأي مظهر من مظاهرها مما يضيف فقدان المعنى أيضا.

ويتأتى هاذ الشعور "بقيمة" الحياة من جملة العلاقات الصحيحة مع المجتمع المحبط بنا من الأسرة والشركة والدين والحركة السياسية ويعتمد هذا الشعور على مدى قدرتنا في رؤية ذاتنا كجزء من مخطط أكبر بل من مخطط كوني شامل. عندما نعي هذه الأمور وندركها في كل واحد الشعور بالوحدة وفقدان البنية وانهيار المعنى، التي صاحبت تقوض الحضارة الصناعية (الثانية) تستطيع فهم أكثر الظواهر الاجتماعية إنارة للصحة في عصرنا وليس أحكمها إلا النشوء المدهش للطوائف الدينية.

وهل في إمكاننا أن نعي وندرك هذه الأمور في ثقافتنا العربية الإسلامية لكي تساهم جماهيرنا في هذه الحضارة الكونية؟ ومن أجل جعل حضارة الموجة الثالثة ديمقراطية وسليمة من الناحية النفسية والعقلية، وعلينا أن نفهم ونستوعب تلك التكنولوجيات الجديدة بروح ثقافية متوازنة، نحن في حاجة إلى أكثر من بناء المجتمع(*) إن للبنية والمعنى ضرورة قصوى أيضا ومرة أخرى في وطننا العربي الإسلامي تبدو هناك أشياء سهلة نستطيع تأديتها حتى نبدأ. علينا تحرك تلك الطمأنينة التي في ذواتنا إلى عنصر تنظيمي في حياتنا وفي سلوكنا اليومي وتخليص الفرد من الظروف الحالية اليومية من الاضطراب الاجتماعي حتى يسهل استيعاب تلك التكنولوجيات الجديدة، على التعليم في بلادنا يعلم أطفالنا ببيئة الحياة اليومية حتى يعرف هؤلاء الأطفال والشباب بيئتنا الاجتماعية وتنظيم العمل أي "منظومة الحياة" وتعليمهم بأن الحياة لها معنى وقيمة، في ضوء بناء الثقافة والحضارة وتجديدهما وبناء الصلات الاجتماعية الثقافية اللائقة واعتبار ذواتنا جزءا من

الحضـــارة الكونـــية والكشـــف المترابط من حركة التاريخ ذات المعنى العام والخاص، إذا يجب علينا أن نساهم في بناء حضارة الموجة الثالثة أن نمضي في الهجوم على العزلة الاجتماعية والتفكك والأنانية واللاشخصانية اللابنيوية والإحســـاس باللامعنى الذي يعاني الكثير من الناس منه، ربما يكون عرضا مـــن أعراض انهيار الماضي وليس صورة من المستقبل. علينا تزويد الحياة بإطـــار من النظام والأهداف ؛ فالبنية والمعنى والمجتمع شروط مسبقة ذات علاقـــة متبادلة من أجل مستقبل أطفالنا ، شبابنا ، أمتنا ، مستقبل صالح مفيد للحياة. بعيدا عن المتاهات الفكرية.

التغيرات الفكرية الجديدة:

لماذا يصبح عدد كبير من الناس وفي بلدان عديدة وحتى المثقفون منهم عاجزين عقليا أي تاهين في "المتاهات أو الدومات الفكرية؟

يغـــرقون فـــي مـــتاهات أو دومات الصراع الفكري المقلق والمتنافر والمحير، إن هذا الصراع لرؤى يهز عالمنا العقلي الفكري وكل يوم يأتي لنا صناعة أو بدعا جديدة أو اكتشافا علميا أو دينيا أو حركة أو بيانات إن آلاف التـــيارات الثقافـــية والفكرية الحديثة المتعارضة المتنافرة التي تكتسح شاشة الوعـــي مثل: " عبادة الطبيعة، ونظرية العقل الباطني التراكمي Esp والطلب الهوليســـتكي Holishc وعلـــم الأحياء الاجتماعي Sociobiology والفوضوية Anarchism والبنـــيوية Strucualism والماركســـية الجديدة والعلوم الفيزيائية الجديـــدة والصـــوفية الشـــرقية والولع التقني Technophilia والرهاب التقني Technophobia، تمتلك هيئاتها العلمية أو مرسلها المؤقت. إننا نشهد هجوما متصـــاعدا علـــى العلـــم التأسيسي، وبحثا واسع النطاق للأصولية العقائدية والبحـــث اليأس عن شيء- أي شيء للإيمان به وكثير من هذه الفوضى في الواقـــع هي نتيجة حرب ثقافية مركزة وكثيفة- إنه صدام ثقافة الموجة الثالثة الصـــاعدة مـــع الأفكار- الراسخة والمسلمات القائمة للمجتمع الصناعي"(14).

ويؤكد (توفلر) أن لوسائل إعلام الغد المنتمية لحضارة الموجة الثالثة والتي ستؤثر في الفكر ستكون للبنية الأساسية الإلكترونية في أقطار المجتمع المتقدم ست سمات متميزة وثم التنبؤ ببعضها سلفا. وهذه السمات تمثل مفاتيح المستقبل وهي: التفاعلية Interactivity وقابلية التحرك أو الحركة Mobility وقابلية التحويل Convertibility والتوصيلية Connectivity والتوسع أو الانتشار Ubiquity والتدويل Globalization[15]. هذه السمات تؤدي إلى تحول كامل لا في الطريقة التي توجه بها الرسائل بعضها إلى بعض فحسب، بل أيضا، في الطريقة التي نفكر بها والكيفية التي نرى بها أنفسنا في العالم. فكما قضت الموجة الثانية على الأفكار التقليدية السائدة ونشرت عقيدتها التي دعته بالواقعية الصناعية. كذلك تشهد اليوم ثورة فلسفية تهدف إلى خلع المسلمات التي سادت الثلاثمائة العام الماضية. لقد أصبحت اليوم الأفكار الإنسانية (الثقافة) للحقبة الصناعية موضع تكذيب وشك واسقاط من الاعتبار ويأخذ مكانها اليوم نظريات وأفكار أكبر وأقوى.

لقد عرفنا في الفصول السابقة من هذا الكتاب، أنه لم تكسب المعتقدات والأفكار الأساسية لحضارة الموجة الثانية قبولا خلال القرون الثلاثة الماضية إلا بعد صدام وصراع وقتال مرير، ففي العلوم والتعليم والدين وفي ألف مجال حارب المفكرون التقدميون للحركة الصناعية ضد المفكرين الرجعيين الذين عكسوا فكر وعقلية المجتمعات الزراعية، واليوم دار التاريخ والزمان دورته وأصبح مؤيدو حركة الثورة الصناعية في وضع حرج للغاية أمام الثقافة الكونية أي ثقافة حضارة الموجة الثالثة الجديدة التي بدأت بأخذ مكانها وشكلها النهائي. أليس هذا بصدام ثقافات وتفاعل حضارات؟.

وإن أكثر شيء يتضح فيه تصادم الأفكار ذاك هو تصورنا المتغير عن الطبيعة، ففي العقد الماضي برزت حركة بيئية عالمية استجابة للتغيرات الأساسية والخطيرة التي أصابت المجال البيئي الحيوي للأرض. لم تنحصر

تلك الحركة في مهمتها في مهاجمة التلوث أو المنكهات الغذائية أو المفاعلات الــنووية بل دعت إلى التكفير من جديد في مسألة الاعتماد على الطبيعة، أي الــتحرك مـــن العدائية إلى اللاعدائية على المستوى العملي مع الطبيعة. فقد أشـــار معهد الأرض المدينية Urbanland Institution في تقاريره أن أعدادا هامة من الناس تتحول إلى المناطق الريفية. وازدهرت في السنوات الأخيرة الدعـــوة إلـــى تـــناول الأطعمة الطبيعية وإجراء الولادة الطبيعية والإرضاع الطبيعـــي والايقاعـــات البيولوجية أو الاهتمام برعاية الجسم. أما عدم إيمان الـــناس بالتكنولوجـــيا فقد أضحى واسع الانتشار وحتى في أوساط المتشددين بفكـــرة الـــتاريخ القومي الإجمالي نجد أنهم لا يدخرون جهدا في إبداء رأيهم بوجـــوب احـــترام الطبـــيعة وحمايـــتها وليس اغتصابها إذ ينبغي الحد من التأثـــيرات التكنولوجـــية علـــى الطبـــيعة وخطرها ويجب عدم تجاهلها فقوة الإنســـان التدمـــيرية للأرض أصبحت في وضع خطرا أكثر مما شككت به حضارة الموجة الثانية"[16]. وفي صميم التغيرات الفكرية ففي عام (1953) كـــان البيولوجي جيمس واطسن Watson الذي قال بأننا " اكتشفنا سر الحياة" وبـــالفعل هذا ما حصل فقد اكتشف واطسن وكريك بنية الـــ D.N.A في عام (1957) حيـــث كانـــت اهـــتزازات الموجـــة الثالـــثة فـــي أولها. اكتشف (أرنركورنبرغ Kornberg كيف ينتج الـــ D.N.A ذاته. ووصف النتيجة في موجز شهير بقوله "لقد كشفنا الكروموزمات" كيف تحدد الوظيفة الوراثية. لقد ركبـــنا الخلـــية وحللناها. ودمجنا الخلايا من سلالات مختلفة. عزلنا الجينات البشـــرية المحضة. رسمنا خريطة المورثة. ركبنا المورثة وحللناها ، غيرنا الشـــيفرة الوراثية للخلية" وفي عصرنا الحالي يستطيع المهندسون الوراثيون فـــي مختـــبرات العالم المختلفة إنتاج أشكال حياتية غريبة فأغلقوا باب جولة "الـــتطور ذاتـــه بعد أن تصور مفكرو الموجة الثانية أن الأنواع البشرية هي أوج العملية التطورية الطويلة [17].

وعلـــى مفكـــري حضــــارة الموجة الثالثة مواجهة الآن الحقيقة بأنهم سيصبحون مصممون لعملية التطور فهذه العملية ليست كما كانت سابقا ومثل مبدأ الطبيعة يصاغ مفهوم جديد مبدأ التطور أيضا.

وكمـــا تغـــيرت الفكـــرة عـــن الطبـــيعة وعن التطور في أفكار الموجة الحضــــارية الثانـــية تتغير الفكرة عن "التقدم" Progress من جديد. فمن ظهور الوجوديـــون في الخمسينات والهيبيز Hippies في الستينات إلى روايات هكسلي وأوريل فرصة جعلت التشاؤمية وليس التفاؤلية حول الظرف البشري موضوعا ثقافـــيا ســـائدا. وقـــد بذلت هذه الحركات جهدا كبيرا لتبدل تيرة التفاؤلية منيرة التشـــاؤمية- الـــيأس القـــانط. وســـرعان ما أصبحت التشاؤمية أناقة إيجابية. وأصـــبحت التكنولوجـــيا بنظر الكثيرين القوة المدمرة الماحقة للحرية الإنسانية والبيئية الطبيعية وليست محركا للتقدم، وأصبحت كلمة التقدم قدرة فعلا لكثير من علمـــاء البيـــئة وغـــزت المكتبات مؤلفات ضخمة تحمل عناوين مثل "المجتمع المنهار" و"العصر الأسود القادم" و"مخاطر التقدم" و"موت التقدم"[18].

ومهمـــا كـــان لهذا التشاؤم أو اليأس القانط مبرراته أم ما تزال، فعلى المحلل والقارئ أن يقرر بنفسه فما يتضح اليوم أن فكرة التقدم الحتمي الوحيد المسار وهي عماد أخر للواقعية الصناعية، قليلا من المرحبين بها عندما بان أن على وشك أو وصلت حضارة الموجة الثانية إلى النهاية.

وســـيطر علـــى عـــالم الـــيوم إقـــرار بإن التقدم لم يعد يقاس بالتقدم التكنولوجـــي أو المعـــيار المـــادي للحياة. فالمجتمع المنحط أخلاقيا وجماليا وسياســـيا وبيئـــيا هو ليس مجتمعا متطورا مهما كان ثريا أو تقنيا. باختصار نحـــن ننتقدم نحو فكرة أكثر شمولية عن التقدم. إنه التقدم الذي لا ينجز آليا. ولا تحـــدده المعايـــير الماديـــة وحدهـــا. ونحـــن أيضا أقل ميلا للتفكير أن المجـــتمعات تـــتحرك فـــي مسار واحد وأن كل مجتمع ينتقل آليا من محطة حضارية إلى أخرى أو إلى محطة "أكثر تقدما" من الأخرى.. وأن المجتمعات

قد تكون قادرة على تحقيق تقدم وتطور شاملين عبر تنوع الطرق والمناهج: فالتصور الجديد للتقدم أنه شجرة مزدهرة تمتد أفنانها المختلفة نحو المستقبل، وأن تـنوع الـثقافات الإنسـانية وتراثها هما المقياس"[19]. فالعقود الماضية شاهدت صياغة جديدة للمفاهيم السائدة عن الطبيعة والتطور والتقدم على حد سـواء هـذه المفاهـيم كانت بدورها قائمة على أفكار أولية كمسلماتها حول الـزمان والمكان والسببية، فحضارة الموجة الثالثة تفكك هذه المسلمات التي كانت الصمغ الفكري الذي ربط حضارة الموجة الثانية.

الشخصية أو الشخصية الاجتماعية المستقبلية (الجديدة) :

ونحن نلاحظ تخلل حضارة غريبة في عمق حياتنا يمكننا أن نتساءل ربما أصبحنا نحن الآن أيضا أشياء من الماضي. وليس من المفاجئ إذا شعرنا أحيانا مـثلما يشعر الناس في الماضي عندما واجهوا حضارة الموجة الثانية ؛ بوجود قيمهم وسلوكياتهم وعاداتهم وأعمالهم الاعتيادية وأجوبة أسئلتهم. وبهذه المفارقة التاريخية، فهل بيننا أناس من المستقبل يساهمون في بناء حضارة الموجة الثالثة القادمـة؟ ومـن مشـاهدتنا للانحلال والتفسخ والتصدع السائد حولنا هل ترى الخطوط أو المعالم الرئيسية لشخصية المستقبل أو قدوم الإنسان الناشئ الجديد؟ Un Homme Nouveau إن صح التعبير؟

وإذا كـان الأمـر كذلك، فلن تكون هذه المرة الأولى التي ينظر فيها للإنسـان الجديد القادم في الأفق، فقد كانت هناك تصورات عبر التاريخ، فقد تصـور (أندريـه ريتزلير Reszler في نهاية القرن الثامن عشر قدوم "أدم الأمريكي" الرجل المولود في أمريكا الشمالية المفترض ألا يحمل آثام ضعف الرجل الأوروبي.

وفـي منتصف القرن العشرين قال (هيرمان راوشسننغ Rauschning أن الـنازية هـي أكـثر مـن مجرد عقيدة إنها إرادة خلق "الرجل الخارق

Superman وهــذا الرجل الآري القوي سيكون في تكوينه فلاح ومقاتل وآلة. وأنــتاب الشيوعيين قدوم "الإنسان الاشتراكي" ولكن (تروتسكي) هو الذي تحدث بعاطفة زاخرة وحية عن إنسان المستقبل: "سيصبح الإنسان بصورة لا تقــارن مع رجل الماضي فهو أقوى وأكثر حكمة ووعيا وجسده أكثر تناسقا وحــركاته أكــثر إيقاعا وصوته أكثر موسيقى ونغمة، وستكتسب أساليبه في العــيش نوعية مثيرة وقوية أو سيصل الإنسان المتوسط إلى مستوى أرسطوا أو غوتـــه أو ماركس" وقبل عقد أو عقدين أعلن عن قدوم رجل جديد سيكون لــــه عقل جديد ، ووجد" جيفارا Guevara الإنسان المثالي المستقبلي بتملكه لحياة باطنية أغنى.

ويشير ريتزلير على نحو مقنع أن وراء معظم التصورات عن "الرجل الجديــد" يكمــن ذلــك الرفــيق القديم والمألوف أي السبيل البربري Noble Savages المخلــوق الأســطوري المتمتع بكل السجا والصفات التي أفسدتها الحضـــارة أوقعت عليها. وعندما يستجوب ريتزلير هذا الإضفاء الرومانسي علـــى البدائي، يذكرنا بأن الأنظمة التي أنطلقت عمدا في إيجاد الرجل الجديد قــد جلبت معها الخراب الديكتاتوري عادة في بداياتها. وسيكون من الحماقة الإعــلان مرة أخرى عن مولد "الرجل الجديد" ، إلا إذا عنينا ذلك من خلال الســياق البيولوجــي المحض المخيف الذي يعمل المهندسون الوراثيون فيه، وتوحي الفكري بتكوين نموذج Prototype واحد أو نموذج مثالي وحيد تجهد حضارة بأكملها لمضاهاته "[20].

وفي مجتمع أو عالم يتحرك بسرعة مدهشة للغاية نحو اللا تجانس أو اللاجماهيرية كل شيء يصبح ممكنا أو محتملا بكل تأكيد أن الظروف المادية للحــياة المتغــيرة بشكل جوهري ستترك الشخصية، أو بدقة أكثر الشخصية الاجتماعــية غير متأثرة فالانتقال إلى بنية اجتماعية عميقة يحمل معه تعديلا للشخصــية الاجتماعــية. وحــتى ولو آمن واحد منا بطبيعة بشرية معينة لا

متغـيرة –وهـي فكرة عامة أرفضها – فإن المجتمع سيستمر بإفراز بعض الخصـال الشخصـية ومكافأتها ومعاقبة خصال أخرى، وسيقود إلى تغيرات تطورية في توزيع الخصال بين الناس.

ويعرف المحلل النفسي (أريك فروم Fromm) الشخصية الاجتماعية هذه العملية بأنها: "ذلك الجزء من بنية الناس الشخصية المشتركة عند معظم أفـراد الجماعة" ويقول أنه في أية حضارة هنالك خصال مشتركة بين الناس لـتؤلف الشخصية الاجتماعية وبدورها تشكل الشخصيات الاجتماعية الناس يضـحى "سلوكهم ليس مسألة قرار واع فيما يتعلق بإتباع أو عدم إتباع النمط الاجتماعي، بل من يريد منهم التصرف كما يجب أن يتصرف ويجد في نفس الوقـت جاذبية للتصرف وفقا لمتطلبات الثقافة. ويضف (توفلر) بأن "هدف (حضـارة) الموجـة الثالثة ليس خلق الرجل الخارق المثالي أو نوعا من الفضـائل البطولـية التي تجري متشامخة بين ظهرانينا، بل إنتاج التغييرات المثـيرة في الخصال الموزعة في المجتمع–ليس الرجل الجديد بل الشخصية الاجتماعـية الجديـدة. ومهمتـنا بالتالـي هـي ليست التفتيش عن "الرجل" الأسـطوري بـل عن الخصال التي تقيمها حضارة المستقبل على الأرجح. وخصـال الشخصية هذه لن تعكس الضغوط الخارجية على الناس فهي تنبع من التوتر القائم بين الدوافع الداخلية وتعدد الرغبات عند الأفراد وبين الدوافع الخارجية أو ضغوطات المجتمع"[21]. مثلا لقد صاحب قدوم حضارة الموجة الثانية (الحضارة الصناعية) انتشار الأخلاق البروتستانتية التي أكدت على التوفـيق والكفـاح المتواصـل وإرجاء إشباع الحاجات. بالإضافة إلى ذلك تغيـيرات في الموضوعية –الذاتية والفردانية والمواقف تجاه السلطة والقدرة علـى التفكـير المجـرد والتقمص العاطفي والخيالي. ونتيجة هذه التحولات الـنفس – ثقافية Psycho – Cultural أجريت عملية جدولة توزيع جديد للخصال – شخصية اجتماعية جديدة.

ونحـــن حاليا في عصرنا على حافة ثورة نفس – ثقافية جديدة Anew Psycho- Cultural Revolution. وحقـيقة ابـتعادنا عن الانتظام الأورويللي Orwellian Uniformity يصـــعب التعميم حول شكل العقل الآتي.. ومن هنا تستطيع تأمل التعامل مع المستقبل وبالتالي نشير إلى تحولات قوية يرجح أن تؤثـــر على التطور السيسولوجي في مجتمع الموجة الثالثة. وهذا يقودنا إلى طـــرح أســـئلة مدهشة إن لم تكن استنتاجات فهذه التحولات تؤثر على تربية الأطفال والتعليم ومرحلة المراهقة والعمل وحتى على الطريقة التي تشكل من خلالهـــا تصوراتنا الشخصية. ويستحيل تغيير كل ذلك دون إجراء عميق في كامل الشخصية الاجتماعية المستقبلية.

فطفــل المســـتقبل مـــن المرجح أن ينشأ في مجتمع أقل تمركزا حول الطفـــل Child – Centered من مجتمعنا ويتضمن تعمير Aging السكان في جمـــيع الـــبلدان العالـــية التكنولوجيا واهتماما كبيرا بحاجات الكبار وبالتالي تركـــيزا أقل على الصغار. وخاصة بعد أن دخلت المرأة الأعمال والمهن في الاقتصـــاد التبادلـــي. فقـــد زالـــت الحاجة التقليدية لتوجيه كل طاقاتها نحو الأمومة. في خلال حضارة الموجة الثانية ظل ملايين الآباء أحياء في أحلام أطفالهم وغالبا لأنهم أملوا أن يؤدي أطفالهم دورا اجتماعيا واقتصاديا أفضل ممـــا أدوه هم. مما أدى هذا الأمل التنقلي الصاعد إلى تركيز الآباء لطاقات عقلية -ذهنية هائلة على أطفالهم في عالم يزداد صعوبة يتحركون إلى أسفل الســـلم الاجتماعـــي- الاقتصـــادي لا قمته، وتتلاشى أيضا احتمالية الإنجاز الـــبديل. لهـــذه العوامل سيدخل الطفل(الوليد) المستقبلي إلى مجتمع لم تعد تســـتحوذ علـــيه وربمـــا ليس معمى لحد كبير – حاجات ورغبات التطوير السيكولوجي وإشباع الحاجات مباشرة – وهذا ربما سيحث الكثير من العلماء والمفكرين والباحثين على الاهتمام المستقبلي لطفولة أكثر بنائية (خاصة في وطنـــنا العربـــي الإســـلامي حيـــث يؤكـــد (سبوكس Spocks) على حث

(المستقبليين على طفولة أكثر بنائية ومطلوبية، وعلى تقليص التساهل تجاه الآباء، ولن تكون مرحلة المراهقة عملية مطولة ومؤلمة كما هي حالة الكثيرين اليوم"[22].

أما الأنا الجشتالتية[*] The Gestalt Me إن الصلة بين الاتصالات وبين الشخصية صلة معقدة لا يمكن اختراقها. ولا تستطيع تحويل كل وسائل الاتصال على أن لا تتغير، فالثورة في وسائل الإعلام والاتصال تعني ثورة في العقل. من خلال حضارة الموجة الثانية وجه الناس ليغرقوا في بحر من الصور المنتجة للجماهير عموما Mass-Produced Imagary وغذت الصحف والمجلات ومحطات الإذاعات المسموعة والمرئية والأفلام المنتجة كلها مركزيا ما يدعوه النقاد. بالوعي المتناغم والكي التماسك Monolithic Conscience فكان الأفراد يشجعون باستمرار على مقارنة أنفسهم مع عدد قليل نسبيا من النماذج الوظيفية Pole Models وتقييم أنماط حياتهم بالنسبة لأفضل الاحتمالات القليلة. ونتيجة لذلك كان نطاق النماذج الإسلوبية الشخصية المجازة اجتماعيا ضيقا نسبيا وببروز الثورة الإعلامية حاليا يفرز تنوعا مدهشا من النماذج الوظيفية والأساليب الحياتية التي يقارن الفرد خصائصه بها. بالإضافة إلى ذلك فإن وسائل الإعلام الجديدة لا تغذينا بأجزاء كاملة التشكل، بل أجزاء مفتتة وصور غير كاملة من الصورة كلها. وبدلا من إعطائنا خيارات من الهويات المتماسكة لنصطفي منها ما يلائم طلب منا ضم الأجزاء إلى بعضها البعض لتكوين الكل الكامل: الأنا الصورية أو المعدلة Modulater وهذا وضع صعب يفسر بحث ملايين الناس اليأس عن هوية ويؤكد (توفلر) على ذلك بقوله: "إننا نطور وعيا عاليا بفردانيتنا الخاصة أو الخصال المميزة لفردية المرء ـــ فتتغير بالتالي صورتنا الذاتية ـــ إننا نطالب بأن نعامل كأفراد وهذا يتزامن مع تطلب النظام التعليمي للعمل الأكثر فردانية.. ووراء مساعدتنا لبلورة ما هو شخصي محض لنا،

تحولـــنا وسائل الاتصال الجديدة للموجة الثالثة إلى ما هو شخصي مستهلكين لصـــورتنا الذاتية. وقد أشار الشاعر الناقد الاجتماعي الألماني هانز ماغنوس إنزتســـبرغر Enzensberger أن وســـائل الإعـــلام الاتصال القديمة تضمنت التميـــيز التقنـــي بين المتلقي والمرسل العاكس لتقسيم العمل الاجتماعي إلى منتجيـــن ومستهلكين"[23]. كان هذا خلال حضارة الموجة الثانية. أما المظهر الـــثوري فـــي وسائل الإعلام والاتصالات الجديدة الكثير منها تفاعلي حيث تسمح لكل مستخدم لها صنع الصور أو إرسالها بقدر ما يتلقاها بشكل مجرد مـــن الخارج. إن ثورة الاتصالات تعطي كل منا مركبة عن الذات وتزيد من تميزنا عن الآخرين.

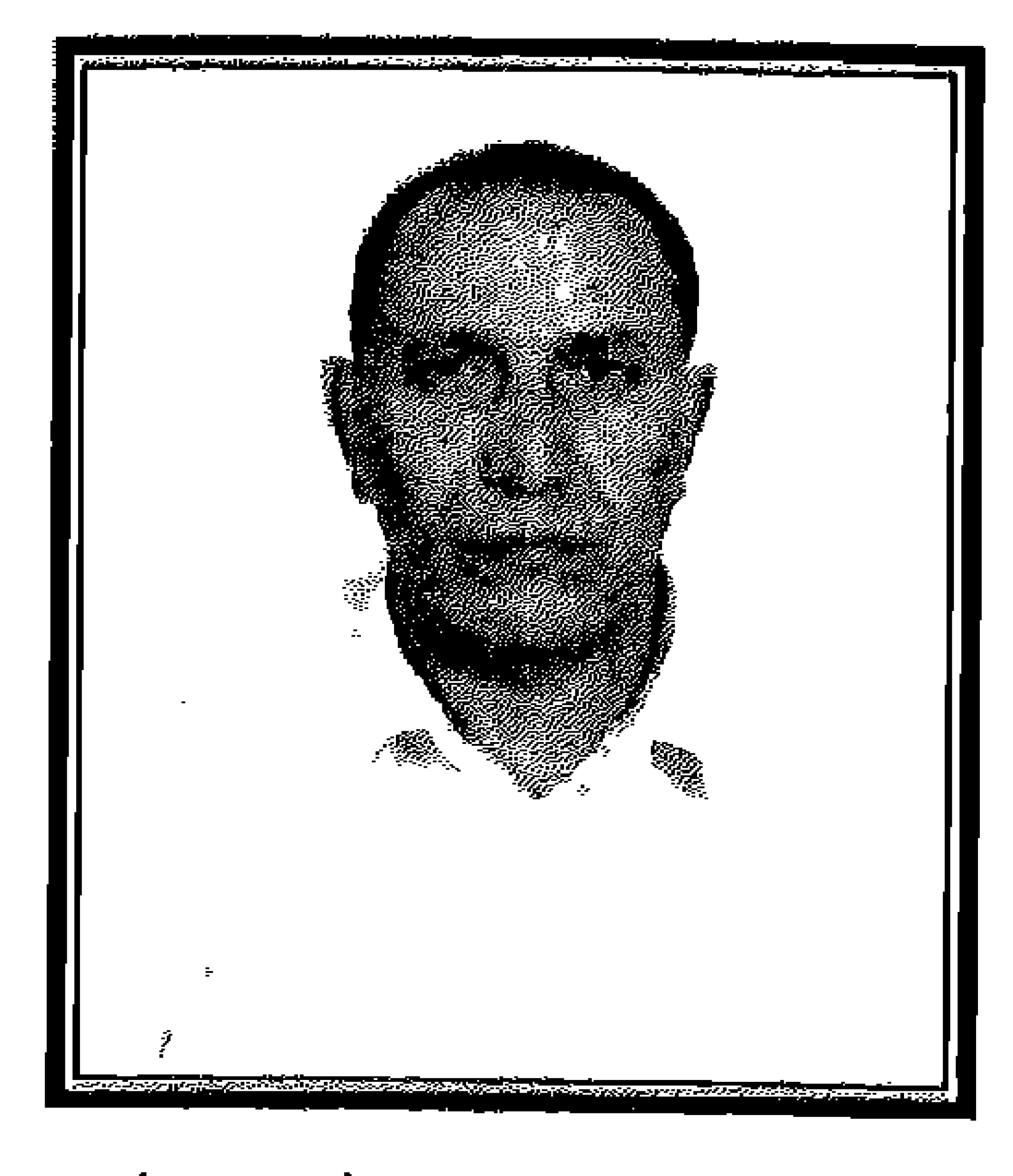
هوامش الفصل السادس:

---

(1) آلفن توفلر، حضارة الموجة الثالثة ، مرجع سابق، ص 337.
(2) نفس المرجع السابق، ص 336.
(3) نفس المرجع السابق، ص 372.
(4) نفس المرجع السابق، ص 388.
(5) نفس المرجع السابق، ص 384.
(6) نفس المرجع السابق، ص 384.
(7) نفس المرجع السابق، ص 394 ـ 395.
(8) نفس المرجع السابق، ص 401.
(9) نفس المرجع السابق، ص 403.
(10) نفس المرجع السابق، ص 403.
(11) نفس المرجع السابق، ص 403.
(12) نفس المرجع السابق، ص 408 ـ 409.
(13) نفس المرجع السابق، ص 410.
(*) بناء المجتمع : نقصد به البناء التكنولوجي والمعرفي الجديد ذات البيئة العالية.
(14) آلفن توفلر، تحول السلطة بين العنف والثروة والمعرفة ،(مرجع سابق) ، ص 468.
(15) آلفن توفلر، حضارة الموجة الثالثة، (مرجع سابق) ، ص 319.
(16) نفس المرجع السابق، ص 322.
(17) نفس المرجع السابق، ص 323.
(18) نفس المرجع السابق، ص 324.
(19) نفس المرجع السابق، ص 420.
(20) نفس المرجع السابق،ص 420.
(21) نفس المرجع السابق، ص420 ـ 421.
(22) نفس المرجع السابق، ص 422.
(*) الأنا الجشتالتية أو الأنا الصورية Configurative هي البنية أو الصورة من ظاهرة سيكولوجية متكاملة وتؤلف وحدة وظيفية لا يمكن استمراها من جرائها بمجرد ضم بعضها إلى بعض ، فيدرس سلوكها من زاوية استجابتها كوحدات أو صور متكاملة.
(23) نفس المرجع السابق، ص 429.

المصادر الأجنبية

- Alferd weber deen zur steatsund.
Kultursozioiogi, 1426.
- A. Goldenveiser ; Anthropology 1927 An introduction To primitiveciture, 1927: A counson, Qu.
Est-cegue la civilisatio; 123.
- E-vermil , Doctrinaires de la revolution
Allemande , 1989 . v. Weper op. cit;
A. viekand; Naturvolker; op. cit.
- Leslie white expansion
Of the scope of science
In Joumal; vol 37, 1947.
- H. W. odum , understanding socicty the prineples of dyamie socioloyu, 1977.
- W. F. ogburn. Socialchange , 1925.
- Graham, e. fuller the Appeal of Iran National interest, 37 (Fall 1994) ; p. 95.
Mu'ammar al-gadhdhafi, sermon
Tripoli, Libya, 13 march 1994, in fbis,
Nes-94-049, 14 march 1994, p. 21.
- Mohammed sid-ahmed cybemetic colonialism and the moral search new per spctives quarterly, ii (Spring 1994), 19, m: j akad, quoted times, 15 June 1992 p. 24 abdlwahab belwahl, quoted (bid, p 26.)
- Wiliam, h. mcneil, epilogue: fundamentalism and the world of the 1990s in martin e. mary and r.scott Appleby, eds fundamentalism and society: reclniming the sciences, the family and education (Chicago; university of Chicago press) p, 569.
- Graham e fuller, 'the appeal of Iran' national interest, 37 (fall 1994); p95. mu, ammar al-qahdufi, sermon, Tripoli, Libya, 13 march 1994, in fbis-nes-94-044.
14 march 1994, p, 21.
- Quoted in Saturday star (.Johannesbury) 19 January 1991, p, 3Ecomomist, 26 January 1991, p 31-33.



أ. د مفتاح محمد عبد العزيز حسن

مواليد / المرج (1955) ف.

* المؤهلات العلمية:

* ليسانس آداب وتربية- جامعة قاريونس (1979).

* ماجستير في علم النفس- جامعة بتسبرج أمريكا (1982).

* دكتوراه في علم النفس- صحة نفسية- جامعة طنطا، جمهورية مصر (1995).

* الوظائف:

* أمين إتحاد الطلاب.. المرج- الجبل الأخضر (1973) للمرحلة الثانوية.

* أمين النشاط الثقافي لإتحاد طلاب ليبيا جامعة بتسبرج أمريكا (81-1982).

* أمين قسم علم النفس - كلية التربية سبها (82 - 1983).

* أمين المؤتمر التعليمي جامعة سبها (83 - 1986).

* من مؤسسي جامعة سبها(83 - 1986).

* من مؤسسي جامعة المرج (1999 - 2004).

* أمين اللجنة الشعبية لجامعة المرج (1991 - 2004).

* عضو جمعية مكافحة المخدرات- بنغازي ومركز الإدمان.

* عضو في العديد من الجمعيات الخيرية- هناء للأيتام- المعاقين.

* مدير المجلة العلمية لجامعة المرج وصحيفتها.

* عضو فريق الوافدين وحدة المقيمين.

* الكتب والمنشورات:

* القرآن وعلم النفس- منشورات جامعة قاريونس.

* ملامح نظرية تربوية في الكتاب الأخضر- مركز دراسات وأبحاث الكتاب الأخضر.

* سيكولوجية المعلم المتقاعد- دراسة تشخصية علاجية في المتغيرات الشخصية - منشورات جامعة قاريونس.

* علم النفس العلاجي- اتجاهات حديثة / دار قباء- مصر.

* الصحة النفسية والعقلية - نظرة معاصرة لنماذج من الاضطرابات التربوية

والنفسية - دار المعرفة - بنغازي.

* الصحة النفسية والاضطرابات الوظيفية- دار الأندلس- الإسكندرية.

* البحوث المنشورة:

* الاحتراق النفسى للمعلمين مجلة الآداب والعلوم- المرج (1989).

* الفروق في بعض خصائص الشخصية بين أبناء المؤسسات الإيوائية وأبناء الأسر الطبيعية في البيئة الليبية مجلة الآداب والعلوم (1999).

* بعض الخصائص المدركة والمأمولة لشخصية الأستاذ الجامعي لدى عينة من المعيدين والمعيدات بجامعة قاريونس مجلة الآداب والعلوم- جامعة المرج (2001).

* الفروق في وجهة الضبط وقوة الأنا وتقرير الذات لدى متعاطي المواد المتعددة وغير المتعاطين مجلة المرج (2001).

* المشاركات - البحوث - الندوات - المؤتمرات - اللقاءات :

* المسح الاجتماعية والاقتصادية- كلية التربية- جامعة قاريونس (78 - 1979).

* المسح الاجتماعى الاقتصادي لغرب مدينة بنغازي (1979).

* التنمية الاجتماعية - زيمبابوي (1983) هراري.

* تنمية المجتمعات الصحراوية (1989) مرزق.

* التعليم من أجل التحرير في إفريقيا (1989) سبها.

* جناح الأحداث في الوطن العربى (1989) طرابلس.

* دور الجامعات في تطوير التعليم الأساسي (1989) بنغازي.

* التعليم الوطنى الأول (1996) طرابلس.

* مكافحة المخدرات في دول حوض البحر المتوسط (1997) طرابلس.

* المؤسسة العربية للتكنولوجيا (2002) دبي.

* مؤتمر جمعية مكافحة المخدرات/ بنغازي- البيضاء (1997-1998- 1999- 2000).

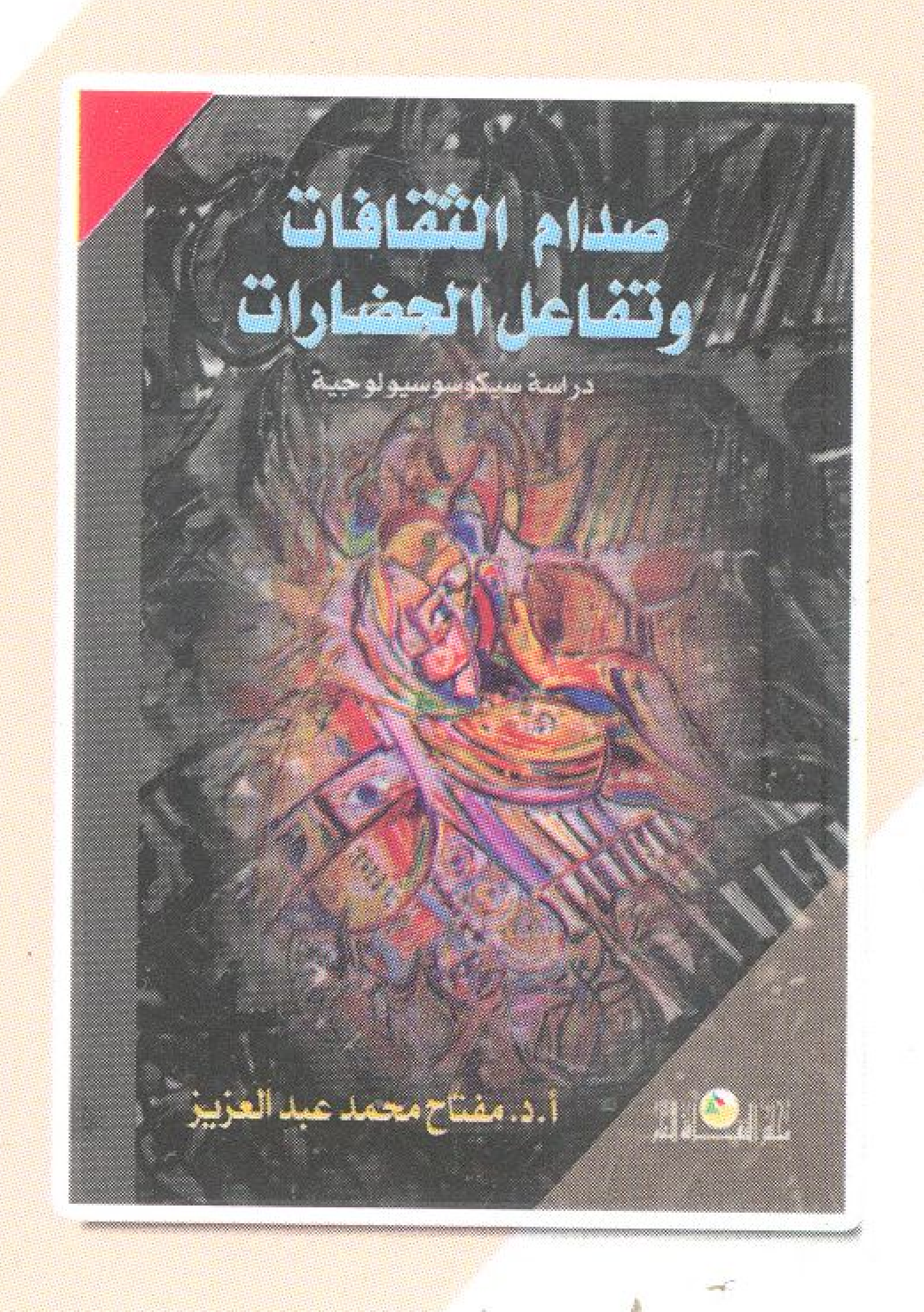
* مؤتمرات الأسر الليبية- البيضاء (1997- 1999 - 2000).

* دورات رفع كفاءة المعلمين/ بنغازي والمرج (1999 -2000).

* البرامج الإذاعية - فضاءاتها جامعة المرج (2000).

* الأنشطة العلمية والثقافية لمركز المعاقين (2000-2001) المرج.

تنفيـذ الطباعـة والتجهيزات الطباعية
دار قـــباء الـحـديـثـــة
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
جمهورية مصر العربية
16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر
تليفاكس 02/22621365 - محمـــول 0123140315
E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



يقدِّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.



